باسيل نيكتين
قنصل روسيا سابقا بإيران، عضو الجمعية الآسيوية وجمعية علم الإنسان بباريس، عضو المؤسسة العالمية لعلم السلالات البشرية

الكرد

أصلهم، تاريخهم، مواطنهم، عقائدهم، عاداتهم
آدابهم، لهجاتهم،قبائلهم، قضاياهم، طرائف عنهم

طبعة جديدة ومنقحة

قدم لها وراجعها ودققها:
صلاح بروارى

الكتاب والكاتب في سطور

بقلم صلاح بروراري

كتاب الكرد (Les Kurdes) لمؤلفه المستشرق الروسي الكبير باسيل نيكيتين (Basile Nikitine)، هو بحث اجتماعي وتاريخي هام، وضعه المؤلف عام ١٩٤٣ باللغة الفرنسية في باريس، لكنه لم يتمكن من طبعه وقتئذ بسبب عدم تلقيه المساعدة من أحد لطبعه.

وفي عام ١٩٥٦، وأثر تضافر جهود بعض مشاهير العلماء الفرنسيين، وعلى رأسهم المستشرق الشهير لويس ماسينون (Louis Massignon) الذي قدّم للكتاب، تم طبع الكتاب في باريس بمساعدة مالية من المركز الوطني الفرنسي للبحوث العلمية.

يعتبر هذا الكتاب مرجعاً هاماً لايستغني عنه أي مهتم بالقضية الكردية وباحث فيها.

صدرت للكتاب حتى الآن ثلاث ترجمات، الأولى باللغة التركية، والثانية باللغة الروسية (موسكو ١٩٦٤)، والثالثة ـ التي بين أيدينا ـ باللغة العربية وقد صدرت عن دار الروائع اللبنانية ـ بيروت، وبطبعتين: الأولى عام ١٩٥٨ والثانية عام ١٩٦٧. والطبعة العربية للكتاب تعتبر من أسوأ الترجمات، لما فيها من أخطاء

مطبعية ولغوية وغيرها، مما يفقد الكتاب الكثير من قيمته العلمية.

وتداركاً للأخطاء الكثيرة الواردة في الكتاب، التي وقع فيها كل من المؤلف والمترجم، من أسماء الأماكن والأعلام والتواريخ، فقد راجعنا الكتاب بدقة وعناية، وصحّحنا كل ما يمكن تصحيحه من أخطاء، وعلى الشكل التالي:

١ـ الأخطاء التي أمكن تصحيحها على الكتاب مباشرة، لم ندرجها في جدول الخطأ والصواب، بل صحّحناها مباشرة، مثل:

- اورمياه: تم حذف الهاء الزائدة، وأُبقي على صيغة (اورميا) القريبة من الصيغة الاصلية (اورميه).
- هكياري: تم حذف الياء الزائدة (الأولى) والابقاء على الصيغة الصحيحة (هكاري).
- هيماوند: تم حذف الياء الزائدة، والابقاء على الصيغة الصحيحة (هماوند).
- آماديا: تم الابقاء على هذه الصيغة، بسبب تشابهها مع الصيغة الكردية الأصلية (آميدي) أي العمادية.
- بوهتان: تم الابقاء على هذه الصيغة بسبب تداولها

بين الكرد إلى جانب الصيغة المرخّمة المتداولة حالياً (بوتان) أما صيغة (بحطان) الواردة في بعض مواضع الكتاب، فقد أشير إليها في جدول الخطأ والصواب.

ـ تم حذف الكثير من النقاط الزائدة، الواردة في بعض الكلمات .أما الأخطاء العديدة الأخرى، التي لم نتمكن من تصحيحها على الكتاب مباشرة، فقد أفردنا لها جدولاً خاصاً ومطوّلاً (جدول الخطأ والصواب)، آملين من القراء الكرام الرجوع إليه، وتصويب أخطاء الكتاب على ضوئه قبل مطالعة الكتاب، كي تكون الفائدة أعمّ وأشمل .وبسبب قلة الامكانية المادية يؤسفنا عدم التمكن من إعادة تنضيد الكتاب، الذي تتولى اصدار طبعته الحالية مجلة (آسو ـ ASO) ـ الأفق ـ الكردية (وهي مجلة ثقافية مستقلة تصدر لأول مرة)، ويعتبر هذا الكتاب باكورة منشوراتها.

ختاماً نرى من الضروري إيراد معلومات مقتضبة عن حياة وأعمال المؤلف باسيل نيكتين:

حياته:

ـ ولد عام ١٨٨٥م في مدينة (سوسنوفتسي) في بولونيا.

ـ تخرج من معهد لازاريف للغات في موسكو،

متخصصاً في اللغات الفارسية والعربية والتركية. وفي عام ١٩٠٨ انتسب إلى معهد الترجمة، التابع لوزارة الخارجية الروسية في العاصمة سان بطرسبورغ. ومن ثم عمل في القنصلية الروسية في افغانستان.

- في عام ١٩١١ اجتاز نيكيتين، وبنجاح، اختباراً لوزارة الخارجية، واختير سكرتيراً لقسم الترجمة في القنصلية الروسية بمدينة (رشت) عاصمة اقليم گيلان في إيران.

- في عام ١٩١٥ رقّي إلى رتبة نائب قنصل، ومارس مهام عمله الجديد في مدينة (تبريز) عاصمة اقليم أذربايجان الإيراني. بعدها ذهب إلى مدينة اورميه (ورمي) في كردستان إيران، ومارس عمله هناك بصفة قنصل ولمدة ثلاث سنوات. وخلال عمله في اورميه، تعلم اللغة الكردية بشكل جيد، وتجول كثيراً في كردستان ايران، جامعاً خلال جولاته هذه الكثير من الوثائق والمخطوطات الهامة.

- بعد قيام الثورة البلشفية في روسيا، لم ترق له أفكار الثورة فترك عمله وغادر إيران إلى فرنسا عام ١٩١٩ (حيث كانت زوجته فرنسية). وهناك عمل، ولمدة ٢٨ عاماً، في فرع البحوث الاقتصادية التابع للمصرف الفرنسي للتجارة الخارجية، مواصلاً إلى جانب ذلك دراساته وأبحاثه المتنوعة، حول الكرد والعديد من

الشعوب الشرقية الأخرى، حيث بلغت أعماله الخمسين عملاً، ما بين كتاب وبحث ومقال.

- توفي في باريس بتاريخ ٧/ حزيران/ ١٩٦٠ عن عمر بلغ ٧٥ عاماً.

أعماله عن الكرد:

له أعمال كثيرة عن الكرد والقضية الكردية، منها ما هو مطبوع ومنها ما لم يطبع بعد. ومن أهم أعماله غير المطبوعة هي ترجمته الفرنسية لكتاب (الراعي الكردي) للبروفيسور الكردي السوفيتي (أ. شمو).

يعتبر كتابه (الكرد) هو الكتاب الوحيد الذي ألفه عن الكرد، أما أعماله الأخرى فقد توزعت بين محاضرات ومقالات وبحوث متنوعة نشرها في المجلات العلمية الفرنسية والانكليزية والايطالية والبولونية، وهي:

محاضراته:

١- المواضيع الدينية في النصوص الكردية التي جمعها باسيل نيكيتين: محاضرة القاها في المؤتمر الدولي لتاريخ الأديان، باريس ١٩٢٣، وتقع في (١٨) صفحة.

٢- محاولة لتصنيف الفولكلور الكردي استناداً إلى التحليل الاجتماعي - الاقتصادي : محاضرة ألقاها في المؤتمر الدولي السادس عشر للانثروبولوجيا، بروكسل - ١٩٣٥.

٣ـ إسهام في دراسة الجهاد: رسالة بعثها إلى المؤتمر الدولي السادس لتاريخ الاديان، بروكسل ـ ١٩٣٥.

٤ـ شهادة كردية عن الجهاد: رسالة بعثها إلى لجنة تنظيم المؤتمر الدولي الثاني عشر للمستشرقين، استانبول ـ ١٩٥١.

بحوثه ومقالاته:

١ـ مشاهدات حول الكرد (١٢ صفحة)، باريس.

٢ـ ولاّة اردلان (٢٧ صفحة)، باريس ـ ١٩٢١.

٣ـ الكرد والمسيحية (٩ صفحات)، باريس ـ ١٩٢٢.

٤ـ الحياة المنزلية الكردية (١٠ صفحات)، باريس ـ ١٩٢٢.

٥ـ قصة سوتو وتوتو (١٩ صفحة)، لندن ـ ١٩٢٣.

٦ـ نظرة عامة على مناطق الحرب العظمى في شمال غرب ايران (٥ صفحات)، باريس ـ ١٩٢٤.

٧ـ الاقطاعية الكردية (صفحة واحدة)، باريس ـ ١٩٢٥.

٨ـ الكرد يتحدثون عن أنفسهم (١٠ صفحات)، باريس ١٩٢٥.

٩ـ من القصص الكردية (١٨ صفحة)، لندن ـ ١٩٢٦.

١٠ـ أين وصلت الكردولوجيا (٥ صفحات)، نابولي ـ ١٩٣٢.

١١ـ دفاع الكرد عن المذهب السني (٤٤ صفحة)، بولونيا ـ ١٩٣٣.

١٢ـ ملاحظات حول الكرد (٣٠ صفحة)، لندن ـ ١٩٣٤.

١٣ـ نظام الطرق في كردستان (٢٥ صفحة)، باريس ١٩٣٥.

١٤ـ المسألة الكردية (١١ صفحة)، باريس ـ ١٩٤٦.

١٥ـ القصيدة الغرامية الكردية (١٤ صفحة)، باريس ـ ١٩٤٧.

١٦ـ عن الكرد وبلادهم: بحث للميجرسون، ترجمه نيكيتين عن الانكليزية وعلق عليه وطبعه عام ١٩١٧ في مدينة (اورميه) بكردستان ايران.

١٧ـ مقالات متنوعة وقيّمة عن الكرد نشرها في دائرة المعارف الاسلامية ومجلة (أفريقيا وآسيا).

المقدمة

*

تحتضن كتلة جبال أرارات عند منابع دجلة والفرات ، ومنذ قرون عدة خلت ، مجموعةً من القبائل أثبتت أكثر من مرة عبر التاريخ ، تجانسها الاجتماعي ووحدة لغتها : إنها قبائل الأكراد . ومع أن عدداً كبيراً من الاختصاصيين في الشؤون الكردية ، قد باشروا منذ نصف قرن دراسةً منظمة لهذه القبائل ، فإن حقيقة الكردستان لا تزال غير واضحة ، وهذه الدراسة التي يقدّمها متخصص ضليع من الشؤون الكردية هي أول مؤلّف شامل يتناول المشكلة الكردية من جميع أوجهها .

ومع أن الدولة الكردية لم توجد قطّ ، فإن المشكلة الكردية قائمة . وإذا كانت اللهجات التي يستعملها الأكراد إيرانية ، إلاّ أنها توحي بوجود عنصر فيها غريب عنها . وإذا كان دين الأكراد هو الاسلام ، إلا أن عناصر قديمة ما تزال تشوب

اليزيدية وأهل الحقّ والسنّة والشيعة ، وهي عناصر قلّما توافق الخط المستقيم للدين الاسلامي . وقد لمعت بين الجاليات الكردية في سوريا والأناضول والعراق وأرمينيا وفارس ، شخصيات تميّزت عبر التاريخ بقوة خصائصها الكردية المحضة ، مثل صلاح الدين الأيوبي . وكثيراً ما عرف تاريخ الشرق رجال سياسة تُركاً وعرباً وفُرساً يعودون إلى أصول كردية .

وقد تمكن باسيل نيكيتين لوجوده في أورميا ، وبفضل صداقاته المتينة ، أن يجمع عن الأكراد وثائق مباشرة أفادت منها سجلاّتٌ علمية غربية عدّة . كما أن المؤلف ، معتمداً على غزارة المكتبتين الانكليزية والروسية اللتين تتعاظمان يوماً بعد يوم ، في هذا الموضوع ، تناول في فصول كتابه جميع أوجه المشكلة الكردية : فأصل الأكراد وأصول لهجاتهم ، وأنماط حياتهم ، ونماذج شخصياتهم ، ومساكنهم ، وتكوين قبائلهم ، ونوع تكتلاتهم ، وتاريخ نشوء فكرة الأمّة لديهم ، هذه هي المحاور التي تدور حولها دراسة المؤلف في كثير من التفهم الحدوب . وقد عرف المؤلف أين يوقف حدوده عند النقاط الكثيرة التي لا يزال الغموض يكتنفها ، حتى ليظهر بوضوح كم أشبع المشكلة درساً وتمحيصاً .

ومن خلال العرض الذي قدّمه المؤلف ـ وهو على حقّ ـ لاتساع الأدب الشعبي لدى الأكراد ، هذا الأدب الذي يفيض حيويةً وإن كان لمّا ينضج بعد ، يمكننا أن نستشعر طلائع تجدد

إنساني بإمكان الأكراد الجبليين الذين سبق أن تحالفوا مع الأتراك السلجوقيين لاحتلال الأناضول ، أن يبعثوه ثانيةً في الدول المجاورة لهم ، خصوصاً إذا ما سوّيت بعض الخلافات القائمة .

أيار ١٩٥٨ **لويس ماسينيون**

مقدمة المؤلف

*

من هم الأكراد ؟ وما الفائدة من دراسة تاريخهم ومجتمعهم ؟
إن غايتنا هي أن نقدم للقارىء خلاصة جميع الدراسات التي وُضعت حتى الآن عن الأكراد كي يكون على اطّلاعٍ على حقيقة إحدى بقاع آسيا ، هذه القارّة الشاسعة التي تستفيق اليوم من رقادها في انتفاضات قومية وثورات اجتماعية متلاحقة . فالأكراد يشكّلون عنصراً هاماً في آسيا ويلعبون دوراً رئيسياً في تطوّرات الشرق السياسية والاجتماعية والروحية .

وقد لزمنا جانب الحياد في دراستنا هذه إذ لا يجوز لإنسانٍ ما أن يدين شعباً ويقاضيه لهفواته . فلا يتسرّعنّ القارىء في الظن أن الأكراد قومٌ من السفاحين لمجرد أنهم كتبوا صفحة سوداء في تاريخهم عندما قاموا بدورٍ فظيع في اضطهاد الأرمن في أواخر القرن الماضي . وإنما على الباحث أن يكتفي بشرح أسباب حوادث

التاريخ وظروفها ، وأن يدرس نشوء الشعوب وتطوّرها الاجتماعي والسياسي .

وتاريخ الأكراد طويل معقّد . ودراستنا هذه ليست سوى لمحةٍ خاطفة عنهم ولكنها تستند إلى أحدث ما توصلت إليه علوم التاريخ والآثار والسلالات والانسان واللغة .

ويمتاز المجتمع الكردي بنظامه العشائري وروحه القبلية . فالأكراد يعيشون جماعات جماعات في منعزلٍ عن المجتمع المحيط بهم ، فنراهم يُشكلون دولةً وسط دولة حتى في المجتمع السوفياتي نفسه . وهذا هو سبب الاعتقاد السائد بأن الشعب الكردي هو عنصر فوضى وشغب .

والكردي فخور بأصله ونسبه مخلصٌ لرئيسه يضحي بدمه فداءً لبني قومه . وهو فارسٌ شجاع يحب الحرب وتروق له الملابس الزاهية الألوان . أما في حياته العائلية فهو أب حنون وزوج مخلص يكرّم امرأته وأولاده . وفي أوقات الفراغ يحب الكردي الغزل والغناء والأناشيد الحربية . إنه قاسٍ مع القريب ولكنه قاسٍ أيضاً مع نفسه وهو تارة عنيد وتارة محتال إنما هو دائماً شديد الذكاء كثير الحماسة سريع الغضب . يحب الطبيعة وما فيها من جبالٍ ووديان ، ومياه ومروج . ولا عجب في ذلك فالطبيعة مرعى لمواشيه التي تكوّن ثروته الرئيسية . أما في حقل الدين فالكردي يضع مصلحة القبيلة في منزلةٍ قبل فروضه الدينية ، غير أن ذلك لا يصرفه عن الروحانيات والتمسك بالمعتقدات . ويتجلى التراث الفكري للأكراد في الغناء الشعبي — الفولكور — وليس

في الأدب المكتوب .

ولا يخفى أن المشكلة الكردية قد طُرحت على بساط البحث منذ الحرب العالمية الأولى ، وأن هدف الأكراد هو إنشاء وطنٍ قومي لهم . ولقد عقدوا الآمال على منظمة الأمم ، ولكن تخطيط الحدود لم يلبِ مطالبهم القومية إذ شُتّت شملهم بين عدة دول .. وكانت خيبة الأمل هذه سبب استيائهم الشديد الذي عبّروا عنه بعدة ثورات دامية .

ولا يسعنا أن نتكهن عما يخبئه المستقبل ، ولكن من الواضح أن وضع الأكراد كأقليات سياسية متفرقة ، هو سبب تذمرهم وثوراتهم . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنهم يزدادون وعياً ، فإننا نتساءل إذا كانت هذه البقعة من العالم ستعرف الاستقرار يوماً !

ومنطقة الكردستان لها أهمية جغرافية واقتصادية كبرى ، فهي إحدى الصلات بين الشرق والغرب وفيها تتفجّر ينابيع غزيرة من النفط الحيوي للعالم . فمن مصلحة العالم كله أن يسود السلام في هذه المنطقة . ولا شك أن الضمير العالمي يودّ ويعمل على أن تسود مبادىء العدل ومبادىء حقوق الانسان .

إني أشكر من صميم فؤادي جميع المستشرقين والباحثين الذين ساعدوني في دراستي هذه وأقدّم إكرامي الخاص إلى العلاّمة لويس ماسينيون الذي شاء أن يكتب مقدمة كتابي .

فإليه وإليهم جميعاً أنا مدين بعرفان الجميل .

باسيل نيكيتين

ملاحظة : إني أقدّر فضل أعضاء اللجنة الفرنسية للأبحاث العلمية « C.N.R.S. » الذين ساعدوني في الحصول على منحةٍ مالية كي أقوم بطبع هذا الكتاب ونشره .

المؤلف

الفصل الاول

أصل الأكراد ومميزاتهم اللغوية والانسانية

*

نسبية المقاييس

إن البحث عن أصول شعبٍ ما يطرح مشكلة دقيقة جداً ، خصوصاً في مثل حالة الأكراد ، ذلك أن الشواهد التاريخية يعوزها التماسك ، ويتعذر في بعض الحالات التثبت منها . فلكي نصوّر هوية شعبٍ ما ، نلجأ في الغالب إلى مقاييس معينة مثل التسمية والعرق واللغة ، دون أن نقتنع بالقيمة المطلقة لهذه المقاييس . وفي الواقع إن التسمية وحدها لا تسمح بأي استنتاج مُرضٍ فيما يتعلق بالشعب الذي يتسمّى بهذا الاسم أو ذاك . فبالنسبة للشعب الفرنسي ، مثلاً ، إذا ما اعتمدنا فقط على تسميته دون أن نتأكد من سوابقه التاريخية ، أمكننا الافتراض بأن هذا الشعب يعود إلى أصلٍ جرماني . كذلك

بالنسبة للروس، فتسمية الشعب الروسي المشتقة من السكندينافية ، قد تضللنا . إذا لم نكن نعلم أنها ـ أي التسمية ـ تشير إلى طبقة مسيطرة من زعماء « الفريـغ » اتخذ الشعب السلافي تسميته منهم . والشعب البلغاري اليوم لا صلة تجمعه بأجداده الطورانيين الذين كانوا يعيشون حياتهم البدائية على ضفاف الفولغا . ومثل ذلك أيضاً الشعب الروماني الذي اتخذ تسميته من بعض الفرق الرومانية التي كانت في بلاده ، والتي لم تكن تتألف من لاتينيين فقط . وعلى ذلك قس جميـع الشعوب . وما يصح بشأن التسمية يصح أيضاً بشأن الجنس واللغة ، إذ يستحيل علينا أن نحدد بدقة عناصرهما الصافية ، والقمينة بأن تصبح عوامل مقارنة بين شعوب وُجدت في مطلع التاريـخ . وعدا ذلك فإن مهمة عالم اللغة تبدو أكثر سهولة ، إذ غالباً ما يتمكن من إرجاع الكلمة إلى أصلها الأوّلي ، بالإشارة إليه . وبالمقابل ، فإن عالم « الانتروبولوجيا » لا يستطيـع أن يستخلص النموذج الابتدائي لإنسانٍ تحدّرت منه ذرّية ، بالإضافة إلى أن عالم الآثار لم يكن حتى الآن ليقدم للأنتروبولوجيا كل المساعدة المنتظرة (١)

ويقدم لنا فن النحت بصورة خاصة نماذج عن الإنسان الأولي ،

(١) اني لأشعر بالحنق الشديد كلما فكرت بعلماء الآثار الذين استخرجوا من تربة آسيا الشرقية كل هذه الآثار العمرانية الرائعة ، غير أنهم لم يأبهوا إطلاقاً للبقايا الانسانية التي كانوا يعثرون عليها ! إنها بربرية علمية اقترفها رجال يدعون انهم « رجال علم » (عن كتاب الاجناس لمؤلفه ا. بيتار ، صفحة ٣٨٨) .

غير أن علم مقاييس الجماجم لا يتفق مع هذه النماذج . والخلاصة أن جميع هذه المقاييس نسبية ، ففي بعض الحالات يصعب تتبّع التطوّر الدقيق لشعبٍ ما في دقائق حياته وتصرفاته الأولية كما ترويها المذكرات ، بقدر ما يصعب علينا ، من خلال ملامح رجلٍ ناضج ، أن نتبين معالم وجه طفولته . من المؤكد أننا قد نجدُ بعض التشابه ، ولكن يجب ألا يفوتنا أن رائدنا في هذه الحالة هو قناعتنا المسبقة بأننا تجاه شخص واحد . غير أن الحلقات التي تربط بين شعبٍ كما نعرفه الآن ، وبين ما ندّعي له من صورة ابتدائية ، غالباً ما تكون غير كافية لأن توحي بالشبه .

من هم الكردوخيون

لقد نقل لنا التاريخ عدة أسماء تُشبه في لفظها اسم الشعب الكردي ، فاستند إليها الباحثون في بناء الفرضيات أو في نقضها .

حدّثنا المؤرخ الاغريقي كزينوفون عام ٤٠٠ ق . م . عن الكردوخيين وهم شعبٌ عاش في منطقة الكردستان . وكان الاعتقاد السائد أنهم أجدادٌ للأكراد . فهم جبليون فرسان مثلهم ، يقطنون نفس البلاد ولهم اسم شبيه بإسمهم . ولكن أبحاث بعض المستشرقين أمثال نولدكي في كتابه عن الأكراد ، وهارتمان وويسباخ أثبتت أن لفظة كردي ليست لغوياً من صيغة لفظة كَرْدو التي تعني : « قوياً كالبطل » . ويرى هؤلاء

العلماء أن الأكراد ينحدرون من السرتيين الذين ذكرهم سترابون وغيره من المؤرخين وقد كانوا يسكنون بلاد ميديا الصغرى وبلاد برسيس . ثم إن العلاّمة ليهمان بوت وهو من أشهر الباحثين المختصين بالموضوع ، أثبت في كتابه عن أصل الجيورجيين أن الكَردوخيين هم أجداد الجيورجيين ـ الكرتفاليين « سكان جبال القوقاز اليوم » وأنهم كانوا يقطنون المنطقة التي يلتقي بها الفرع الشرقي من دجلة وهو بوهتان سو بالفرع الغربي . فالشعب الكردي إذاً لا يمت بصلة لشعب الكَرْدُوخ . وقد برهن العالمان نولدكي وهارتمان أن الأكراد أتوا من بلاد فارس واستوطنوا نفس المنطقة .

ولقد سبقَ العالم الروسي مار العلاّمة ليهمان فبيّن أن الكردوخيين هم أجداد الجيورجيين ، غير أنه لم يستبعد أن يكون لهم صلة قوية تربطهم في الأصل بالأكراد وبالكَرْت . وبالواقع فإن بعض الكلمات الكردية تُشبه بعض الكلمات الكَرتية . فكلمة « أُم » مثلاً هي في اللغة الكردية دِيدَا أو دِيَا ، وفي اللغة الكرتية أيضاً ديدا أو دِيَا .

وسواء أصحّ التقارب لغوياً بين الكردوخيين والأكراد أم لم يصح ، فمن الثابت أن لفظة كَرْدْ موجودة في كثير من الأسماء المحلية . فالآراميون كانوا يدْعون هذه المنطقة « بيت كردو » . أما الأرمن فيسمونها كَردوخ . والعرب يدعونها بَكَرْدا .

وهناك فرضيات كثيرة عن أصل الأكراد تُستمد براهينها من الأسماء التاريخية في تلك المنطقة . ففضلاً عن الكردوخيين

الذين تكلم عنهم المؤرخ الاغريقي كزينوفون ، فقد سكن تلك الهضاب بين القرن التاسع والقرن السادس قبل الميلاد ـ وهي الفترة التي سبقت مجيء الأرمن ـ الخلديون الذين يُدعون أيضاً أوراتو . غير أن القليل الذي نعرفه عنهم لا يفيدنا شيئاً في إيضاح أصل الأكراد . إنما نعلم أن لغتهم لم تكن هندية ـ أوروبية بل كانت تشبه اللغات الكرّتفالية . أي أنها تختلف تماماً عن لغة الأكراد الحالية التي أثبت العلم أنها لغة إيرانية من أصل هندي أوروبي .

وكان العلماء يظنون أن الأكراد هم أنسباء الكلدان سكان بابل . وقد أثبت العلاّمة ليهمان أن الكلدان هم شعب سامي لا علاقة لهم بالخلديين . ويشير كتّاب العهد القديم إلى أن الكلدان قد سكنوا منطقة كردستان الشرقية . وذكر ذلك ماركو بولو في معرض كلامه عن الكلدان ، وقال أيضاً : إن هناك شعباً كردياً مسيحياً يسكن في جبال الموصل . وهكذا ساد الرأي في العصور الوسطى أن الأكراد ينحدرون من أصل كلداني .

وفي القرن الثامن عشر كان كبار المؤرخين وعلماء اللغة يعتقدون بصحة ذلك رغم أن المبشّرين غارزوني وسالدينه قد بيّنا العلاقة الوثيقة بين اللغة الكردية واللغة الفارسية الحديثة . ولقد أثبت العلم الحديث أن اللغة الكردية هي حتماً إيرانية الأصل . فالأبحاث التي قام بها العلماء في القرن التاسع عشر عن بلاد كردستان وعن الأكراد ولغتهم والمعلومات التاريخية

الأكيدة عن قبائل الأكراد وعن لهجاتهم ومعتقداتهم قبل صدر الإسلام ، كل ذلك أظهر أن النظريات السابقة عن أصل الأكراد كانت خاطئة . فعلماء اللغات وبالأخص بوت وروديجار قد دحضوا النظرية القائلة بأن اللغة الكردية هي كلدانية الأصل، وأثبتوا علاقتها باللغة الفارسية الحديثة وباللغة الزندية وهي أم اللغة الفارسية .

وقد برهن العالم الروسي « كونيك » استناداً إلى وثائق تاريخية أن هناك عُرى وُثقى بين الأكراد وبقية الشعوب المتمدنة التي سكنت قديماً في آسيا الوسطى . ثم إن الصلة بين اللغة الكردية واللغة الايرانية كانت حجر الزاوية في بناء نظريته القائلة بأن الأكراد هم من أصل آري كالايرانيين وغيرهم من شعوب آسيا الصغرى . ولقد شاركه في رأيه هذا رينان ودورن ولرش .

نظرية مينورسكي

عرض العلاّمة مينورسكي نظريته هذه في المؤتمر الدولي للمستشرقين الذي عُقد في بروكسيل عام ١٩٣٨ . ويرى هذا العلاّمة أن الأكراد ينحدرون من البختانيين . ولقد ذكر المؤرخ الاغريقي هيرودوت أن البختانيين كانوا يُشكلون مع الأرمن السبط الثالث عشر من أمبراطورية الفرس .

ويُثبت مينورسكي نظريته استناداً إلى لغة الأكراد وإلى طريقة حياتهم ، فيرى أن لغتهم رغم تعدد لهجاتها هي إيرانية

الأصل ، إنما تأثرت باللغة الميدية ، وهي لغة ميديا الصغرى التي تضم مقاطعتي أذربيجان وأدروباتين .

وقد درس مينورسكي تاريخ المنطقة التي تقع جنوبي بحيرة أورميا والتي كان يتنازعها الأشوريون وشعب أوراتو في القرن التاسع قبل الميلاد . فتبين له أن قبائل عدة قد سكنتها منهم الفرس والميديون . وفي الواقع فقد نزح الفرس عام ٧١٤ ق.م . نحو الجنوب ومدّ الميديون سلطانهم على المنطقة كلها إلى أن أتى المانيون المطبوعون بالطابع الايراني ثم السيتيون وهم من أصل إيراني بحت . وعند انهيار مملكة أشور وسقوط نينوى عام ٦١٢ قبل الميلاد حصل فراغٌ في المنطقة لم يملأه سوى وصول قبائل إيرانية جديدة استوطنت شرقي دجلة أي في وديان الكردستان ، واختلطت بعدئذٍ بقبائل المارْد والكرتيهوي وهي على الأرجح قبائل مانيّة . ويؤكد مينورسكي مستنداً إلى الأسماء الجغرافية أن القبائل الكردية والكرتية قد توسعت وامتدّت من بحيرة أورميا حتى بوهتان وأسست في القرن الرابع قبل الميلاد إمارة كردية هي إمارة مَهكِرت . وخلاصة رأي مينورسكي أن الأكراد هم مزيجٌ من قبائل عديدة متنقلة وليسوا من دمٍ واحد ومن أرض واحدة .

نظرية العلامة مار

يصرّ العلاّمة مار على رأيه بأن هناك قرابة بين الأكراد وشعب الكردوخ والكَرْتفل . ويُفسر كونَ اللغة الكردية

الحالية من أصل إيراني بأن الأكراد قد استعاضوا عن لغتهم الأصلية بلغة جديدة إذ أحلّوا العنصر الآري محل العنصر الجافتي ويستشهد على ذلك بخبر تقليدي يتناقله الأكراد فيقولون إنهم تركوا لغتهم القديمة واعتنقوا لغة جديدة . وقد ذكر المسعودي هذا الخبر في كلامه على الأكراد ثم نقضه قائلاً : « إن لغة الأكراد الأصلية لم تكن سوى اللغة العربية ! » وقول المسعودي هذا لا يتلاءم طبعاً مع ما افترضه العلاّمة مار .

إن مار لا ينكر أن عادات الأكراد صلبة كصخور بلادهم وأنهم يحافظون دائماً عليها . فاعتقادهم باليزيدية مثلاً هو اعتقاد قديم راسخ له جذور حتى في أرمينيا نفسها . والعادات الدينية التي حافظوا عليها تشبه تماماً الحياة الدينية في جيورجيا . ورغم ذلك فهو يُسلّم بأنهم غيّروا لغتهم وينسب هذا التغيير إلى التطورات الاجتماعية وحدها .

ويقول العلاّمة مار إن الأكراد شعبٌ أصيل سكن جبال آسيا الصغرى حيث تكوّنت لغته وتطوّرت من أصلها الجافتي القريب من اللغة الجيورجية والخلدية إلى أن أصبحت لغة هندية أوروبية قريبة من اللغات الايرانية والأرمنية ، وفيها بعض عناصر تركية . وتتفق نظرية مار مع نظرية مينورسكي في قوله إن اللغة الكردية أثناء تطورها قد تأثرت باللغة الميدية .

أمامنا إذن نظريتان عن أصل الأكراد : الأولى تقول بأن أصلهم إيراني وأنهم رحلوا في الجيل السابع قبل الميلاد من جنوب بحيرة أورميا نحو بوهتان ، بينما ترى النظرية الثانية أنهم شعبٌ

أصيل لا ينحدر من أصل إيراني إنما هم أنسباء للخلديين والجيورجيين والأرمن وقد استبدلوا لغتهم الأصلية باللغة الايرانية .

وتتفق النظريتان في بعض النقاط . فكلتاهما تُسلمان بأن لغة الأكراد قد تأثرت شمالاً باللغة الأرمنية وباللغة الماردية ،إنما طغت عليها لغة القبائل الايرانية في الجنوب فاعتنقها الأكراد نهائياً وهم يتكلمونها حتى اليوم .

ما هو راي الاكراد في اصلهم ؟

إن أهم وثيقة تاريخية تعبّر عن رأي الأكراد في هذا الموضوع هو كتاب « شرف ـ نامه » وقد كتبه باللغة الفارسية أمير شرف خان بدليسي عام ١٥٩٦ . ويروي مؤلفه أسطورة الطاغية « زهاق » ويزعم أنه كان ملكاً إيرانياً أصابه داءٌ غريب وهو أن نبت له في كل كتفٍ أفعى . ولم يستطع الأطباء شفاءه فنصح له إبليس كي يخفف من حدّة ألمه أن يستعمل مرهماً من دماغ أحد الشباب . فأمر بتضحية شابّين يومياً . ولكن الجلاّد كان حنوناً فكان يضحي شاباً ويرحم الثاني مستعيضاً عن دماغه بمخ خروف . وهرب الشباب الناجون سراً واحتموا في جبال نائية لم تدسها قدم . وهناك نموا وتكاثروا إلى أن أصبحوا شعباً هو الشعب الكردي الذي يعيش من الزراعة وتربية الماشية ويُعرف بالبسالة والشجاعة . وقد زعم بعض الكتّاب العرب القُدامي أن الأكراد هم أبناء الجنّ . أما الكتّاب الأكراد المعاصرون ومنهم محمد علي عوني والسيد حسين حسني فقد حاولوا أن يبرهنوا بأنهم من أصل هندي أوروبي

كالايرانيين أنفسهم . وبرهانهم يستند إلى كون لغتهم لغة إيرانية .

ماذا برهن علم السلالات البشرية ؟

لقد أظهر علم السلالات البشرية أن أكراد الشرق هم غير أكراد الغرب. فالكردي الشرقي يشبه تماماً الانسان الفارسي في لونه الأسمر وفي شكل جمجمته وهي من نوع brachycéphale . أما الأكراد الغربيون فهم يختلفون عنهم بلونهم الأشقر وعيونهم الزرقاء وشكل جمجمتهم وهي من نوع dolichacéphale . وقد أثبتت ذلك دراسات العالم فون لوشان الذي يعتقد أن هؤلاء ينحدرون من شعوب أوروبا الشمالية .

أما هيئة الأكراد الخارجية فقد وصفها الكاتب سوان الذي عاش زمناً طويلاً بين الأكراد قال :

إن الأكراد في الشمال طوال القامة صغار الفم بُنيتهم نحيفة ووجهم بيضوي وأنفهم طويل معقوف . يُربون شوارب طويلة ويحلقون ذقونهم بلا استثناء . يغلب فيهم اللون الأشقر والعيون الزرقاء والبشرة البيضاء .

أما في الجنوب فالأكراد هم بنوع عام أقل رشاقة ووجههم أكثر عرضاً . ولهم صفات أهالي الجبال : فجَلدهم على العمل عظيم وملامح وجوههم تنم عن الحزم والكبرياء . وبشرتهم صافية تخالها بشرة إنسان انكلو سكسوني » .

ولكن إن جاز هذا الوصف على بعض الأكراد فلا يجوز عليهم جميعاً . فأغلبهم أقرب إلى الساميين منهم إلى الانكلوسكسون . وفي الواقع لقد بينت دراسات الدكتور هامي أن الأكراد هم مزيج شديد الاختلاط يتمايز بعضهم عن بعض بين قبيلة وأخرى .

وخلاصة القول أن أصل الأكراد غامض معقّد لم يتم الاتفاق عليه بعد بين علماء التاريخ ، ولا يزال الميدان واسعاً للدراسات والأبحاث والنظريات في هذا الشأن .

الفصل الثاني

أين تقع بلاد الكردستان؟ معنى هذا الاسم ومدلوله التاريخي والجغرافي

*

كلمة كردستان في تاريخ الشرق

إن لفظة كردستان تعني بلاد الأكراد . وهي منطقة واسعة لا حدود سياسية لها ولا وحدة قومية تجمع بين سكانها . وقد أطلقها سنجار وهو آخر ملوك السلجوقيين على إحدى مقاطعات مملكته وذلك في القرن الثاني عشر بعد الميلاد . وكانت هذه المقاطعة تضم عدة ولايات يفصل بينها سلسلة جبال زغروس . ففي شرق هذه السلسلة تقع ولايات همدان ودينور وكرمنشاهان . وفي غربها تقع ولايتا شهر زور وسنجار . أما عاصمتها فكانت

قلعة" هي قلعة بَهار" الواقعة شرقي همدان . وكانت هذه المنطقة قبل القرن الثاني عشر تُدعى « جبال الجزيرة » أو « ديار بكر » . وأول مؤرخ ذكر كلمة كردستان هو القزويني في كتابه المسمّى « نزهة القلوب » سنة ٧٤٠ هجرية أي في القرن الرابع عشر للميلاد .

ويحدّ هذه المقاطعة شمالاً مقاطعة أذربيجان ، وغرباً العراق العربي ، وجنوباً مقاطعة خوزستان ، وشرقاً العراق الفارسي . وكانت مقاطعة كردستان تضم ستة عشر قضاء إدارياً .

وقد أجمع المؤرخون الشرقيون على أن القسم المدعو الكردستان الفارسي لم يكن سوى جزء من مقاطعة أطلق العرب عليها اسم « مقاطعة الجبال » أما القسم الآخر من كردستان وهو يقع اليوم ضمن حدود تركيا والعراق ، فيُعرف باسم ديار بكر . ولكن بعد غزوة المغول المعروفة لم يعد الكردستان الفارسي يتضمن سوى المناطق الجبلية .

وفقدت العاصمة « بَهار » من أهميتها بعد موت جنكيزخان فاختار خلفاؤه مقراً آخر لهم في قلعة « سلطان عباد الجمجمة » . وفي القرن الخامس عشر فقدت مقاطعة كردستان معظم أجزائها إذ استولى الفرس على ولايتي همدان ولورستان . ولم يبق من الكردستان الفارسي سوى ولاية أردلان مع عاصمتها سندوج . وفي أواخر القرن السابع عشر أطلق العثمانيون اسم « كردستان التركي » على إحدى ولاياتهم التي كانت تشمل لواء درسيم ولواء موش ولواء ديار بكر . أما الجمهورية التركية الحالية فلا تعترف

بوجود العنصر الكردي بل تطلق على الأكراد إسم « أتراك الجبال » .

الكردستان في الجغرافية الطبيعية

لقد درس العالم السوفياتي مينورسكي جغرافية آسيا الوسطى والصغرى فلفت بنظره نقطتان هامتان وهما : أولاً جبل أرارات ، ثانياً خليج الاسكندرون .

ففي جنوبي أرارات تمتد سلسلة ضخمة من الجبال تتجه جنوباً على مسافة ألفي كيلومتر ثم تتشعب وتنحرف نحو الجنوب الشرقي حتى الخليج الفارسي . وتقع جبال الأكراد بين أرارات وجبل جلاميرغ . وتحدها شمالاً قمم جبلي أرمينيا وجنوباً هضبة أذربيجان وهي أقل علواً من جبال الأكراد ، ثم هضاب بلاد فارس وهي شاهقة العلو . وهكذا ، فإن جبال الأكراد مع بحيرة أورميا تشكل شبه منخفض محصور بين قمم أكثر منه علواً . وفي الواقع فإن ارتفاع حوض بحيرة أورميا يتراوح بين ١٢٢٠ متراً و ١٤٠٠ متر .

أما خليج الاسكندرون فهو نقطة انطلاق لسلسلتين من الجبال ، سلسلة طوروس الشمالية وسلسلة طوروس الجنوبية . ولهذه الجبال أهمية كبرى لكونها خزاناً للمياه يغذي أنهار دجلة[1] والفرات والزاب وهي شرايين حيوية لهذه البقعة من العالم .

---

(١) على الضفة الشمالية من دجلة يرتفع جبل « جودي داغ » ويعتقد معظم السكان من مسلمين ومسيحيين ويزيديين أن سفينة نوح قد رست على

وتقع جبال زغروس في الجنوبي الشرقي من أرمينيا وهي تشكل الحدود الطبيعية بين إيران والعراق ولا يفصلها عن أرمينيا سوى جبال صَر كيعُرامار . ويميز الجغرافيون الايرانيون في جبال زغروس ثلاث مناطق هي :

الأولى : منطقة كردستان المكري وتبلغ أعلى قمة فيها ٣٢٠٠متر وهي تتضمن حوضي مياه :حوض بحيرة أورميا وحوض دجلة مع رافده الزاب الأصغر .

الثانية : منطقة كردستان الكرمنشاهاني وتعرف باعتدال ارتفاعها وقد كانت ممراً لجيوش داريوس ملك الفرس ثم لجيوش الاسكندر ذي القرنين . وتحتوي على بعض الوديان والسهول الخصبة وترويها مياه نهر غمزاب ونهر كراسو . وتزدهر فيها مدينة كرمنشاه وسكانها حضر على عكس سكان الجبال البدو الرعاة .

الثالثة : منطقة أردلان المعروفة بالكردستان الفارسي ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب مئتي كيلومتر تقريباً ويحدها شمالاً منطقة ساينكلا ، وغرباً منطقة السليمانية و كركوك ، وجنوباً وادي نهر الديالا ، وشرقاً غَرّو وهمدان وتشكل أردلان محافظة هامة خصبة تسقيها أنهر عدة أهمها نهر كيزلوزن . وتكثر كثافة

قمته . وقد بنوا مزاراً كبيراً يحجون اليه كل عام في شهر آب ويحتفلون معاً بعيد نوح طوال ثلاثة أيام . ومن الاساطير الطريفة التي يرويها اليزيديون والمعروف أنهم يكرمون الأفاعي أن نوح قد بنى سفينته في قرية عين سيفنا الواقعة على بعد ستين كيلومتراً من الموصل قرب مدينة بدرية ، وكان يتحمل هزء الناس وسخريتهم الى أن أتى الطوفان وبدأت المياه تتسرب الى السفينة من ثقب في أسفلها فأسرعت الافعى وسدته برأسها .

سكانها في السهول والوديان .

المنطقة التي يسكنها الاكراد حاليا

لقد تبين لنا من هذه الكلمة الجغرافية أن أول ميزة لبلاد الكردستان هو طابعها الجبلي . ففي هذا الاطار الطبيعي نشأ الشعب الكردي فبنى مساكنه في أعالي القمم وسفوح الجبال وفي أحضان الوديان . وقد بدأ نشأته على الأرجح على ضفاف أنهر بوهتان والخابور والزاب الأكبر ثم انتشر بعد ذلك في هضبة أرمينيا وفي الكردستان التركي وجبال إيران الغربية .

ويعيش الأكراد اليوم على أراض شاسعة تبدأ قرب بغداد عند ضاحية « مندلي » وتمتد شمالاً على طول الحدود العراقية والايرانية ثم على حدود إيران وتركيا حتى جبل أرارات . وهي تشمل منطقة القوقاز السوفياتية أي مقاطعتي أرمينيا وأذربيجان .

وكان عدد الأكراد كبيراً جداً في القسم التركي من أرمينيا . غير أن السلطات العسكرية التركية قد عملت على إجلائهم في عهد أتاتورك في عامي ١٩٢٦ و ١٩٢٧ . فقد نفت منهم إلى برّ الأناضول أكثر من مليون شخص من رجال ونساء وأطفال ودمّرت مدنهم وقراهم عن بكرة أبيها . ويعيش قسم كبير من الأكراد في سهل الجزيرة خصوصاً على الضفة الشرقية من الفرات . ونجد كثيراً من الأكراد مشتتين غرباً وشرقاً في فيليقيا وقرب قونيا وفي خراسان حيث جمعهم الشاه عباس الكبير ، ثم قرب قزوين وفي مقاطعة

فارس حيث نقلهم نادر شاه عام ١٧٣٦ – ١٧٤٧ ، ويقطن بعضهم في مزنديران .

ويمكن القول أن الكردي لا يحب مفارقة الجبال . وفي الواقع نرى العنصر الكردي يتقلص في السهول وعلى ضفاف البحيرات متراجعاً أمام العرب والأتراك والفرس والأرمن .

الفصل الثالث

نمط الحياة ، المشاغل ، والعادات

*

ينقسم الأكراد إلى حضر وإلى أنصاف بدو . ويتناقص بالفعل عدد البدو منهم بصورة مستمرة ، ليتحولوا شيئاً فشيئاً إلى أنصاف حضر . وهم يقطنون السهول في فصل الشتاء في بيوت من اللبن ويزرعون الأرض في الربيع . وعندما يأتي الصيف يعودون مع قطعانهم إلى المراعي العالية في الجبال ، بعد أن يتركوا بعض رجالهم في الحقول ليحرسوها . وتكون هذه المراعي أحياناً قرب المناطق التي يقضون فيها فصل الشتاء .وتتم عملية الانتقال في الأغلب على مسافات واسعة ووفق خطوط مسير مرسومة منذ أجيال كما هي الحال بالنسبة للقبائل التي تشتي على سفح جبل زغروس الغربي ما بين النهرين . وفي الشتاء تصعد الجبال حتى حدود

فارس ، بل وإلى داخل فارس ذاتها .

الهجرات الكردية الموسمية

يصف لنا الضابط ديكسون هجرة قبيلة « هريكي » التي تشتي في شمال منطقة ما بين النهرين فيقول : « إنهم يجتازون نهر الزاب الأكبر قرب زيبار ، حيث يبنون كل عام جسراً للانتقال فوقه ، وهذا ما يستغرق منهم بعض الوقت ويضطرهم لأن يكونوا على علاقات طيبة مع أكراد المنطقة ، من أتباع الشيخ برزان ، وإلا فإن هؤلاء يمنعونهم من اجتياز النهر . ثم يسلكون الطريق العليا فوق « تنجي بيلندا » وينحرفون نحو الشرق متّبعين مسالك وادي شمدينان سو — رافد الزاب الأكبر — في قافلة طويلة من الرجال والبغال المحملة والخيل والمواشي . وتصحبهم قطعان من الغنم ترعى على مسافات قريبة منهم عند المنحدرات ، فيما يتولى حراستها رعيان مسلحون ومتمركزون في القمم . وعندما تصل القافلة إلى محاذاة نهر أورامارسو ، تنقسم إلى شطرين ، أحدهما يصعد في وادي « سات » والثاني يتوغل في وديان هريكي وبيتكار ، في مسير بطيء متعرج يتم على مراحل عدّة حتى يصل إلى أعالي السفوح في شمال « سات داغ » . وينطلق أفراد هذه القوافل في سفرهم أحراراً لا تقيدهم أنظمة كأنهم قبضات نمل رُشقت هنا وهناك ، فتشاهد هنا عائلتين أو ثلاثاً تنفصل عن المجموع فتصطحب كل ما لديها من أمتعة وخيَم وبُسط وسِلال وأكياس قمح وملابس ... وهناك ترى نعجة مريضة تُرفع على ظهر إحدى الدواب . والنساء في ثيابهن

المهلهلة يجرون أقدامهن بتعب ظاهر ، وكل واحدة منهن تحمل على ظهرها جراباً يحتوي على مجموعة حاجات غريبة من أسرة الأطفال ، والأواني المنزلية ، وأوعية الحليب وعدّة الشاي ، وفوق كل ذلك الطفل الرضيع الذي لا بد منه ليكتمل المتاع ! وبين هذا وذاك تقع العين أحياناً على صندوق كبير فاقع الألوان : إنه ملك الآغا ، أحد رؤساء القبيلة ، ويحتوي على أجمل ملابسه . وغالبية أفراد القبيلة يعضون على أقدامهم ، ذلك لأن جميع الدواب والحيوانات من ذوات القرون تكون محملة بما فيه الكفاية .

« أما الرجال فكلهم مدججون بالسلاح من الرأس إلى أخمص القدم ، وهم يقومون على حراسة القافلة . وبعض هؤلاء الرجال يرافق الصبيان الذين يرعون المواشي في أعالي الجبال . ويسود الفترة التي يمر فيها هؤلاء البدو جو من القلق الشديد يستبدّ بالجميع ، فيلزم الفلاحون منازلهم بعد أن يُحكموا إغلاق أبوابها ، وينصرف رجال مسلحون إلى التمركز في نقاط ستراتيجية عالية تحيط بالمنازل لحمايتها . وبين آنٍ وآخر تدوي طلقات الرصاص هنا وهناك . وقد صادفنا قطيع غنم في بقعة جبلية ساحرة ، فطلبت إلى الراعي أن يتمهل لحظة لألتقط صورة لهذا المشهد الرائع ، فإذا به كالأرنب البرّي يتدحرج عن الهضبة وهو يرسل صيحات الاستغاثة ، ويحرك بندقيته ... وما أن أصبح في الوادي على بعد ٤٠٠ متر عنّا حتى سدّد بندقيته صوبنا . وتبدو قطعان الغنم في هذه الرحلات منهكة القوى ، وكثير من الدواب يتساقط على الطريق فتحطّ عليها عصائب من النسور والبواشق ، ولا يخفف البدو عن دوابهم حمولتها

أثناء الليل ، بل يضربون خيمهم إلى جانبها وهي محملة .

« ولننتقل الآن إلى منطقة ما بين النهرين حيث يقطن الأكراد الترانسقوقازيون ، وهذه صورة عن حياة هذه القبائل كتبها أحد أبنائها أرب شامو في كتابه « الراعي الكردي [1] »

« ما أن يذوب الثلج وينتشر الخضار وتزهر الأشجار ، حتى يدب النشاط في القرية الكردية .

« ومنذ الصباح الباكر تبدأ الحركة في كل مكان : فالأكراد يستعدون لأن ينتقلوا بقطعانهم إلى منطقة تسمى « دولغا » حيث تضع المواشي الصغيرة حملانها .

ويبذل الأكراد كثيراً من العناية بالحملان في مناطق « الدولغا » ، فيقدمون لها أكثر ما يستطيعون من غذاء لتنمو بأسرع ما يمكن ، وتقوى أجسامها على تحمل الهجرة المنهكة إلى أعالي الجبال عندما يشتد الحر .

« وفي مراعي الصيف يؤلف الأكراد جماعات من نوع فريد تدعى « أوبا » من أربعين أو ثمان وأربعين سيداً ، لكي يقوموا على رعاية مواشيهم بصورة مشتركة ، ويرئس كل جماعة « أوباباشي » يكون أغنى الأعضاء وأوسعهم نفوذاً ، ويتسلم زمام الأمور ، فيوزع الرسوم ، ويعين الأماكن الصالحة لرعي المواشي ، كما يحدد الفترة الملائمة للانتقال بالمواشي من مرحلة إلى أخرى ، وينتخب

---

١ — كتب هذا المؤلف في الكردية الترانسقوقازية أول الأمر ، ثم نقل الى اللغة الروسية ، وقام أحدهم بنقله الى الفرنسية وأعيدت ترجمته عن الفرنسية الى الكردية وطبع في بيروت .

هذا الرئيس انتخاباً ، والجميع يدينون له بالطاعة .

« ويكون الأوباباشي في أغلب الأحيان زعيم قبيلة ، ويفرض على الرعيان ، عدا عن مهامهم المباشرة ، أن يعتنوا بمواشي الأوباباشي بدون أي تعويض . وتتلخص مهمة الراعي بأنه يتنقل بالمواشي في المراعي ، وعند المساء يعيدها إلى الزريبة ، ويعدها ويقدم عنها تقريراً للسيد ، وفي الصباح ينظف زريبة الغنم « اغيل » وينقل الزبالة والأوساخ إلى مكان بعيد عن المخيم » .

طقوس حياة الرعيان

« تنص التقاليد المحلية أن يقوم كل كردي قادر في موسم الحملان على ذبح خروف وتنظيم وليمة غالباً ما تكون في الهواء الطلق ويدعو إليها جيرانه ورعيانه ، يتوفر المضيف وزوجته على خدمة ضيوفهم وحثهم على الطعام . وبعد انتهاء الوليمة ، ينطلق الشباب في الرقص والأغاني الشعبية ،وفي نهاية الاحتفال يشكر المدعوون المضيف على حفاوته ، ويتمنون للمضيفة أن تعد في الصيف كثيراً من الزبدة والجبن ، ويسألون الله أن يبعد الأمراض عن المواشي ، ويخصب المراعي .

ويدعى هذا الاحتفال في اللغة الكردية « ساربيز » أي بداية نمو المواشي . وقد دهشت كل الدهشة عندما حضرت هذا الاحتفال لأول مرة ، ولكن الأب والأم كانا يبتسمان ويقولان إن « ساربيز » ليس عيداً كبيراً ، فعما قريب يأتي « بارودان »أفضل أيام السنة.

« وتنمو الخرفان وتقوى ، ويزداد ذوبان الثلج في الجبال ، فيعلن الأوباباشي أن « بارودان » هو أفضل أيام السنة . إنه يوم الرحيل من « الدولغا » إلى المراعي الجبلية . ويبدأ الاستعداد قبل اسبوع لاستقبال هذا اليوم . ومنذ الصباح الباكر يرتدي الجميع أفضل الملابس ، وتزين الفتيات رؤوسهن بالزهور البرّية النضرة ، ويعلقن في أنوفهن الخزائم والصفائح الذهبية المستديرة ، ويكون الأكراد الأغنياء قد ثقبوا أنوف بناتهن منذ الطفولة لهذا الغرض . كذلك تُحلّى النعاج والخرفان والماعز بخصل الصوف المذهبة ، وتُعلق في رقاب أفضل الكباش الجلاجل النحاسية .

« وفي هذه الأثناء تكون الشمس قد أخذت ترتفع في الأفق، وتوشك الاستعدادات على الانتهاء .

« وتدق الساعة الحاسمة . كل شيء قد أعدّ وأصبح جاهزاً ، عند ذلك يعطي الأوباباشي إشارة البدء بالرحيل . ويتقدم موكب « البارودان » الراعي الرئيسي بأجمل ثيابه ، وفي يده مزماره . إنه يقوم بدور القائد ، فيلقي بتعليماته إلى الفتيان في طريقة معاملة الحملان ، والنعاج التي ترفض إرضاع صغارها . ويأتي خلف الراعي الرئيسي أجملُ كبش ، وقد علّق في رقبته جرس يرسل رنّات عالية .

« وقبل الإنطلاق مباشرة يخاطب كل سيد راعي قطيعه بقوله: « إني إذ أأتمنك على قطيعي ،أطلب إليك أن تؤدي واجبك بأمانة» .

« ثم يبدأ الراعي الرئيسي بالعزف على مزماره فيتحرك الموكب .وإني لا أزال أرى في ذهني صورة القطيع يلحق بالراعي

في نظام تام ، بينا أحاط به مساعدو الراعي يصفرون ويلوّحون بالقضبان ليمنعوا أي خلل في القطيع ،حيث لكل خروف ونعجة مكان خاص ،ولا أزال أشاهد الأطفال والشبان يتراكضون بثيابهم الزاهية ويغنون أغانيهم الشعبية ، فتتجاوب هذه الأصوات مع ثغاء الحملان والنعاج وحدو الرعيان ، في جوقة تتماوج أصداؤها في الوادي العميق والجبال المكللة بالثلوج .

« ولا يتشكل هذا الموكب سوى مرتين كل سنة : في الربيع عندما تنقل القطعان إلى مراعي الصيف ، وفي أواخر الخريف إذ تؤوب القطعان . وإذا عرفنا أن ثروة الأكراد تعتمد على هذه القطعان ندرك أهمية هذين الموكبين الفصليين » .

اهمية تربية المواشي

توفّر قطعان المواشي للأكراد كل ما يحتاجون إليه من أسباب المعيشة . أما الحيوانات الأهلية الشائعة الاستعمال فهي : الجمال والأبقار والحمير والماعز ، والغنم ذو الألية والكلاب . ولكن الأكراد قليلاً ما يربّون الجمال والأبقار ، أما الخيل فيستعملونها للركوب وفي بعض الأحيان يستعملون حليبها كمشروب غذائي، ولكن أقل مما هو مستعمل لدى بدو التركستان ، ويشبه الحصان الكردي الحصان العربي ، إلا أنه أصغر وأشد قوة ، ويعتبر جميع الأكراد من أمهر فرسان العالم . ولا يقتني الأكراد إلا القليل من الحمير ، بينما يكثر وجود الغنم لديهم .وغنم الأكراد كبير الجسم، له ذنب مزدوج من الشحم « ألية » .ويعيش هذا الصنف في المناطق

الحارة والباردة معاً ، حيث تمر ثمانية أشهر من الصقيع والثلج ، وأربعة أشهر من الحرّ الشديد . وصوف هذا الصنف أنعم من صوف الأغنام في سوريا والعراق . أما باتجاه الشرق في منطقة أرمينيا القديمة فنجد غنماً أبيض صوفه طويل يسمى « أدميس » . وقد أخذ الغنم القاتم اللون يزداد أكثر فأكثر ، وهو أنواع عدة أشهرها « كيزيل كرمان » أي الكرمان الأحمر ، و« توج »هويك ، مور » وكلها سوداء اللون ، بالاضافة إلى نوع « كركس » وهو خليط من الأحمر والأبيض .

وتستخدم نساء الأكراد صوف الغنم وشعر الماعز في حياكة الأنسجة الغليظة [1] أو في صنع أنسجة الثياب . ويشكل الحليب ، في مختلف مستخرجاته وصنعه ، الغذاء الرئيسي عند الأكراد . وخلافاً لما قد يتصوّر البعض ، فإن اللحم نادر الوجود في مآكلهم ، فالغنمة لا تذبح إلا في حالات اضطرارية ، أما الخروف فيُقايض مقابل الحبوب ،ومن هذا يتضح أن أكل اللحم مقتصر على المناسبات الخارقة .

فحياة الأكراد منظمة وموقتة بالنسبة لاحتياجات قطعان مواشيهم . وذوبان الثلوج وظهور نباتات الربيع على هضاب أرمينيا يبشران باقتراب الموعد الذي يتحرر فيه الرجال وتنطلق فيه

---

(١) للأكراد طريقة فريدة في صنع الانسجة الغليظة التي تستعمل كبسط أو خيم أو معاطف شتاء وهي أن تلف نفايات الصوف حول قضيب بطول متر ونصف المتر ، ويربط بطرفي القضيب حبلان طويلان يعلقان في سرج حصان يطلق في البراري عدة أيام وهو يركض ويجر خلفه هذه الحزمة .

الحيوانات من عقال الشتاء . أما إذا تأخر الربيع عن موعده فخطر الجوع يتهدد المواشي إذ ينتهي علفها . ولا يدوم فصل الربيع أكثر من ستة أسابيع تقريباً ، تكون فيها الأراضي رطبة مبللة ، والليالي باردة ، ولكن سرعان ما تسطع أشعة الشمس وتجفف التربة وتيبس الأعشاب ، فيرحل الأكراد في طلب الكلأ ، ويتسلقون الجبال أكثر فأكثر حيث يتأخر ذوبان الثلج الذي يخلّف أثره مرعى خصباً ، لا يلبث أن يجف خلال اسبوع فيتركونه ويصعدون إلى أعلى . وفي الخريف ، في أواسط شهر تشرين الأول ، تبدأ رحلة معاكسة ، إذ يتساقط الثلج في الجبال ويهطل المطر في الوديان فيضطرهم ذلك لأن يهبطوا تدريجياً مبتعدين عن الثلج . وينتهي بهم الأمر لأن يعودوا إلى مواطنهم الأصلية حيث يكون الكلأ قد عاد ينمو .

ويحتفل الأكراد بهذه الرحلة الخريفية كحدث سعيد ، إذ تعود القطعان سليمة معافاة ، والرعيان يتشوقون لقبض أجورهم ، والأسياد فرحون بأرباحهم . والنساء يتحدثن في طريق العودة عن مقادير الزبدة والجبن التي أعددنها خلال الصيف . أما الرجال فتشغلهم قضية بيع منتجاتهم من الجبن والزبدة والصوف ، ليشتروا بأثمانها القمح والشعير ، ذلك أنّ الأكراد البدو لا يمارسون الفلاحة والزراعة . وتتباهى النسوة – خصوصاً نساء الأغنياء – فيما بينهن ، بالحاجات التي اشترينها من الباعة المتجولين وهي من المحارم والخيوط والابر والأزرار والزّين . ويتهامس الشبان والشابات بالأسرار : فلان اختار فلانة خطيبة له ! هذه الفتاة رضيت بذلك الشاب خطيباً

لها ! هل حدّد فلان موعد الزواج ؟ ويتسامر العشاق بأحاديث الأويقات الجميلة التي قضوها في الصيف ، ويتذكرون الأماكن التي كانوا يرتادونها ويختلون فيها ، والينابيع الصافية التي استقوا منها المياه العذبة ، والليالي المقمرة يتناجون فيها بين الزهور الجبلية ! إنها أويقات جميلة ، وأجمل ما فيها ، تلك الفترات التي كان يفلت فيها العشاق من رقابة الأهل فيلعبون ويضحكون ، يرقصون ويغنّون ، ثم تحين اللّحظة الحاسمة فيتبادل كل زوج من العشاق القسَم باسم الله « كويده » أن يبقى الواحد أميناً على عهده للآخر .

ويحلّ أخيراً عيد « بيران بيردان » أي عيد ترك الخراف . وهو اليوم الذي يفرح به الرعيان ومساعدوهم ، إذ تنتهي مهمتهم ويتقاضون أجورهم . وفي هذا اليوم تفصل النعاج في حظائر خاصة ، وتطلق بينها الكباش لتُخصبها . ويأخذ الأكراد حينذاك في إطلاق الرصاص كأنهم يحتفلون بزفاف نعاجهم ، وتُقدّم في هذا العيد ألذ المآكل والحلوى مثل النوغا « مرتوغا » واللحم المشوي المجفف على النار « قاورما » .

وترفع الفتيات عن قبعاتهن المحارم الحريرية ويربطنها حول أعناق الخراف المحبّبة إليهن ، فيتقدم الشبان ويأخذونها تعبيراً عن محبتهم ورغبتهم في الزواج ، فيما يراقب الأهل الفتى الذي التقط محرمة ابنتهم ، وهم يعرفون أن الاتفاق كان قد تمّ في الصيف . فإذا لم يمانع هؤلاء الأهل تُعقد الخطوبة بين الشاب والشابة ، وبعد وقت قصير يحتفل بالزواج .

الزراعة والقطاف والصيد

عرّفنا القارىء حتى الآن على نمط الحياة التي يعيشها الأكراد الذين يعتمدون لتحصيل معيشتهم على تربية المواشي في الدرجة الأولى . ولكن هناك في بعض الحالات أكراد يلجأون إلى زراعة بعض حقول الشعير في منحدرات أرمينيا ، غير أن الغلّة التي يحصلون عليها ضئيلة جدّاً ، ويُستخدم الشعير في صنع الخبز كما أنه علف للخيل . والزراعة أكثر تطوراً على منحدرات جبال طوروس نحو سهل ما بين النهرين ، ومع ذلك فليس صحيحاً أن ننظر إلى الأكراد كرعاة وأنصاف بدو فقط . فهناك أكثر من منطقة مثل كردستان الفارسية ، يعيش فيها الأكراد حياة حضرية ويجيدون الفلاحة والزراعة . بل إننا نصادف حتى أقصى زوايا كردستان الوسطى « هركي ـ أورامار » زراعة متطورة ، بوسائل ريّ متقنة . ويقول لرش :

« إن الأكراد شأنهم شأن قدماء الكلدانيين [1] على مهارة فائقة . فهم لا يتقاعسون عن العمل في إقامة المجاري المائية لري أراضيهم . غير أن شأنهم هو أيضاً شأن جميع سكان الجبال ، لا يعيرون الزراعة إلا اهتماماً ثانوياً ، وهم يزرعون الذرة والقمح والشعير والأرز ،

(١) يعثر الباحث أحياناً على آثار فنية قديمة في كردستان . فعلى الضفة اليمنى لنهر « بيلاتسو » يوجد حاجز عمودي كثير الارتفاع . وعلى مسافة ٥٠ متراً تقريباً تقوم خرائب جسر مائي قديم لا تزال تظهر منه أربع أو خمس قناطر . غير أن فقدان أية كتابة على هذه الآثار يجعل من المستحيل التعرف الى ملامح هذه البلاد « بندر » .

بمقدار ما هم بحاجة إليها في معيشتهم فقط ، ذلك أن ثروتهم الحقيقية تقوم على تربية قطعان المواشي .

ويجمع المؤرخون على أن العقبة الرئيسية في وجه نمو الزراعة لدى الأكراد هي في نظام الضرائب الذي من شأنه أن يثبط كل عزيمة . وبالمقابل ، فإن الأمراض والكوارث التي تصيب القطعان أحياناً تحمل الأكراد مرغمين على تعاطي الزراعة . ولا بد لنا في الحديث عن اقتصاديات الأكراد من أن نذكر القدر الذي يُسهم فيه الصيد والتقاط بعض منتجات الأرض . ففي أرمينيا حيث تندر الغابات [1] ، يشكل جمع الوقود اهتماماً جدّياً ، فينصرف الأكراد إلى اقتلاع بعض النباتات « الاستراغال » ويحمّلونها على ظهور الحمير ليبيعوها في أسواق المدينة ، وأحياناً يصنعون منها الفحم . غير أن مواد التدفئة الرئيسية تُصنع من روث البقر الذي يُمزج بالتبن أو بالأوراق اليابسة . وتوفر أشجار السنديان الضخمة في جبال طوروس الجنوبية [2] ، العنصر الذي يُستعمل في الصباغة .

أما الصيد فلا يشكل مورداً هاماً للأكراد ، خصوصاً في أرمينيا حيث يندر وجود الصيد . فما هناك إلا بعض الغزلان والخنازير البرية ، والثعالب والذئاب . والأكراد يستعملون

---

(١) أما الجزء الغربي من الكردستان الايرانية فتغطيه الغابات ، الامر الذي يجعل الاكراد هناك يصنعون جميع أدواتهم المنزلية ، حتى القدور ، من الخشب .

(٢) في الكردستان الفارسي أربعة عشر نوعاً من السنديان أهمها : البلوط ، الخرنوب ، القلقاف .

أسلحتهم النارية لحماية قطعانهم ضد هذه الحيوانات المفترسة ، الأمر الذى جعل وجود هذه الحيوانات يتناقص ويضمحل .

الصناعات اليدوية والتجارة

في دراسة الصناعات اليدوية عند الأكراد ، لا بد من الاشارة إلى ما تقوم به النساء من أنسجة يدوية ، يظهرن فيها كثيراً من التذوّق والتأنق خصوصاً في صناعة الملابس وتزيين الخيم . وفي هذا المجال أيضاً تبرز متطلبات الادارات في الضرائب عائقاً كبيراً في سبيل نموّ هذه الصناعات ، فحيث ترتفع الضرائب نجد الأكراد يقعون في فقر مدقع ، ويحدّون كثيراً من اندفاعهم في أشغال الأنسجة الفنّية التي يوحي بها إحساس فني بدائي ، ولكنه فطري لا تعوزه النضارة والبراعة في تنسيق الألوان . ويشتهر الأكراد في منطقة « سناه » في إيران بصناعة سجادات الصلاة ، بالإضافة إلى صناعة مقابض الخناجر من العظم ، والنقوش ، وعقد الأحزمة . ويجب ألا يفوتنا بأن الكردستان ليست بلاد البدو والفلاحين فحسب ، بل هناك مدن وقرى كبيرة عدّة ، نمت فيها بعض الصناعات اليدوية الفنية التي أضحت من تقاليدها العريقة . ويكفي أن نذكر على سبيل المثال : بتليس ، وأربيل ، وسناه وسودج بولاج . إنها مدن كردية صرفة ، تطورت فيها الصناعات اليدوية بجميع أشكالها : صناعة الجلود والمعادن والأخشاب . ويقدّم « سركيسيان » في مقاله عن عبد الخان ، سيد بتليس الكردي في الجيل الثامن ، تفاصيل مثيرة عن القطع الفنّية والأسلحة ، والحلى

والمخطوطات التي كان يمتلكها هذا السيد . وهذا ما يحملنا على التأكد من أنه كان بين الأكراد من يهوى جمع التحف الثمينة ، ويشجّع الصناعات اليدوية . ويوجد في « سناه » بشكل خاص صنّاع ماهرون للعلب وطاولات الشطرنج ، والأواني الفخارية . كما يوجد في « فان » صياغ بارعون .

وإذا ما اعتبرنا الكردي في الحدود التي ذكرنا ، صانعاً يدوياً ، فإنه لا يمكننا إطلاقاً أن نعتبره تاجراً ممتهناً على الرغم من أنه مضطر لأن يجلب من الخارج الحاجات التي لا يؤمنها له اقتصاده الطبيعي . ومن هذه الحاجات في الدرجة الأولى الأسلحة التي يشتريها من الأرمن ومن الإيرانيين ، وهي ضرورية لتأمين حياته المعرّضة دائماً للخطر ، حتى أنه مستعد لكل تضحية في سبيل الحصول عليها ، ثم حاجات الزينة الفخمة إذ أن الكردي يحب الثياب الجميلة ، ويرتديها بأناقة عريقة في طباعه . ولذلك نلحظ في الأغاني الكردية الشعبية وصفاً مسهباً للأسلحة والألبسة والخيل . والكردي نادراً ما يستعمل النقود في تجارته ، إنما هو يفضل عمليات التبادل . أما القطع النقدية فتستخدمها النساء في تزيين ثيابهن ورؤوسهن ، ويحصل الكردي على الجبن والزبدة والصوف والمواشي والخشب والسجاد والجلود ، بواسطة المقايضة ، وليس الكردي في هذه المقايضة هو الرابح .

وإذا كانت أوجه الحياة الاقتصادية الحديثة مهملة من قبل أكثر الباحثين ، إلا أن باستطاعتنا تبيّن معالمها لأنها لم تتطور إلا في حدود ضيقة . لقد عرفت بلاد الكردستان نوعاً من النظام الرأسمالي ، لأنها كانت مركزاً هاماً في تموين بغداد والقسطنطينية

وسوريا بالمواشي ، كما كانت تصدر الصوف والعسل والأصماغ المطبية ، وبعض مواد الصباغة . وبالمقابل كانت الكردستان تستورد الأسلحة والأنسجة القطنية والحرير والسكر وبعض الاصناف الاستهلاكية الاخرى . ومن الممكن التقدير بأن صادرات الكردستان كانت أكثر من وارداتها ، مما جعل مقادير من الأموال تتجمع لدى الأكراد الحضر .

وكانت القسطنطينية وحدها تستورد من الكردستان ما لا يقل عن مليون ونصف مليون رأس غنم وبقر ، ولا ريب أن القطعان التي كانت تصدّر أكثر عدداً من هذا الرقم بكثير . ولكن وعورة الطرق وطولها كان يتسبب في فناء قسم كبير منها . وكانت الكردستان تصدر أيضاً بما يزيد عن ٣٥٠٠٠ ليرة استرلينية من العفص ، وكميات كبرى من الصوف ، وبالأخص صوف ماعز « الأنغورا » الذي يُستخدم في صناعة المعاطف والشالات . ويقدر أن الكردستان التركية كانت تصدر سنوياً في أواسط الجيل التاسع عشر بضائع بقيمة ٧٠٠،٠٠٠ جنيه استرليني . وكان أهالي الكردستان يبيعون منتجاتهم في أسواقهم المحلية فهم يخشون رجال الجمارك ، فيأتي التجار الأرمن واليهود والأتراك يحملون البضائع المختلفة ويقايضونها بمنتجات الكردستان . وكان أهالي الكردستان يستغلون الحديد والرصاص في خفية عن أعين الحكومة التركية ، فيصنعون من هذه المعادن بعض أدواتهم ويبيعون الباقي .

من مجموع هذه المعلومات عن الحياة الاقتصادية في كردستان يصل « فيلتشفسكي » إلى الاستنتاج بأن التجارة في الجيل التاسع

عشر كانت على قدر كاف من التنشيط في كردستان ، خصوصاً في مجال التجارة المحلية ، قبل امتداد النفوذ الاستعماري . أما فيما يتعلق بكردستان التركية في الوقت الحاضر ، فإن النشاط الاقتصادي قد أفاد كثيراً بظل النظام الجمهوري الذي أنشاه كمال أتاتورك ، فسكة الحديد أضحت تصل إلى ديار بكر وإلى أرضروم، ومن المنتظر أن تمتد حتى حدود إيران وإلى شمال العراق . ومن المؤكد أن أثر سكة الحديد سيكون كبيراً في تلك المناطق ، إذ يسهل التنقل والتبادل . ومن الثروات الأرضية التي بُدىء باستغلالها في تلك المنطقة ، النحاس في « ارغاني » في منطقة « ديار بكر » . وهناك مناجم هامة للحديد والفحم والنفط . ويبدو أن الحكومة التركية ترعى أصحاب المواشي الأكراد ، فتوفر لهم الخدمات البيطرية ، وتساعدهم على تحسين أنواع الصوف . والواقع أن كل التجديدات التي يمكن أن تفيد الأكراد إنما تقع مسؤولية تنفيذها على عاتق السياسة العامة التي تُتبّع حيالهم . إن نظرة شاملة إلى الخارطة الاقتصادية لتلك المنطقة تبين لنا أن الثروات الطبيعية التي لا يمكن نكران وجودها في الكردستان لا تكفي وحدها لازدهار البلاد ، بل إنها بحاجة إلى جو عام من الأساليب الحديثة .

ويؤكد « بادجر » في كتابه « النسطوريون » أنه لو وُجد أكراد تركيا تحت إدارة عادلة لكانوا أصبحوا رعايا مخلصين نافعين. فالأكراد الذين يمارسون الزراعة كانوا يشكون كثيراً من حكم الشاه . ومن المؤكد أن « بادجر » يتحدث عن الأكراد عام

١٨٤٠ ، غير أن الأكراد حتى اليوم لا يزالون ينظرون بحذر شديد إلى السلطات الحاكمة . ولم تقدم هذه السلطات على أية خطوة لتبديد مخاوفهم .

منهاج الاصلاح الاقتصادي

ويصح القول ذاته بالنسبة لأكراد إيران ،فعلى الرغم من أن حكم رضا شاه بهلوي ، قد أدخل كثيراً من التطورات العميقة ، فقوّى السلطة المركزية ،وأدخل التنظيمات الحديثة ، ونشّط عمل المصارف الزراعية ، ومد السكك الحديدية ، ووسّع الطرقات البرية ، على الرغم من كل ذلك فإن هذا العمل الجذري الذي يحتاج لنفس مديد ، لم يستطع إخراج منطقة كردستان الإيرانية من عزلتها .

ونحن نذكر هنا منهاج الإصلاح الاقتصادي الذي تحتاجه كردستان الإيرانية كما وضعه المؤلف الايراني « شميم الحمداني » ، وهو :

أولاً — يجب أن تنقل القبائل الكردية البدوية من الحدود إلى السهل وأن توجه نحو الزراعة ، فيوضع على رأس كل قبيلة مندوب عن وزارة الزراعة ليسهر على إسكان أفرادها ورعاية أشغالهم .

ثانياً — يجب أن يزاد عدد المدرسين بحيث يصبح كافياً في كل قبيلة لتدريس أبنائها من الذكور والأناث ، على أن تشاد المدارس وتدرس المواد باللغة الايرانية ، ويراعى ألا تكون المناهج مثقلة ، وأن يُدرس تاريخ إيران باختصار .

ثالثاً – أن تُفتح مدارس مهنية في « كرمنشاه » و « سمنا » أو في أي مكان آخر تختاره الحكومة لتعليم النجارة والحدادة وغيرهما من المهن .

رابعاً – أن يُفتح فرع للمصرف الزراعي في كردستان ، ليقدم القروض والسلف بالنقد أو بالمواد ، فيتحرر الفلاحون من الضغط الذي يثقله عليهم الملاكون ،ويرتفع بذلك مستوى معيشتهم.

خامساً – إنشاء بعض مصانع السجاد والصباغة تحت إشراف الاختصاصيين ، الأمر الذي يساعد على إنهاض هذه الصناعة بتطوير منتجاتها وفقاً لمتطلبات الأسواق الخارجية .

سادساً – اتخاذ الاجراءات الحاسمة لمنع التهريب الذي يتم على حساب التجارة المشروعة .

سابعاً – إنشاء مدارس زراعية ، أو انتداب إختصاصيين إلى الكردستان لتعليم الأهالي الوسائل الحديثة لتجفيف الثمار ، وإعداد المنتجات الغذائية التي لا تزال على الرغم من جودتها ، لا تتلاءم من حيث تجهيزها مع متطلبات الأسواق الحديثة .

ثامناً – أن توفر الحكومة أجهزة خاصة لاستغلال الغابات ، ذلك أن الأكراد يقدمون على قطع الأشجار بطرق اعتباطية تعرّض الثروة الخشبية في كردستان إلى الزوال .

تاسعاً – يجب وضع تشريع يحدد بدقة واجبات وحقوق كلّ من ملاكي الأرض والفلاحين ليرتفع الظلم عن كاهل الفلاحين .

عاشراً – تحتاج كردستان إلى طرق معبّدة تصلها بالمناطق المحيطة بها مثل كرمنشاه ، وأزربيجان ، والعراق العجمي ، وبلاد

ما بين النهرين .

أحد عشر – اتخاذ إجراءات صحية عامة لمحاربة كثرة الوفيات بين البدو ، وهم عنصر منتج في الأمة الايرانية .

ملاحظات حول الاقتصاد الكردي وطرق تحسينه

إن أسلوب حياة الأكراد ، ومشاغلهم ، وعاداتهم كما أتينا على تفصيلها ، إنما هي نتيجة حتمية لطبيعة البلاد التي يعيشون فيها . فالظروف المناخية وتكوين التربة جعلت من الكردي منذ سحيق الأجيال مربياً للمواشي ، وبدوياً أو نصف بدوي ، لا فلاّحاً حضرياً . والكردي لا يتحول إلى فلاح إلا إذا أُرغم على ذلك كما حصل إبان الحرب العالمية الأولى عندما فصلت الجبهة الروسية التركية بين القبائل الكردية وبين مناطق الرعْي الصيفية ، الأمر الذي أفنى عدداً كبيراً من قطعان الماشية . وما إن انتهت الحرب حتى وجدت بعض القبائل نفسها مضطرة لأن تبدّل من نمط حياتها . وقد تؤدي الأوبئة التي تصيب الماشية إلى النتيجة ذاتها . أما المبادهات الحكومية لتحضير البدو ، فسوف تصطدم دائماً بذهنية الكردي الجبلية التي تحتقر رجل السهل. ولا تستطيع الحكومات أن تحرز بعض النجاح إلا إذا توسلت لغايتها بالكثير من الدراية والصبر ، واستعملت جميع الوسائل المالية والتكنيكية اللازمة . وقد كان الكردي حتى الآن ينظر بشديد الحذر – وهو على حق – إلى أية إجراءات تتخذها السلطات ، لأنه يحسّ بأنها تحمل إليه الشرّ . وكل جهد يرمي إلى تحضير البدو سوف يبوء بالفشل إن لم تؤخذ الوسائل نفسها بعين

الاعتبار . فأول ما يجب فعله هو كسب ثقة الآغا رئيس القبيلة ، الذي لا تزال له سلطة فعالة في أكثر القبائل . أي أنه يجب التوسل إلى الأكراد بواسطة الأكراد ، وبالعمل ضمن محيط القبيلة ، وهي الإطار الطبيعي للبدو . أما محاولات القوة ، فإنها تهدد بخلق مضاعفات خطيرة ، لأنه من الصعب إخضاع الشخصية الكردية بالعنف والإكراه .

هذه بعض الملاحظات العامة ، والواقع أن الأسلوب يختلف باختلاف الحالات والظروف ، فلا بدّ من دراسة كل مشكلة على حِدَة ومن جميع جوانبها .

الفصل الرابع

فردية الكردي وطباعه

*

ان خصائص الامة تكمن في طبيعة أفرادها وعاداتهم ومواهبهم الرئيسية ، وحتى في المباذل التي تميز شعباً عن آخر !

فولتير « القاموس الفلسفي »

الصعوبة في رسم صورة واضحة عن نفسية شعب ما

عندما نقوم بدراسة عن شعبٍ ما ، لا يمكن إغفال الوجهة النفسية لدى هذا الشعب . ومن المؤكد أن لكل شعب نفسيته الخاصة وهي عبارة عن مجموعة من الملامح تميّزه عن شعب آخر أو تقرّبه منه . ومع ذلك ، ودون أن ننكر وجود ملامح ثابتة في

أخلاق شعبٍ ما هي حصيلة ماضيه وظروف معيشته ، لا بد لنا من الإشارة إلى خطر إطلاق العموميات في هذا المجال . وكثيراً ما تكون هذه العموميات غير واقعية ، ثم تعلق بهذا الشعب أو ذاك مع الأيام ويصبح من الصعب تصحيحها [1]

وغالباً ما تأتي هذه العموميات ، التي نطلق عليها اسم «تعاريف نفسية » بتأثير عوامل شخصية تمليها الظروف . فهذا الشعب الذي نرفعه إلى السماء لأسباب سياسية في الغالب نعود في الغد لنهبط به إلى الحضيض إذا ما تبدلت الظروف .تارةً نمتدح الفردية في مقابلتها بالنفسية الجماعية ، وتارة أخرى نحمل على مساوىء الارتجال الفردي في مقابلته مع النتائج الكبرى التي يحققها النظام الجماعي . قد نعتبر الاقتصاد والتروي من الفضائل ، ولكنهما في بعض الأحيان يولدان البخل والتقاعس ، وهنالك دراسات تحاول أن توضح ملامح شعبٍ ما عن طريق عقلية الريف عند أفراده ، على اعتبار أن « العقلية التجارية » تطمسها التسويات . ويعلق بعضهم أهمية كبرى على المظاهر الواضحة والمنطق ، فيرد عليهم بعض آخر بأن الحياة لا تخضع للمنطق ، ولا تتقيد بالمسلّمات .

ونحن في دراستنا هذه التي نتناول بها الشعب الكردي ، نتخذ

---

١ ــ الواقع أن هذه القضية صحيحة في المقياس العلمي . فمن المؤكد أن لافراد شعب ما قاسماً مشتركاً عميق الجذور يجمع بينهم . فاذا ما اغترب أحد الافراد الى وسط آخر يستطيع أن يكتب صفحات جديدة ويكون لذاته شخصية جديدة . الا أن هذا التبدل طارىء وسطحي ، سرعان ما يزول عندما يعود الفرد الى وسطه الاصلي .

خطاً وسطاً بين جميع هذه النظريات فنعرض أولاً آراء الأجانب الذين قاموا بدراسات عن الأكراد ، ثم نتخذ من القصص الشعبي الكردي رأي هذا الشعب في نفسه .

نماذج كردية للدكتور كريستوف

بدوي من رعاة جبال طوروس

قدّم الدكتور هلموت كريستوف أعمق دراسة عن طبائع الأكراد ،وذلك في المؤلف الذي أتينا على ذكره ،حيث يقارن بين الأكراد والأرمن . ويرى هذا المؤلف بالاستناد إلى اعتبارات سياسية واجتماعية ، أن هناك أربعة نماذج للأكراد :

١ ـ رعاةالمواشي في الهضبة التركية ـ الأرمنية العليا ، وعند المجرى الأعلى لنهر « كورا » أي في أراكس ومراد والفرات ، وحوض بحيرة « فان » .

٢ ـ رعاة المواشي في منحدر طوروس الجنوبي .

٣ ـ الأكراد المحاربون عند مناطق الحدود .

٤ ـ الأكراد أنصاف البدو !

ويعتبر كريستوف أن أكراد طوروس الجنوبي الذين يرتادون بادية سوريا وما بين النهرين في الشتاء ، هم النموذج الأصيل للأكراد وجميع الفروع الأخرى مشتقة عنه ، ذلك أن طبائع هذا النموذج قد تكونت فقط بتأثير صراعه مع الطبيعة ومع الأعداء . ففي هذه المنطقة يتتابع البرد القارس والحرّ الشديد بفترات قصيرة ، فالحرّ لا يطاق في وديان طوروس بينما الرياح الباردة تعصف في

الجبال .

وبالاضافة إلى هذه الصعوبات المناخية ، هناك وعورة المنطقة التي تجعل الانتقال من مكان إلى آخر عملية منهكة . ولا شك أن التغلب على مثل هذه العقبات يحتاج إلى قوة إرادة ، وإلى قدرة احتمال كبرى . لقد عُرف عن البدوي أنه إنسان حالم ، لا يرى في العالم إلا الأشباح والشياطين ! ولكن هذا لا يمنعه من أن يكون شديد الوعي للواقع . وطبائع البدوي لم تتكون فقط من مجابهته للطبيعة القاسية ، بل هناك أعداء يحيطون به ولا بدّ له من شجاعة فائقة للتغلب عليهم . فالقبائل الكردية في طوروس تعيش في حالة قتال دائم ، وتتقاتل في الصيف لاحتلال المراعي الخصبة ولحماية مواشيها . ولكن المعارك الرئيسية إنما تدور في الشتاء ضد البدو العرب وذلك عندما يأخذ البدو الأكراد يهبطون بمواشيهم من الأعالي إلى بادية سوريا والعراق . والبدو العرب شأنهم شأن جميع البدو لا يعتبرون سرقة المواشي عاراً ، ويعرفون أن الأكراد لا يستطيعون اللحاق بهم في البادية ، غير أن الأكراد أشد مراساً في الحرب . وفي الواقع ، إن الاحتكاك بين الأكراد والعرب يعود إلى أصليهما وظروفهما المعيشية ، لذلك من المفيد أن نتوقف عند هذه الناحية قليلاً .

يقول المراقب الفرنسي الدقيق الكابتن روندو :

« تنحدر سلسلة جبال أرمينيا والكردستان انحداراً شديداً من جهة الجنوب عبر ماردين ونصيبين وجزيرة ابن عمر نحو بادية الجزيرة التي يقطنها البدو العرب . وتعتبر هذه المنطقة حداً فاصلاً

بين عالمين . فبينما يتعذر على البدو العرب الذين يعتمدون في معيشتهم على الجمال ، أن يصعدوا إلى تلك الجبال ، نجد بالمقابل أن الأكراد ينظرون باشتهاء إلى البادية ، حيث يسهل عليهم أن يجدوا مراعي لمواشيهم وينصرفوا في الوقت ذاته ، إلى بعض الزراعة . وعندما تتمكن السلطات أن تفرض على البدو العرب قانون احترام المزروعات ، يهبط الأكراد إلى السهل . غير أن المواسم ليست دائماً خصبة ، والمناخ السهلي يضعف من صحة رجال الجبال ، وهكذا يهلك السهل الأكراد » .

ويقول بانس : « وهكذا نجد أنفسنا في منطقة الحدود بين العرب والأكراد ، وهي من أهم مناطق الشرق الآسيوي إذ يصطدم فيها شعبان مهاجران . فالبدو العرب قد صعدوا من الجنوب ، من الصحراء السحيقة ، بينما يهبط البدو الأكراد من الشمال ، من حيث أتى الأرمن والأتراك أيضاً . وإذا أردنا أن نتفهم هذا الحدث الهام يكفي أن نلقي نظرة على الخارطة فنرى الخطوط الثلاثة التي تشير إلى الحدود الشمالية للبلاد العربية ، وإلى المناطق التي يسعى إليها البدو العرب في الصيف والشتاء طلباً للكلأ . ونلاحظ أن هذه المناطق محاطة بسلاسل جبلية من الجنوب والعرب لا يصلون منها إلا إلى المنحدرات الخفيفة ، ففي الصيف يتوغل العرب في الشمال حتى يبلغوا أقصى الحدود العربية ، أما في الشتاء فيتراجعون إلى الجنوب .

« وهكذا نجد أنفسنا مضطرين للاقرار بأن شعوب الشمال يتميزون بميل إلى التوغل نحو الجنوب أكثر من ميل شعوب الجنوب

إلى الصعود نحو الشمال . ولما كانت شعوب الشمال قد اعتادت على مناطق كردستان الغزيرة المياه ، فإن نزوحها نحو الجنوب لا بدّ أن يتوقف عندما تصل إلى المنطقة التي تدوم فيها إمكانية الري، فوراءها تمتد البادية التي لا تصلح إلا لحياة المواشي والتي كانت دائماً تحت سيطرة البدو العرب . وبالمقابل فإن العرب لن ينفذوا قط إلى جبال أرمينيا ، حيث يفتقدون البادية التي لا يستطيعون العيش بعيداً عنها » .

يتبين لنا أن المعالم الأولى التي تبرز من شخصية الأكراد هي حبهم للقتال ، ذلك أن حياة البداوة التي يعيشونها وسعيهم الدائم إلى المراعي الخصبة ، أو إلى الصيد أو الغزو ، كل ذلك أوجد لديهم حالة نفسية جعلتهم ينفرون من كل التزام ويثورون ضد كل إكراه . لقد علـّمت الحياة الفرد الكردي « أن العالم مُلكٌ للشجاع » ولولا أن القبيلة تشكّل مدرسة الفرد الكردي وتعلمه التضحية وخدمة المجموع ، لكانت طباع الأكراد كفيلة بأن تفنيهم. وإذا كان الكردي يتمتع بخلق نبيل شعاره : الكرامة والشهامة وحسن التصرف ، فذلك لوقوعه تحت تأثير هذا العامل المزدوج : الصراع المستمر ضد الطبيعة والانسان من جهة ، والخضوع لأنظمة القبيلة من جهة ثانية .

وكما أن الطبيعة لا ترحم الكردي ، كذلك فهو لا يرحم خصمه ! فالأخذ بالثأر والميل إلى الانتقام يسيطران عليه .

ويروي رابينو القصة التالية :

« حدث في ١٨ حزيران عام ١٨٩١ أن دعا يونس خان حاكم

مدينة « بنه » وأسرته لزيارته ، ثم أقدم بمعونة خدمه على ذبح ضيفه وابنه ... ولكن الابن الثاني وعمره ١٥ سنة أفلت من بين أيدي القاتلين بعد أن جُرح ،وانقضّ على يونس خان وقضى عليه بضربة خنجر ، كما قتل ستة من الخدم قبل أن يستسلم . »

وتقول الأمثال الكردية الشائعة : « عدوّ الأب لا يمكن أن يصبح صديق الابن » و « أن تلوث يديك بالدم أفضل من أن تتخلى عن الأخذ بالثأر » .وتعطش بدو الأكراد للدم يفوق تعطش غيرهم من البدو . ويعود هذا الطبع إلى أن القاتل يستطيع بكل سهولة أن يتوارى بين الجبال هارباً . ويؤخذ على الأكراد إفراطهم في كل شيء حتى في الأكل ، وهم يدركون الأضرار التي تلحق بهم من جراء هذا الإفراط ، لذلك يقول مثَلهم : « كل شيء يكسر إذا كان نحيفاً ، أما الانسان فيُكسر إذا تضخم » . ولا ريب أن الكردي يستطيع أن يضع حداً لغرائزه ، بدليل علاقاته المعقولة مع الفلاحين الأرمن الذين يعملون في أرض تخص الأكراد .

بدوي من رعاة ارمينيا

الصفة الأساسية التي تميز الأكراد الذين يعيشون فوق هضبة أرمينيا هي أنهم يقضون فصل الشتاء القارس مع الفلاحين الأرمن في منازلهم تحت الأرض . ففيما يقضي أكراد جبل طوروس هذا الفصل في مقاتلة بدو سوريا والعراق في تنافسهم على المراعي ، يكون أكراد أرمينيا مختبئين في المنازل المغلقة مدة ستة أشهر تقريباً . ويحدث في هذه الفترة أن يتعرف هؤلاء الأكراد إلى

الأرمن الذين يتنازعون معهم مرافق العيش . وسلاح الأرمن هو مرونتهم ، لذلك نلحظ عند أكراد أرمينيا مرونة وقدرة على الاحتيال .

وقد تحدث الكونت « ده شوله » عن تصرف بكوات الأكراد السيء تجاه الأرمن ، إذ يسلبونهم أراضيهم ، ثم يرغمونهم على أن يعملوا عندهم كعمال . أما مؤلف « كونتانسون » فإنه يحمّل عبد الحميد وحده — دون الأكراد — مسؤولية المذبحة الكبرى التي تعرّض لها الأرمن .

الاكراد المحاربون وانصاف البدو

إن الخط الأساسي لشخصية الأكراد الذين يعيشون على الحدود، أنهم يعتمدون في تأمين حياتهم على القتال فقط ،فيسلبون وينهبون. لذلك فإن طبائع العنف والجشع والتعطش إلى الدم تبلغ عند هذه الفئة من الأكراد حدودها القصوى ، بل إن جميع المتناقضات التي تمازج نفسية الكردي تبلغ عند هؤلاء أوجها . وسوف يتبين لنا أن معظم الأكراد الذين تتشكل منهم المدن الكردية يعود أصلهم إلى هذه الفئة .

وأخيراً نصل إلى الفئة الرابعة وهي أنصاف البدو الذين ابتعدوا أكثر ما يمكن عن الطبع الكردي الأصيل . ونلاحظ في أكراد هذه الفئة ، تقلّص المميزات الكردية ، وذلك لانعدام فرص استخدامها . فالصراع ضد العدو فقد إلى حد كبير أهميته . وحب التسلط بل والشجاعة قد هبطا إلى أدنى مستوى ، ليحل محلهما الجمود

واللامبالاة . وكما أن زوال نظام القبيلة الصارم قد أبرز كل ما في النفوس من ميل إلى الطمع ، فإن السلطة السياسية قد قتلت في هذه النفوس حب الحرية .

العناصر الكردية المدنية

كانت حكومات تركيا وإيران تعهد إلى رؤساء القبائل الكردية القائمة على الحدود بمهام الحكام ، فيصبحون نوعاً من الحرس لحدود الدولة ، الأمر الذي كان يصرفهم عن أعمالهم التقليدية . وكان هؤلاء الرؤساء الحكام يجمعون حولهم عدداً من الرجال المسلحين لتنفيذ المهام الجديدة ، فلا يبقى بينهم وبين الحياة الحضرية سوى خطوات . وكانت مراكز الحكام تقام عند تقاطُع خطوط المواصلات ، حيث يستطيعون أن يضعوا البلاد تحت رقابتهم . وكانت تركيا تعهد إلى الأمراء الأكراد بتولي الادارة في أرمينيا وفي غيرها من الولايات ، ذلك أن هؤلاء الأمراء بالاضافة إلى السلطات التي تمنحهم إياها الحكومة المركزية ، يتمتعون بتأييد القبائل الكردية . وقد أصبحت وظيفة « باشا » في أغلب الأحيان متوارثة في أسَر الأمراء الأكراد . وهكذا أصبحت سلطات هؤلاء السادة الكرد مزدوجة : فمن جهةٍ هم رؤساء قبائل بدوية مستقلة ،وهم من جهةٍ ثانية موظفون وجنود لدى السلطان . كذلك كان اتجاههم السياسي مزدوجاً ، فعندما تقوى الحكومة المركزية تراهم يمارسون وظائفهم بأمانة ، أما إذا ضعفت فيستبد بهم الشعور بالاستقلال ويتصرفون عند ذاك وفق رغائبهم ، فتضطر الحكومة

التركية لأن تلتحم معهم في معارك طويلة .

وكان الأمراء الأكراد يقطنون في قلاع منيعة أو في قصور محصنة ، ويملأون فراغ أوقاتهم بالصيد والحرب ، فيقاتلون رعاياهم المتمردين ، أو بعض جيرانهم من « الباشوات » الموظفين أيضاً لدى الدولة ، أو يحاربون اللصوص . وفي بعض الاحيان يمارسون ، هم بأنفسهم ، أعمال الغزو . ويمكن اعتبار هؤلاء الأكراد الذين تغلب عليهم صفات المحاربين ويحيون حياة النبلاء في أرمينيا ،عناصر معادية للحضر في تلك المنطقة ويسمونهم ال « سارت [1] » . وبقدر ما كانت صفات الرجال المحاربين نامية لدى الأكراد ، كانوا يفتقرون لأدنى استعداد لممارسة الاعمال الاقتصادية . لذلك كانوا يلجأون في كل حاجاتهم المالية والتجارية إلى الأرمن . فإذا كان مطمع الكردي الأعلى أن يصبح « باشا » ، فإن مطمع الأرمني الأعلى هو أن يصبح صاحب مصرف ! وهكذا كان يتمم الواحد منهما الآخر . ولكن الوضع في المدن الريفية ، كان يختلف عما هو عليه في المدن التجارية الكبرى ، ذلك أن « الباشا » الكردي كان في الغالب يأبى الخضوع لسيطرة الأرمني ، لأنه لم يكن في أعماقه موظفاً بل كان سيداً مستقلاً يقاوم باستمرار ليحافظ على منصبه . فهو يدير بنفسه العمليات الحربية ،وفي الصيف يترك المدينة ليسكن خيمته في أعالي الجبال . وبالمقابل ، فإن الأكراد الذين يقطنون المدينة هم في أغلبهم من أنصاف البدو الذين أضاعوا استقلالهم بقدر

١ ـ السارت في آسيا الروسية الوسطى يمثلون العنصر الحضري أو المدني، وهم على العكس من « الكرغيز » أو التركمان البدو .

ما تحضّروا ،وأحسّوا بثقل التزاماتهم تجاه البدو ، وتجاه الملاّكين الذين يعملون في أراضيهم ، وتجاه الضرائب ، لذلك فإنهم كانوا يتركون الريف لينزحوا إلى المدينة حيث يشتغلون عمّالاً ، فتزداد طبقة الشغيلة في هذه المدن . وشيئاً فشيئاً تغلب مزايا الحضارة على الاكراد دون أن تـُفقدهم تماماً صفات البداوة الأصلية . وكثيراً ما نعثر في جميع مدن آسيا على مثل هذه الطبقة من الشغيلة البدو : أكراد وعرب وتركمان ، إلا أن أولادهم يأتون حضريين تماماً .

آراء : سوان ، بندر ، ميللنجن ، وغرام ، لرش ، في الاكراد

يقول « سوان » الذي عاش بين الاكراد وتكلم لغتهم :

« إذا أردنا أن نعدل في الحكم على الاكراد ، لا بدّ لنا من أن نقارن ما بين كردستان وأوروبا منذ ٦٠٠ سنة . وحتى اليوم إذا ما قابلنا بين الاوروبي والكردي ، فلا أعتقد أن كفّة الأخير تشيل . فإننا نجد بين مجموع ألف كردي — إلى أية فئة انتسبوا — مجرمين أخلاقيين أقلّ بكثير مما نعثر عليه في مثل هذا المجموع من الاوروبيين .

« غير أنه من الصعوبة بمكانة إعطاء حكم عام شامل على الاكراد ، لأن طبائعهم عديدة وكثيرة التباين .

« وتسود الاكراد العقلية الإقطاعية بشكل عنيف ، حتى أن « فازر » أحد رحّالة القرن التاسع عشر لاحظ تشابهاً قوياً بين الاكراد اليوم وقبائل سكوتلندا منذ بضعة قرون .

« ويمتاز الكردي باستقامته التي لا تتزعزع ، وبحفاظه على

العهد الذي يقطعه ، وعطفه النبيل على أقاربه ، وسلوكه الانساني – بصورة خاصة أكراد الجنوب والوسط – تجاه المرأة ، وإحساسه الثاقب بالأدب والشعر ، وتسارعه إلى التضحية من أجل قبيلته ، وتفاخره ببلاده وعرقه . فكم يكشف الكردي من معاني النبل والاخلاص عندما يعلن قائلاً : « أنا كردي » !

« كذلك ، فإن نفسية الكردي ملتهبة الحماسة . تراه يثور فجأة ولأقل سبب ، وذلك نتيجة حياته المضطربة الملأى بالمفاجآت. ولكنه في الوقت ذاته يحب النكتة ، وهو دائماً مستعد لأن يروي المفارقات التي يسببها طبعه الناري .

» كان في منطقة « أوراما » زعيم كردي من قبيلة « هركي » عقصته ذبابة ، فأخذ يهرش مكان العقصة . وبعد خمس دقائق من توقفه عاد يحس بأثر العقصة ، فهرش مكانها من جديد . وظل على هذه الحالة برهة من الزمن ، وأخيراً ثارت ثائرته فتناول مسدسه ولعن « أبا الذباب » وأطلق النار على إصبعه فقطعها . . »

واختلف كرديان ذات يوم في تحديد المكان الذي يظهر فيه « سيروس » الذي يعين نهاية الفصل الحار من السنة . ودون أن يطول الجدال حول الموضوع ، انقض واحدهما على الآخر في صراع قاتل . ولم يفترقا إلا وأحدهما قد فارق الحياة ! »

ويقول الرحالة الفرنسي بندر حوالي عام ١٨٨٧ :

«على الرغم من بداوة الاكراد ، فإنهم يتمتعون بمشاعر الكرامة ، ويتقيدون كلياً بعهودهم . فإذا ما وعدك أحدهم بأنه سيوصلك سالماً إلى مكان ما ، فاطمئن إليه دون أي تردد .ولكن

إذا ما صادفك في الغد فإنه لا يتردد إطلاقاً في معاملتك معاملة قاسية إذا لزم الأمر » .

أما الضابط « ميللنجن » الذي لم يتعلم اللغة الكردية ، ولكن وجوده في إحدى الفرق التركية في أرمينيا وفر له التعرف إلى الاكراد في جوّهم الطبيعي ، فيقول :

« إن تمازج الصفات السيئة والحسنة الذي نجده لدى الأكراد ، يشكل طبيعة عامة لدى جميع البدو : العرب والاكراد والكرغيز وغيرهم . بيد أن الكردي يأتي في مزايا الفروسية بالدرجة الثانية بعد العربي [١] ، فهو يحترم حقوق الضيافة ويحمي من يلتجيء إليه » .

ويعدّد ميللنجي أمثلة على المذابح التي اقترفها الاكراد ، ومنها حادثة ذبح العالم الالماني شولتز عام ١٨٣٠ . ويلحظ لدى الاكراد أنهم ليسوا على الصفات التي يمتدحهم بها بعض الباحثين .

لقد ذكرنا آراء العالم الانكليزي في الاكراد على الرغم من تحامله ، ذلك لأننا لا نريد أن نصور الشعب الكردي على أنه مثالي ، بل إن ما يعنينا هو أن نفهم هذا الشعب .

وهناك رأي لا يقل قسوة، يبديه المبشر « وغرام » عام ١٩١٠ ، فيقول : ليس من طبيعة الكردي التعصب ، فهو لا يظهر أي اندفاع خاص إلا للغزو ، لذلك لا يمكننا أن نصفه بالنشيط ، حتى في أعمال الغزو » .

ويقول « وغرام » في مؤلف ثان :

---

١ مولتك يرى العكس .

« لم تتغير طبائع الأكراد منذ عام ١٠٠٠ قبل المسيح . إنهم شعب قوي وموهوب ، يحسنون المعاملة ، ومع ذلك هناك شيء ما ينقصهم ... فيلبثون شعباً فاشلاً ، إذ أنهم لم يتمكنوا حتى الآن من التخلص من حياتهم القبلية » .

لا ريب أن الملاحظة التي يبديها وغرام جديرة بكل اهتمام . ومن المفيد أن نقرنها بالدور الذي ينسبه كريستون للقبيلة في أحوال الاكراد السياسية والتربوية . فإذا صح أن الاكراد لا يتمكنون من تخطي مرحلة القبيلة ، فهذا يعني أنها تلعب دوراً عائقاً في سبيل ارتقائهم إلى مستوى من المعيشة الجماعية أفضل .

ولكي نكمل عرضنا لمختلف الآراء ، لا بد من أن نذكر « لرش » الذي يبدأ دراسته برأي « أبوفيان » الأرمني في الاكراد :

« نستطيع أن نطلق على الاكراد لقب « فرسان الشرق » بكل ما في الكلمة من مدلول ، فيما لو كانوا يعيشون حياة أكثر تحضراً . ذلك أن الصفات المشتركة لهذا الشعب هي : استعداد دائم للقتال ، استقامة وتفان مطلق في خدمة أمرائهم ، وفاء للعهد وكرم وحسن ضيافة ، إيثار للدم المهدور ، عداوات قبلية تنشب بين أقرب الأقرباء ، حب للفروسية ، إحترام فائق للنساء » .

ولست أدري إذا كان « أبو فيان » قد تعرّف إلى قبائل الأكراد الشرقية ،غير أني متأكد من أن هذه المزايا التي أطلقها على الأكراد بصورة عامة تكاد تكون متفقة مع معظم آراء الرحالة الذين عاشوا زمناً طويلاً مع الاكراد . ويرى الرحالة « لرش » الكثير من

الفضائل الاجتماعية لدى هذا الشعب . أما حب القتال فلا يعتبره الاكراد من الجرائم بل هو في المفهوم الكردي من علامات الرجولة والبطولة ... وبالإضافة إلى ذلك ، هناك رأي عام في الشرق يرى أن الاكراد لا يعاملون أسراهم بذات المعاملة القاسية التي يلقونها لدى التتر والتركمان وغيرهم . ويجمع الاكراد بالاضافة إلى طبائعهم الحربية ،حباً قوياً للحرية ،وتمسكاً بطولياً بكرامتهم. فقد حدث أن وقع أحد بكوات الاكراد أسيراً أثناء حملة حافظ باشا عام ١٨٣٧ ، فأخذ أعداؤه يعرضون عليه العروض المغرية ليكشف لهم عدد ومواقع الثوار الاكراد . فكان يجيب عن هذه المغريات بقوله : « إن الزعيم الكردي لا يقبل إطلاقاً أن يصبح زعيماً لقوم آخرين» .ولم تنفع معه جميع أساليب التنكيل والتعذيب لمدة يومين ، فما كان من الباشا الحقود إلا أن رماه في قدر من الزيت المغلي ، فلبث محافظاً على رباطة جأشه حتى مات .

كيف يرى الاكراد انفسهم

لقد عرفنا حتى الآن وجهة نظر الاجانب في الأكراد ، ترى كيف ينظر الاكراد إلى أنفسهم ؟ إننا نبدأ بهذه القصة التي توضح لنا إلى أي حدّ يغار الكردي على سمعته في الشجاعة :

تدور القصة حول مغامرة أحد اللصوص واسمه « امام رزقو » وقد اشتهر في منطقة ديار بكر . ويروي الحكاية أحد غلمانه يقول :

« كانت العصابة متربصة عند إحدى الطرق عندما برز شاب

يحمل على كتفه بندقية « مرتينة » ويتمنطق بحزامي خرطوش؛ ويضع كفه على اذنه ويغني بصوت عالٍ . فتصدى له أحد رجال عصابة « إمام رزقو » ، وسلبه أمتعته دون أن يبدي أية مقاومة . وبعد مدة وجيزة ظهر على الطريق رجلٌ عجوز يتلفع بعباءة مهلهلة، ولكنه يقبض بشدة على سيفه ومجنّه وينهر حماره ليسرع في سيره . فأصدر « إمام رزقو » أمراً بسلب هذا العابر . فتصدى له أحد الغلمان وصاح به : « هوليه هوليه ! » ولكن المسافر العجوز واسمه « إمام خال » ردّ عليه قائلاً : « هوليه هوليه » ثم راح يشتم الغلام. وعندما انتهره الغلام وأمره بأن يسلمه كل ما يملك ، غضب « إمام خال »وصاح به في شتيمة كبرى. فما كان من الغلام إلا أن أعد بندقيته وصوّبها إلى العجوز . غير أن هذا الأخير انقض عليه بسيفه ، ففرّ الغلام أمامه ،فلحقه العجوز إلى مركز العصابة حيث التقى برئيسها. وجرى بينهما حديث قصير ، رضي العجوز بنهايته ضيافة « إمام رزقو » وأكل معه « الكباب » وقبل أن يغادر العجوز مخيم العصابة أهداه رئيسها الأمتعة التي سُلبت من الشاب وزاد عليها خنجراً ، وقال له : « خذ هذا فأنت أهل لأن تحمله » .

وتبين رواية « الصراع بين عبدو وعزيز » كيف أن الكردي يجمع في ذاته العنفوان والتهور في وقت واحد . فقد كان بطلا الرواية من قبيلة واحدة وقرية واحدة ، وكانا قريبين . وكان عبدو عمدة القبيلة . وفي ذات سنة تمكنت الحكومة التركية من فرض ضريبة كبيرة على القبائل وذلك لكثرة ما جيّشت من جنود ، فحدث تذمر عام بين الأكراد وأخذوا يتحدثون عن محاولات

لإسقاط رؤسائهم ،باعتبار أنهم مسؤولون عما جرى . فغضب عبدو، عمدة القبيلة ، وقال بتحدٍّ : ليجرّب من يشاء أن يزحزحني عن منصبي ، فإني أرديه كالكلب بهذه البندقية ! فردّ عزيز التحدي بقوله : سأسقطك عن منصبك ، وافعل ما تشاء .

ومرّت بضعة أيام التقى بعدها عبدو وهو مسلح ببندقية بعزيز وأخيه أحمد وهما مسلحان بالخناجر فقط . فمرّ بهما دون أن يلقي التحية المعتادة « الله معكم » فصاح عزيز : لقد فقد هذا الكلب ماء وجهه ، فأطلق عبدو عليه النار وأصابه . إلا أن عزيزاً وجرحه لا يزال ساخناً ، انقض على عبدو بخنجره وسدّد إليه ضربتين ، ثم مدّ يده إلى جرحه يشده دون أن ينبس بكلمة واحدة . أما عبدو فأخذ يصيح طالباً النجدة . فاقترب أحمد من الاثنين فشاهد الدم تنزف منهما جميعاً ، غير أن عزيزاً كان صامتاً فظنّ أن الرصاصة لم تصب منه مقتلاً ، فراح يشتمه لأنه أقدم على قتل قريب له. وعندما انتهى من شتائمه ، قال له عزيز : « عوضاً عن أن تشتمني انزع الرصاصة من جنبي . ففك أحمد ثياب أخيه ، وما أن شاهد الجرح ، حتى استل خنجره وهمّ بأن يجهز على عبدو ، فناداه عزيز قائلاً : « تعال يا أخي ، فأنا قضيت عليه . احملني على ظهرك إلى البيت » . ونقل الاثنان إلى منزليهما ، وعند المساء لفظا روحيهما .

هذه الاقصوصة الساذجة والقاسية تعطينا صورة واضحة عن طبائع الكردي . فعزيز وهو يلفظ أنفاسه كان متنبهاً لأن يقول لأخيه : « لا تتعب نفسك في الإجهاز على عبدو ، فأنا أجريت له حسابه . »

وبصورة عامة ، لا يعلق الكردي كبير أهمية على الحياة .

كان أحد الأكراد يسير في غابة فشاهد كردياً آخر يقتطف « العفص » في أعلى سنديانة . ولاحظ شيئاً بارزاً تحت سترته ، فظن أنه كيس دراهم ، فصوّب إليه بندقيته ورماه من أعلى . وعندما فتشه لم يعثر إلا على بعض أكواز البصل ... فعاد إلى منزله خائباً ، وقص على والدته ما حدث له ، فقالت له ... « لا تبتئس ، سوف تأكل البصل مع الخبز » ويبدو أن الكردي ، مثل الألباني ، يجد لذة في مشاهدة أثر الرصاصة التي يطلقها من بندقيته فتُردي رجلاً سليم الجسم معافى .

وتبرز شجاعة الكردي واستبساله أيضاً في صيد الحيوانات ، فنادراً ما تخطىء رصاصته الوعلَ في الجبال . وتروي الأقاصيص أن صياداً كردياً اسمه بيازيد ، أنجد ذات يوم دبّاً كان قد فاجأه فهد وكاد يتغلب عليه وحفظ الدب المعروفَ للكردي وتعلق به وصاحبَه ، وكما جاء في أقاصيص لافونتين ، فقد انتهت القصة بأن قتل الدب صديقه الكردي إذ رماه بحجر كبير ليكشّ عن وجهه الذباب .

ويروق للكردي أن يروي قصصاً أبطالها لصوص . فالمغامرات هي أيضاً من الصفات التي لا يحتقرها الأكراد . وقصة « كمو » شهيرة في قرية « شاكولورده ، وكان هذا قد صنع عدداً من خلايا النحل ووضع فيها أقراص العسل المسلوبة وبعض الزنابير ليغطي ما سلب . وحدث ذات مرة أن قبض عليه أحد أصحاب الخلايا وهو يأخذ من خلاياه ، فقال له « كمو » : « جرت العادة في كردستان

أنه عند إنشاء خلايا جديدة ، لا بد من ثلاث نحلات : إحداهما نشتريها ، والثانية نستأجرها ، والثالثة نسلبها » . وراجت أعمال « كمو » إلى أن جاء يوم وصل فيه إلى القرية مأمور الضرائب ، فاحتار ماذا يفعل . إن هو صرّح له بأنه يملك عدداً قليلاً من النحل، فكيف يبرّر كميات العسل الكبرى التي كان يبيعها ؟!. وإن هو صرح له بأنه يملك عدداً كبيراً ، وقام المأمور بالكشف على الخلايا فوجد فيها زنابير لا غير .. فكيف يبرّر عدم وجود النحل ؟! فما كان منه إلا أن أحرق ما عنده من الخلايا .

ويجب ألا نعتقد بأن الكردي يفاخر بعنفه وبطشه وحسب . إنه يحب التذكير بترويّه وتعقله وذكائه ، كما حدث مثلاً لعيسو الذي كان يعمل مستشاراً لابراهيم باشا والي كردستان .

فذات يوم كان الباشا يستريح من عناء الصيد وقد جلس إلى جانبه عيسو وحيداً ليكش عنه الذباب . وفجأة لاحظ عقرباً يقترب من الباشا ، فاستل خنجره ليقتل العقرب ، لكن هذا الأخير اختفى بين الحجارة . وفي هذه الأثناء استفاق الباشا ليرى الخنجر بين يدي عيسو ، فسأله عما جرى ، فاكتفى عيسو بأن أجاب : « لقد اختفى » ولم يشأ أن يوضح أكثر من ذلك ، إذ أدرك أن الظنون تساور ذهن الباشا . ولم تمض فترة طويلة حتى ترك عيسو زوجته وابنه علياً وغاب عن الأنظار . إلا أن أحوال الباشا بدأت تسوء بعد غياب مستشاره فاستدعى علياً وطلب إليه أن يذهب إلى والده ويسأله النصح ، فقام علي بالمهمة . وعندما وصل علي عند والده قال له هذا : تعال معي إلى البستان وغداً أجيب على

استشارتك . وذهبا معاً إلى البستان ، حيث شاهد علي والده ينتزع جميع الغرس الصالح القوي ويترك الفاسد. فجزع الابن على البستان وقال لوالده : « سوف تقضي على بستانك يا والدي ! » فأجابه عيسو : كلا يا بني !! إني سأحصل بهذه الطريقة على ثمار أفضل » . وفي الصباح طلب عيسو إلى ابنه أن يذهب إلى الباشا ويروي له ما شاهده ، وأن يقول له : « لقد ذهب ولكنه عاد ! » .

ورجع علي إلى الباشا وقص عليه كل ما جرى له . فصاح الباشا قائلًا : إنه جواب عظيم ! وللحال استدعى كل زعماء الأكراد ممن عرفوا بحيلهم ودسائسهم إلى اجتماع طارىء ونفّذ فيهم كلهم الاعدام ،وعيّن مكانهم أشخاصاً عُرفوا بطيبة قلوبهم وعفتهم . وعاد النظام يسود في البلاد . وبعث الباشا يستدعي عيسو ورفع مرتبته . وعند ذلك قصّ عيسو على الباشا قصة العقرب قال : « عندما اختفى العقرب اختفت معه جميع شواهدي ، ولكنه عندما عاد عادت إليّ الطمأنينة » .

ولا بد لنا في السياق ذاته من أن نذكر حسن بك أمير « هكاري » الذي اشتهرت حكمته بكل بلاد الكردستان ، فقد كانت كل كلمة ينطق بها تعتبر نصيحة وتذهب مثلًا . وفي أحد أيام الشتاء دار بحضرته حديث الأصدقاء المخلصين والأصدقاء المزيفين ، وحديث الأمانة والوفاء . فقال حسن بك : « من استطاع منكم أن يبشّرني بالعصفور كافأته » . وأدرك الجميع أنه العصفور الذي يظهر في أوائل الربيع . وراح كل واحد يذكر اسم عصفور . غير أن واحداً فقط أصاب الحقيقة عندما قال : إنه عصفور النقّار .

وشرح الأمير عند ذلك حقيقة هذا الجواب فقال : بينما تغادرنا عصافير الربيع إلا في الأيام الجميلة الرخية ، يلبث عصفور النقّار أميناً على صداقتنا ويعيش معنا في كل الفصول .

وكثيراً ما تكون الحيلة مرادفة للذكاء.

حدث ذات يوم أن ثلاثة رجال وصلوا مع دوابهم المحملة إلى قرب بستان ، وأرادوا أن يستريحوا وعبثاً حاول البستاني صرفهم ، فقرر أن يلجأ إلى الحيلة .وكانت الدواب التي يصطحبونها : حصاناً وحماراً وبغلاً . فهمس البستاني في أذن صاحبي الحصان والبغل : « ساعداني على إبعاد هذا الحمّار ، فأعدّ لكما غذاء طيباً ، وأعطي لكل منكما قطعة نقود » .وتكاتف الثلاثة على طرد الحمّار ، ثم تظاهر البستاني بالتعرف إلى الخيّال مدعياً أنه أحد أبناء أصدقائه ، وتعاون معه على إخراج البغّال بعيداً عن البستان . وإذ لم يبقَ سوى الخيّال والبستاني ، لم يجد هذا الأخير مشقة في طرد الأول !

وهكذا نصل إلى القصص الفكاهية التي يتندّر بها الأكراد :

اقتنع أحد صغار التجار في أكـرا أن بإمكانه الحصول على ثروة إذا ما سافر إلى القرى الكردية ، فتبضّع كمية من الأقمشة واتجه مباشرة إلى قرية « قلعة » أفقر القرى الكردية ، وقديماً قال المثل : « بع واشترِ مع المحتاجين » . وما إن وصل إلى أطراف القرية حتى شاهد امرأة تخض قرب منزلها وعاءً من الحليب لتستخرج منه الزبدة . وكانت المرأة رثّة الثياب ، وفي كل حركة تظهر المزيد من فقرها . فاغتبط البائع المتجول وقال في نفسه : « لقد أصبت في مجيئي إلى هذه القرية التي برّح بها العوز ، فلن أعرض بضاعتي فيها حتى تستنفد . » ورأته الامرأة فسألته : « من أنت ؟

ومن أين أتيت؟ وإلى أين تذهب ؟» فأجابها : « أنا بائع من أكـراد أحمل معي مجموعة من الأقمشة ، فهلاّ اشتريتِ مني بعضها ؟ » فأشاحت المرأة عنه بوجهها وعادت تخض وعاء الحليب وهي تقول : « إذهب من هنا فلدينا ، والحمد لله ، كلّ ما نحتاج إليه في البيت . ربما تجد من هم في حاجة إليك في المنازل الأخرى » فدهش البائع وقال في نفسه : « إذا كان مثل هؤلاء لا يحتاجون إلى بضاعتي ، فما شأن الآخرين » وسريعاً أدار ظهره وكرّ راجعاً إلى بلده .

ويسخر الأكراد من البلهاء ، فيروون القصة التالية :

كان في إحدى القرى « آغا » غنيّ ولكنه أحمق . فادّعى ذات يوم أنه يجب على إمام القرية الذي يدفع له مرتّبه ، أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة عوضاً عن اسم السلطان ! وطلب ذلك إلى الإمام بعد أن وعده بثلاثين غنمة حلوباً مكافأة له . وحلّ يوم الجمعة ، وتوافد أهل القرية إلى الجامع للصلاة وكان من بين المصلين مولى إحدى القرى المجاورة وكان يجهل الاتفاق المعقود بين الآغا والإمام . وعندما حان الوقت لذكر اسم السلطان قال الخطيب بالعربية : « أيها الآغا ، إنك دبٌّ كبير ، مكانك في جهنم وبئس المصير ! » وإذ سمع المولى الغريب هذه الكلمات ، ظن أن الإمام قد أخطأ فصاح : « لا « لا » ، إلاّ أن الإمام حافظ على هدوئه وتابع قوله بالعربية : «أسكتْ اسكتون . الغنم ثلاثون . لك منها عشر ولي عشرون » . ففهم المولى وسكت . وطار جنان الآغا من الفرح ، وطلب إلى رعيانه أن يختاروا أفضل ثلاثين غنمة ويعطوها للامام .

وهناك عدد من النوادر الكردية التي تدور حول بعض القرى أو القبائل . فأهالي القرية الفلانية ، مثلاً ، هم دائماً عرضة لسخرية الناس . وحدث أن جاء مرة بعضهم إلى حكيم قريتهم ليشكوا سوء حالهم بسبب نقصان الملح ، وقالوا له : « إننا نحتاج للحصول على الملح لأن نرسل القوافل إلى المناطق البعيدة ، وفي الطريق تتعب الدواب ، وتخرب حوافرها فتصبح غير صالحة للعمل . فانصحنا ماذا يجب أن نفعل ! » فأجابهم الحكيم قائلاً : « القضية سهلة جداً ، فليزرع كلٌّ منكم في هذا الربيع كمية من الملح في أرضه » . ففعل أهل القرية بما قال . وبعد مدة من الزمن ، ذهب أحدهم إلى الحقل ليشاهد نموّ الملح ، ولما لم يجد له أثراً أخذ يحفر في التربة ففوجىء تحت إحدى الركام الترابية بشيء ما ينتصب وكان ذلك شوكة عقرب فصاح : « هذه ولا ريب نبتة ملح ! ولكن لا بد لي من أن ألحسها لأتأكد من طعمها » . ففعل.وقرصته العقرب في لسانه ، فراح المسكين يصرخ من الألم وركض لتوّه إلى المنزل يروي بلسانه المنتفخ لذويه حكاية نموّ الملح ، وكيف أن الملح النابت هو ملحٌ حاد يقرص اللسان . . .

ويروى أيضاً أن رجال قبيلة « مزوري » كانوا يأنفون من أكل إلية الخروف ، والسبب هو أن اسماعيل باشا والي أماديا استاء من أن المتقدمين في قبيلته كانوا يحملون له خروفاً عوضاً عن أن يجلبوا له هدية أثمن ، كما تنص التقاليد ! فما كان منه إلا أن قدّم لهم غذاءً من « القمح المسلوق » وعليه قطعٌ من لحم الخروف ، وفي وسطه قطعة من الشحم ، وهذا النوع من الطعام لا يليق بمقام

الزعماء . فاستبدّ بهم غضب شديد ، ونشبت معركةٌ بالخناجر بين الضيوف ورجال الباشا ، انتهت بقتل مئة من خدم الباشا وتسعة وعشرين من ضيوفه . ولم ينجُ سوى واحد فقط من زعماء القبيلة ، ولكنه ما إن وصل إلى أهله حتى عنّفوه على جبنه ، فاستلّ خنجره وقتل نفسه !

أعتقد أن هذه الطرائف التي انتقيتها للقارىء لا بد أنها قد أبرزت بعض ملامح الكردي في حياته . إنه قاسٍ ، وشجاع ، ساذج و كريم ، لا يفتقر للذكاء ولا للفطرة الطيبة !

الفصل الخامس

العائلة الكردية : مسكنها ، أزياؤها ، غذاؤها ، طقوسها ، دور المرأة فيها

*

المنزل والقرية والخيمة

يتبدل نوع المنزل الذي يقطنه الكردي بالنسبة للموقع ولشروط المناخ ، فإذا بنا نعثر على البيوت المبنية باللبن أو بالحجارة على مستوى سطح الارض في المناطق التي تعلو ٩٠٠ متر عن سطح البحر كما هي الحال في الهضبة الأرمنية ، أو على ارتفاع ١٠٠٠ متر كما هي الحال في جنوبي جبال طوروس . أما في المرتفعات التي تتراوح بين ١٠٠٠ و ٢٥٠٠ متر فتصبح المنازل تحت الارض . أما في المرتفعات التي تتراوح بين ٢٥٠٠ و ٤٠٠٠ متر ، فلا نعثر إلا على خيام البدو

في فصل الصيف . ويبدو أن بناء المنازل تحت الأرض في أرمينيا لا يتم فقط بالنظر للظروف المناخية ، بل لأن في ذلك ما يسهّل حمايتها ضد الأعداء أيضاً . ويقول « بندر » في وصف مثل هذه القرى : « تشكل القرية بمجموعها سطحاً طينياً بطول أربعين أو خمسين متراً ، حتى ليتعذر على المرء أن يميّز وجود هذه القرية إن لم يكن قد نُبّه إليها . أما في الداخل فهناك تيه من الممرات والغرف المتشابكة التي يعيش فيها البشر ومواشيهم مختلطين عيشة واحدة » .

وتكون المنازل شديدة التلاصق بعضها ببعض في المناطق المعرّضة للخطر . أما في المناطق التي يتعذر الوصول إليها بحكم موقعها ، فإن المنازل تصبح أكثر انفراداً وتباعداً حتى لنعثر على منازل منفصل بعضها عن بعض تماماً . ومنها ما تكون معزولة عن غيرها ، إذ تتعلق بسفوح الجبال الصخرية .

وفي بعض المناطق يحدد عامل الخصب أو القحط تجمّع البيوت أو تفرّقها كما هي الحال في « أردلان » وفي مثل هذه الحال تتزاحم المنازل والقرى فيما بينها في الوديان الخصبة ، فيما تتناثر في الجبال الجرداء أو المشجرة . وقد تكون منازل منطقة « أورمار » أكثر منازل القرى الكردية تطوراً : فهي ذات واجهات من الحجر المنحوت يكون نصفها في الغالب مغروزاً في الجبل . وهي مؤلفة من طابق واحد علوي ، أما القسم السفلي فيُستخدم كزرائب أو مخازن أو مطابخ . وهذه البيوت معتمة ، تحتل الكوى الضيقة فيها مكان النوافذ والشبابيك ، وتتجه واجهاتها نحو الجنوب . وهي لا تصلح للسكن إلا في الصيف ، أما في الشتاء فيخزنون فيها القمح .

أما سقوفها فتتألف من سوق أشجار الحور وترتكز على الجدران دون أي صنعة ، وتتكدّس فوقها الأغصان والأعشاب والوحل ، إلى جانب محدلة لتسوية السطح . وتستخدم السطوح في حاجات كثيرة منها ندف الصوف . وكثيراً ما تُنصب فوقها الخيم في فصل الصيف . والخلاصة ، إن قرى الاكراد في الجبال شديدة الشبه بقرى هضبة أرمينيا العالية ، وكلّها أقرب ما تكون من المغاور المظلمة التي تفتقر للهواء النقي .

ويحل الصيف في هذه الأودية بحرارة شديدة فيرحل السكان إلى المرتفعات حيث يقضون فصل الحر . إلا أن قسماً منهم يبقى في الوديان لحراسة الكروم وسقاية حقول الذرة والأرز والدخان . ويلجأ هؤلاء إلى نصب خيَم عالية يبلغ ارتفاعها أحياناً عشرين متراً ليقضوا فيها لياليهم المحرقة . ولهذه الخيم العالية فوائد عدّة : فهي تقي ساكنيها جراثيم الملاريا والوحوش الضارية ، ويكون الهواء فيها أكثر نقاءً بالإضافة إلى أنها تصلح مراكز للمراقبة .

وتأثيث المنازل الكردية في الداخل ليس متشابهاً في كل الحالات والمناطق . وها نحن نقدّم وصفاً لتجهيز أحد المنازل المتوسطة والشائعة : إنه مؤلف من شقتين أساسيتين ، إحداهما تسمي « كولان » وهي عبارة عن بيت للمؤونة تحفظ فيه المياه والمواد الغذائية وأدوات التنظيف والمطبخ . وتُستعمل الشقة الثانية للسكن ، ويكون في وسطها « التنّور » أو الموقدة . وإلى يمين مدخل البيت مسطبة من الطين على طول الحائط ، تغطيها البسط أو الفرش وتسمى « الدشك » . وفي صدر الغرفة رفّ كبير من ألواح الخشب الموضوعة فوق محامل

خشبية والمغطاة بالحصر . وتوضع فوق هذا الرفّ الفرش والألحفة والمخدّات . أما تحته فتخبّأ أوعية للدرّ والزبدة والقاورمة « اللحم المجفف » والجبنة المكبوسة . وفي العادة يجلس الرجال إلى اليمين فوق الدّشك ، أما النساء والأطفال فيجلسون إلى جانب الموقدة حيث يكون قدر الطعام مركزاً على منصب له ثلاث قوائم . وتمد ربة البيت يدها بالمغرفة إلى القدر وتوزع الطعام على الجميع . وفي أيام الشتاء يُبسط فوق الموقدة لوحٌ خشبي كبير يغطّى بجرام من الصوف ، وينام الجميع تحته .

أما خيم البدو ، فهي خفيفة سهلة النقل . وهذا ما يتلاءم مع حياة الترحّل . ففي الربيع والخريف عندما يكون الطقس رطباً والليالي باردة ، تنصب الخيام على المنحدرات الجنوبية باتجاه الرياح الجافة وتقام المخيمات في أغلب الأحيان عند الأطراف السفلى للمراعي ، وهذا يعني أنه في الصيف والربيع عندما تبدأ حرارة الشمس في تيبيس الأعشاب ، وتتجه المواشي صاعدة نحو مناطق ذوبان الثلج ، في هذه الأثناء تظلّ الخيم قائمة في المناطق الواطئة حيث يوجد المزيد من الحرارة . وبالعكس من ذلك في أيام الخريف فعندما تبدأ القطعان في الهبوط من المرتفعات ، تسبقها المخيمات .

وتشبه خيم الاكراد خيم البدو العرب في الشمال . وتتألف هذه الخيم من شِقق سوداء مصنوعة من نسيج شعر الماعز ، وهي لذلك تسمّى البيوت السوداء . ونسيج شعر الماعز متين جداً ومتماسك بحيث لا يسمح للمطر بالنفاذ من خلاله . أما في داخل الخيمة فإن البسط وأنواع السجّاد تغطي الأرض . ويبلغ أثاث

بعض خيم الأغنياء حدوداً من الترف تدهش الزائر . وطبيعي أن أثاث الخيمة يعكس حالة أصحابها المادية . وكما أن أثاث الخيمة يختلف بالنسبة لحالة أصحابها المادية ، كذلك تختلف مساحاتها . فقد شاهد بعض الرحالة خيماً في منطقة « بايزيد » طولها ٥٠ متراً وعرضها ٢٥ متراً ، كما شاهد رحالة آخرون في شمال منطقة ما بين النهرين خيمة طولها ١٠٠ متر وعرضها ٥٠ متراً . وفي الغالب تكون الخيم الكبيرة مقسمة شققاً ، منها شقة خاصة بالنساء « الحرم » . وحتى في الحرم توجد مقصورة خاصة برب العائلة وزوجاته . ويكون الحرم مليئاً بالسجاد والبسط والطنافس والأدوات المنزلية . وما يجدر أن نذكره دائماً هو أن الخيمة بالنسبة للكردي ليست سوى مسكن صيفي . فإن للأكراد ، حتى في جنوبي جبال طوروس ، منازل شتوية من حجر ولبن .

ازياء الرجال الاكراد

إن الأزياء الكردية مثلها مثل المسكن ، فهي نتيجة طبيعية للوسط الذي يعيش فيه الأكراد .

يقول ديكسون : « يرتدي كردي الهضبة الأرمنية ثوباً ضيقاً ذا أكمام فضفاضة مشدوداً عند الساقين ، ويحتذي جزمة . ولا يكاد الكردي ينزل عن صهوة جواده ، وهو مسلح دائماً بالبندقية وحزام الخرطوش والخنجر . وكان السلطان عبد الحميد قد جنّد حرسه الخاص « الحميدية » من هؤلاء الأكراد ، مقلّداً في ذلك القوقاز الروس . ويكمل الكردي لباسه بقبعة من اللبّاد الأبيض مخروطية الشكل ،

يحيط بها منديلٌ أسود من الكشمير .

وفي جبال كردستان الجنوبية يرتدي الأكراد عوضاً عن الثوب الضيق ثوباً واسعاً أكثر ملاءمة لتسلق الجبال ، وسروالاً ذا ذيل فضفاض من الخلف . أما السترة فقصيرة من القماش الأبيض السميك. وقبعة الرأس عبارة عن لبّادة مخروطية الشكل بيضاء يحيط بها منديل ذو لونين : أبيض وأزرق ، على شكل « عين العصفور » . ويشد الكردي في هذه المنطقة وسطه بحزام ملون ، وينتعل حذاءً خفيفاً من اللباد . أما الخنجر ذو القبضة الفضية فيكمل هذه اللوحة الجميلة ! أما الكردي البدوي فيرتدي ثوباً شبيهاً تماماً بثوب البدوي العربي ، بالإضافة إلى الخنجر الكردي الذي لا يستغني عنه .

والحقيقة أن الزي الكردي للرجال ، بقدر ما هو مرتبط في خطوطه الكبرى بمتطلبات حياتهم ، فإنه ينمّ عن ذوق غزير التعابير. وفيما يلي نماذج من الأزياء التي لا يزال الأكراد يرتدونها منذ القديم حتى اليوم :

« ها هو كردي مديد القامة ، صلب التقاطيع ، يرتدي ثوباً منمقاً بما يتلاءم مع الذوق الكردي. ويبدو أن العمامة التي يلبسها، تكاد لامتدادها تغرق بين ثناياها الفارس والفرس الصغير الذي يمتطيه. وتبرز من بين هذه الكتلة من القماش المتعدد الألوان ، قبّعة مخروطية من اللباد الأبيض . وتبدو المطية النحيلة بهذا الحمل وكأنها مترجرجة على وشك السقوط من الأعياء ، ويتهدّل على جانبيها وشاحٌ متعدد الألوان يلامس طرفي الطريق !

« أما أكراد جنوبي « أورميا » فإنهم يغطون رؤوسهم بشال

من الحرير المخطط بالأحمر والأبيض والأزرق ، معقود بأناقة وفي طيّات كثيرة ، على قلنسوة حمراء . ويمتاز هؤلاء بملامح فرسان القرون الوسطى إلا أن عيونهم السوداء تلمع ببريق عجيب تحت هذه القبعات المزركشة . ويرتدون ثياباً هي عبارة عن صدار واسع ورداء ذي أكمام فضفاضة مزركشة على النمط التركي . وفوق ذلك كله سترة مبطّنة بالفرو . ويتمنطق الأكراد في وسطهم بخنجر وبزوج مسدّسات .وإلى جانب ذلك عدد من أوعية البارود وأمشاط الرصاص . وهم يغطون كل ثيابهم وحوائجهم بعباءة من وبر الجمال بيضاء وسوداء ، أو مخططة بألوان أُخرى » .

ولا حاجة بنا للقول بأن جميع هذه الأثواب الجميلة الملونة مقتصرة على الزعماء . أما الثوب العادي الذي يرتديه أهل كردستان بصورة عامة ،فيتألف من سروال واسع وسترة من الصوف المنسوج في المنزل ، وصدار من اللباد بدون أكمام ، وقبعة مخروطية من اللباد أيضاً .

ازياء النساء الكرديات

كانت الأزياء النسائية الكردية في منأى عن أي تأثير بالأزياء الغربية . ففي الشمال يكون ثوب المرأة بسيطاً ويتألف من قميص طويل ملوّن ، وسروان أحمر . وهي تضع على رأسها عمامة كبيرة. ويقول « ديكسون » إن ثوب المرأة الكردية يشتمل عادة على سروال بشكل كيس وفوقه قميص طويل ملون ، بالإضافة إلى صدرية واسعة .

ويلف نساء الاكراد شعورهن على شكل جدائل يغطينها بقبعة مستديرة محلاّة بحلى زجاجية وتحيط بها محرمة . أما في المناسبات الرسمية ، فيضاف إلى هذا الزي عقدٌ من الفضة فوق الصدر ، وأساور في المعصم ، وبعضهن يُحطن رؤوسهن بسلاسل من الذهب أو الفضة .

أما في جنوب الكردستان ووسطه ، فتصبح ملابس المرأة أكثر تعقيداً . فهنالك العمامة الفضفاضة ، والأقراط المعلقة في الأذنين ، والأساور في المعصمين ، وصفوف من القطع الذهبية المعلّقة على الجبين . ونساء الاكراد لا يعرفن قط الحجاب على وجوههن .

مركز المراة الكردية

يعكس وضع المرأة الكردية مميزات وخصائص الشعب الكردي . ومن المؤكد أن جميع الاشغال المنزلية الشاقة تقوم بها النساء ، فهن يحمّلن الدواب وينزّلن الأحمال عنها ، ويصعدن إلى مواطن القطعان لحلب الغنم . وهنّ يلتقطن الاغصان والاخشاب للتدفئة والطبخ ، ولا يتخلين أثناء عملهن هذا أبداً عن أطفالهن الذين يعلقنهم على ظهورهنّ . وإذا كانت النساء تكسب من هذه الاعمال المرهقة قوةً جسمانية كبرى ، إلا أنهن يفقدن بذلك أنوثتهن ، وسرعان ما تذوي ملامح الجمال في وجوههن . ونساء الزعماء وحدهن – ويطلق عليهن اسم خانم – يستطعن الحفاظ على جمالهن لأن حياتهن هنيئة رغدة لا يقمن فيها بأي عمل شاق . ونساء الاكراد

جميعهن ، مهما تكن طبقتهن ، ومهما بلغن من العمر ، يجدن الفروسية بل ويتحدّين الرجال في امتطاء الخيل كما أنهن لا يترددن في الإقدام على تسلق أخطر الجبال .

وتختلط نساء الاكراد مع الرجال ، ويتحدثن بحرية ، ويعطين رأيهن بصراحة .

يقول سوان : « في كثير من الاحيان كانت ربّة البيت تستقبلني في غياب زوجها وتجلس إليّ وتحادثني بدون هذا الخجل المصطنع الذي عُرف لدى النساء التركيات أو الفارسيات، بل وهي تتناول الطعام مع ضيفها ، وعندما يعود زوجها لا تترك ضيفها بل تنتظر زوجها حتى ينزل عن جواده ويقوده إلى الحظيرة » .

وليس من عادات الاكراد الحدّ من حرية نسائهن ذلك أن هؤلاء النسوة فاضلات مع تأنق وظرف ولباقة . ولا وجود للبغاء بين الاكراد ، بل إن كثيراً من الرذائل المنتشرة في الشرق تكاد تكون مجهولة عندهم. وفتيان الاكراد يعاشرن فتياتهم ، ويتعرفن إليهن جيداً قبل الزواج .بل إن الزواج لا يتم إلا بعد حب متبادل، ذلك أن الاكراد يتركون للعواطف الصادقة مجراها الطبيعي . ويحتوي الأدب الكردي على ديوان شعر لمصباح المكري ، ينشد فيه قصائد غزل عذري بحبيبته « نصرة » التي لم تصبح زوجته أبداً . . كذلك تروي السيدة « بول هنري بوردو » في قصتها الطريفة «انترام ده تريبزوند » ملحمة حب رائعة عاشتها فتاة أميركية ،باعها رجال الدرك إلى كردي . وهذه هي الفتاة الاميركية تروي مغامرتها :

« ماذا كنت بالنسبة لهذا الكردي ؟ أمة ؟ خادمة ؟ ضيفة ؟

لماذا اشتراني ؟ لقد كان في أعماق هذا البدوي جوهر نبيل فطري فهو ضنين بحريته لا يفرّط بأدنى جزء منها . ولم يكن في بيت الكردي حرَم ، فمن أين له هذا الاحترام الذي يكنه للمرأة ، والذي يكاد يكون مجهولاً عند الشعوب الشرقية ؟

« ... لقد أحببت هذا الرجل مع أني لم أكن أعرف عنه شيئاً، بل كنت أجهل حتى لغته وتاريخ شعبه !

« ... وفي الصباح أنهضني من فراشي وأخذني من يدي وراح يدور معي بتؤدة حول النار . وهذه هي العادة لدى الاكراد ، فالفتاة الكردية عندما تتزوج تودع منزل أهلها بهذه الطريقة . وبعد لحظات استدعاني أنا ومربيتي إلى ساحة المنزل حيث كان قد جمع مئة غنمة وخمسة جواميس ، وفرساً . وقال لي : « كان من الواجب أن أقدم لوالدك هذا المهر ، ولكني أعطيه لمربيتك التي رافقتك » . وكان ينظر إلي بفرح ظاهر . بالطبع لم يكن أحد ليرغمه على هذا العمل ، ولكنه كان يريد أن يظهر للجميع أنه لا يحتفظ بي كغريبة لمتعة رخيصة ، إنما هو اتخذ مني زوجة شرعية ويجب على الجميع أن يحترموني . فشعرت بتأثر شديد . وبعد مضي أسبوع ، سمعت وقع أقدام وثغاء حملان على باب الخيمة فخرجت لأرى ما يحدث ، فأخذ يترقبني ، ثم قال : « كان يجب أن تذهبي بعد العرس إلى أهلك ليقدموا لكِ البقرة والفرس والمعزاة ، لتصبح مواليدها ملكاً لكِ ، فهذه هي عادتنا . وأنا لا أريدك أن تكوني أفقر من غيركِ من النسوة ، لذلك فأنا أقدم لك هذه الهدية .

« ومرّت الايام ورزقت طفلاً أخذ ينمو بيننا ، ولكنه لم يتعلم

أية كلمة كردية . لقد كان أقرب إلى الأرمن . و لم يكن والده يتذمر ، ولكنه قال لي ذات يوم : لقنيه على الأقل كلمة بابا ! فرفضت . ودامت السعادة بيننا » .

والطلاق سهل عند الاكراد ، فكثيراً ما يحصل أن يحتدم النقاش فيما بينهم فإذا بهم يقسمون بالطلاق فيما إذا وقع هذا الأمر أو إذا لم يقع . وهم ينفذون أيمانهم ، ولكن سرعان ما يبدأ الندم يضيّق على صدورهم . ويشعر الرجل المطلّق برغبة شديدة في استعادة زوجته ، لكن الشرع يمنع ذلك إلا في حالة واحدة هي أن تتزوج المرأة المطلقة رجلاً آخر يعود فيطلقها . عند ذلك يحق لزوجها الأول أن يعقد عليها زواجاً جديداً . وكثيراً ما نجد في المدن أشخاصاً يمتهنون هذا الزواج العابر مقابل مبلغ معين من المال، فعندما يحدث الطلاق في ساعة غضب ويعض الزوج أصابعه على هذه الخطيئة ، يلجأ إلى هذا الشخص الممتهن ليلغي بواسطه الطلاق. وتنجم عن ذلك ملابسات عدة يتندّر بها الاكراد .

ويلهو الاكراد برقصة الدبكة وهي عبارة عن شبه دائرة يتماسك فيها الاشخاص بأذرعهم ويأخذون بالقفز . والذي يكون بالمقدمة يمسك منديلاً مفتوحاً يلوّح به بإحدى يديه ، وبالثانية يقود حلقة الراقصين .

يقول « مينورسكي » : « في ذات يوم أقام الاكراد على شرفي حفلة رقص شعبي . فما أن ارتفع صوت المزمار مع الطنبور حتى كانت النساء ، وقد لبسن أجمل زينهن ، يختلطن مع الرجال في حلقة الرقص . واستمر الجميع يضربون الارض بأرجلهم ضرباً

جميلًا حتى المساء » .

وهكذا يتضح لنا أن الامرأة الكردية لها شخصيتها المميزة . وليس عجيباً أن تذكر امرأة ما بذكائها أو جمالها . وليس عجيباً أيضاً أن تتزعم امرأة قبيلة ما . ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال أنه عندما احتل الاتراك منطقة « هكاري » كانت امرأة كردية تحكمها .

يقول « مينورسكي » : « ولقد رأينا بأنفسنا في خريف ١٩١٤ « عدلى خانم » الشهيرة ، تحكم بنفسها مقاطعة « السليمانية » التي كان الاتراك قد ولوا عليها زوجها عثمان باشا ، وكان هذا الأخير يتغيب بصورة مستمرة فتتولى زوجته الحكم والادارة مكانه » .

وقد عاش « سوان » بعض الوقت متنكراً بثياب تاجر إيراني في بلاط « عدلى خانم » ، فوصف بشكل طريف كيف كانت تحكم رعاياها وتوجههم دون أن تفرط إطلاقاً بشؤونها كامرأة صالحة وكربّة بيت ، فتنصرف إلى كل ذلك في انتظام . وعندما تبدل الحكم في تركيا أرسل والٍ تركي إلى « السليمانية » فاعتزلت عدلى خانم الحكم .

ويحب الاكراد ، بصورة عامة أولادهم . وإننا لنرى قرب كل رئيس قبيلة أو زعيم ، طفلًا مختاراً يكون عاشر أو حادي عشر أولاده . ويذكر « شرف نامه » أنه كان لفؤاد بك سبعون ولداً . ومثل هذه الحالة ليست شاذة ، إذ ليس من النادر أن تعثر في الجبال على شيخ جليل يحمل بين يديه ابنه الطفل . ويذكر « مينورسكي » في هذا المجال ، إذ كان في إحدى رحلاته إلى الكردستان ووصلت القافلة إلى طريق ضيّق يشرف على هاوية :

« وفجأة ظهر فوقنا شخصان ، الأول كردي فقير كجميع فلاحي تلك المنطقة ، وهو يحمل بين يديه طفلاً في أقماط بالية ، وكان الثاني زوجته التي ظهرت عليها إمارات الحزن وهي تتبع زوجها وتحمل خنجره . وكان الطفل قد سقط فأغمي عليه ، وهما ذاهبان الآن لعرضه على أحد المنجمين . وما أن عرفت الامرأة أننا أوربيون ، حتى أخذت تمسك بزمام الخيل وتستعطفنا طالبة منّا أن نشفي ابنها ، ذلك أن الأكراد يعتقدون أن جميع الاوروبيين أطباء . يا للتناقض !

لقد تذكرت في تلك اللحظة ازدراء الأكراد للموت وللخطر ، إذ خطرت في ذهني أقوال أحد زعمائهم : « ليس من عار على المرء إلا أن يموت فوق فراشه ! أما إذا أصابتني رصاصة ، وحملني القوم إلى المنزل ، فالجميع يفرحون لأنني أموت ميتة شريفة » . قد تكون نساء الأكراد مؤمنات بهذه الفلسفة القاسية . أما الامرأة التي شاهدتها ذلك اليوم فإنها كانت تعلن بشكل لا يقبل الجدل أن في قلبها أوتاراً أكثر رقة من كلمات ذلك الزعيم » .

ولا بد لنا من القول أن الوسائل الصحية معدومة تقريباً لدى الأكراد . غير أن الأمراض الخطرة تكاد تكون معدومة لدى البدو منهم . وتقتصر أوجه التطبيب لديهم على أن يوضع حجاب في مكان الألم ، أو أن يبتلع المريض ورقة كُتبت عليها إحدى الطلاسم . وقد يعمدون إلى استعمال بعض الحشائش ، إلا أن هذه الوصفة الأخيرة لا تزال بدائية .

ونذكر بالمناسبة ملاحظة أحدهم أن بعض القبائل تلجأ لشفاء

الجروح إلى طريقة طريفة ، إذ تلف الجريح بجلد طازج وتخيطه حوله ، ويسقط الجلد مع الزمن عن جسم المريض . وتعتقد القبائل أن أخطر الجروح تشفى بهذا الأسلوب .

كل ذلك يوضح لنا الثقة الكاملة التي يضعها الاكراد في الطبيب أو في أي أوروبي ، وحتى لو لم يتمكن هذا أن يقدم مساعدة للمريض سوى قطعة سكر وفوقها بعض الكحول . فإن المريض ، سرعان ما يعلن عند ذاك أن حالته قد تحسنت . ويكثر لدى الاكراد داء « العصبي » التي يتأتى من الخيم التي يقطنونها والتي لا تتمكن في الغالب من حمايتهم من البرد . ثم هناك الملاريا التي غالباً ما تكثر في المناطق الكردية . والوسيلة الوحيدة لتحاشي هذا المرض هي سكنى الاكواخ العالية . ومهما يكن من أمر ، فإن أطفال الاكراد إذ يُتركون منذ الصغر بدون رعاية ، يكتسبون مع الزمن صلابة بدنية ومناعة ضد الامراض . لذلك فإن المعمرين ما فوق المئة يكثر عددهم في القبائل الكردية .

وقبل أن ننهي الحديث عن الأسرة الكردية لا بد لنا من القول إن الاكراد نادراً ما يعدّدون زوجاتهم ، فالأسرة الكردية الاعتيادية لا يزيد عدد أفرادها عن الرجل والمرأة والأولاد . أما الزعماء الاكراد فيحق لهم الاكثار من الزوجات حتى يبلغن عدداً لا متناهياً .

كيف ينظر الاكراد الى نسائهم

لما كنا قد تركنا المجال رحباً للأكراد كي يصفوا أنفسهم

بأنفسهم ، لذلك فإننا نترك الكلام هنا للدكتور « كاموران علي بدير خان » شقيق الامبراطورة ثريا ،الذي نشر سلسلة من الابحاث حول الموضوع في جريدة « الأوريان » ببيروت . وبالطبع فإن الكاتب المذكور يحدثنا عن المرأة الكردية المترفة التي تعيش في وسط النبلاء ، لا عن نساء الشعب الفقيرات .

يبدأ الكاتب بالإشارة إلى ناحية هامة يعتبرها ميزة في حياة المرأة الكردية ، ألا وهي عدم وجود الحريم — أي المكان الخاص بالنساء — في الحياة الكردية ، الأمر الذي يطلق الحرية للمرأة ويفسح لها المجال لأن تكون شخصية نسائية صالحة .

فالكردي لا يفكر قط بالتضييق على المرأة ، فهو يعتبرها دائماً أهلاً لذات الثقة وذات الحقوق والمسؤوليات التي يتمتع بها الرجل . وهذا يعني من الناحية النفسية ان المرأة مزودة بذات الفضائل التي يتزود بها الرجل .

ويستعرض الكاتب بعد ذلك حياة المرأة الكردية في جميع مراحلها : تتولى الأم تربية ابنتها فتعلمها الأغاني الوطنية ، والرقص الشعبي والفروسية ، والكتابة ، تماماً كما تعلّم إخوتها الذكور . وتعلمها فوق ذلك الاعمال اليدوية . وتختلط الفتاة مع الرجال فتتعرف بذلك على زوجها في المستقبل . وما تجدر الإشارة إليه هو أن من عادات الاكراد أن يطلق على الولد اسم والدته التي لم يتمكن زوجها من معادلتها في جرأتها وقدرتها على الحرب .ويعطي الكاتب دليلًا على ذلك أن الامير « كاموران » ابن رئيس قبلة « رمان » يحمل اسم والدته « برهان » لا اسم والده .

وغالبية الشعر الوجداني الكردي هو من وحي المرأة ، بل إن جزءاً كبيراً من الأغاني والأناشيد هي من نظم النساء .

وفي معظم الأحيان تقوم المرأة الكردية مقام زوجها الراحل . ويذكر الكاتب اثنتين من النساء لبث اسمهما عزيزاً على الشعب في منطقة « بيشدر » هما « برا حليم » و « مها نوكيز » اللتان اشتهرتا بمقاومتهما للاحتلال العثماني .

وينهي الكاتب ملاحظاته بالإشارة إلى أن المرأة الكردية هي عامل أساسي في النهضة الكردية المقبلة من جميع نواحيها .

ولننه هذا الدفاع البليغ عن المرأة الكردية بأقصوصة صغيرة مستقاة من مجموعة الأقاصيص الشعبية الكردية :

« سأل اسماعيل باشا آخر الزعماء الحميدين عيسو العاقل : من هي أفضل امرأة ؟ فأجابه جواباً غير واضح لم يفهم منه ما يريد . ولما استعصى على اسماعيل باشا فهم ذلك ، اقترح عليه عيسو أن يقوما بجولة معاً . فتنكّرا بزيّ الدراويش ومضيا . وكان أول منزل دخلاه منزل رجلٍ هو أصغر إخوانه الثلاثة ، فطلبا منه أن يضيفهما ، فرحب بهما . وعندما جلسا ، لاحظا أن ذقن مضيفهما بيضاء ، وأن قامته مقوسة . فسألاه بدهشة عن سبب حاله وهو لا يزال شاباً في الأربعين من العمر ، فأجابهما قائلًا : غداً تذهبان إلى منزل أخي الاكبر فتدركان الحقيقة . ثم نادى رب البيت زوجته ، فصرخت هذه فيه تقول : ماذا تريد مني أيها العنكبوت الأحمر ، يا سمّ الأفاعي ؟ ! قال لها : يجب أن تهيئي طعاماً للضيفين الدرويشين . فردت عليه بصياح : ماذا تريدني أن أهيء ؟ ألا تعلم أن منزلك

خراب ، لا يحتوي على شيء ؟! وهكذا كانت المرأة تجيب على كل طلب من زوجها بالصراخ والألفاظ النابية . وعندما حان وقت النوم ، قال الزوج : لدينا فراشان وغطاءان ، فلنأخذ أنا وأنت فراشاً وغطاءً ، ونعطي الباقي لضيفينا . فجاوبته الزوجة : فقدت بصرك ! ألا تعلم أني لا أسمح لك أن تلامسني ؟ خذ أنت غطاء وأنا آخذ الآخر . وهكذا أمضى الباشا ومرافقه عيسو ليلة نكراء . وعند الصباح ذهبا الى منزل الأخ الأوسط ، فوجدا أن ذقن هذا شمطاء ، فسأله الباشا : كم عمرك ؟ أجاب : إني أناهز الستين . فاعترضه الباشا قائلًا : « ولكن في مثل هذه السن تصبح الذقن بيضاء تماماً ، فلماذا تشذ ذقنك ؟ فأجاب المضيف : أمضيا الليلة عندي ، وفي الغد تذهبان إلى منزل أخي الاكبر فتعرفان السبب . فقبلا . وكانت ربة المنزل تلبي رغبة زوجها تارة ، وتارة تتجاهل طلباته . مرّة تظهر مهذبة ، وأخرى فظّة . وعند الصباح ذهبا إلى منزل الاخ البكر ، فوجدا أن لحيته سوداء فاحمة على الرغم من بلوغه الثمانين ، ولما استوضحاه السبب قال لهما : لا تعجبا أيها الدرويشان ، أمكثا عندي فتعرفا السبب . وكان هذا الاخ البكر أفقر من أخويه ، غير أن زوجته كانت تطيعه طاعة عمياء ، فما أن يناديها « يا امرأة » حتى تجيبه « أجل ، أنا أمتُك فماذا تطلب ؟ » ولما سألها إذا كان في المنزل ما يصلح للطعام ، أجابت : كيف لا ؟ إن لدينا كل شيء ، بيضاً وأرزاً وزبدة ، وعسلًا ! .. وبالفعل فقد هيأت وجبة طعام تليق ببيت الباشا نفسه . وحان وقت النوم ، فسأل الزوج : هل لدينا أسرّة ؟ فردت قائلة : نحن تحت ظلّك ،

ولدينا كل ما نحتاجه ، ومنزلنا مثل منزل الباشا . ثم خرجت إلى بيوت الجيران وعادت بكل ما يلزم للنوم . وقال المضيف لزوجته : يا امرأة ، هذا المساء لدينا ضيوف ، ولا يليق أن ننام مع بعضنا ، فلنفترق . فأجابته : « كلا ! إن الدرويشين أهل لنا ، وأنت تعرف أني أفضل الموت على أن أنام بعيدة عنك » ولما جاء الصباح ، سأل الباشا مضيفه عن « أفضل امرأة » فقال له : إنها بالطبع امرأتي . فهي تعمل المستحيل لكي تريحني من كل همّ ، وتتموّن من كل ما نحتاج إليه فلا نخجل تجاه الضيوف . وإذا ما نقصنا شيء استعارته من الجيران . إنها تحبني ، والهرم لا يمكن أن يدخل حياتنا . وعند ذلك أدرك الباشا معنى كلام عيسو ، وأطراه وكافأه ، كما أنه أسبغ الثراء على الاخ البكر ، وحمل الأوسط على الطلاق من زوجته ، وزوّج الاخ الاصغر من امرأة ثانية .

ويتضح للقارىء من كل ما سبق ذكره أن الأسرة الكردية أقرب إلى المفهوم الغربي من الأسر التركية والايرانية ، وذلك لما تتمتع به المرأة الكردية من مكانة . فعدا عن أنه يندر تعدّد الزوجات في هذه الأسَر ، فإن المرأة تتولى إدارة المنزل والخدم ، وهي التي توزع الطعام على أفراد الأسرة ، ولا يمكن لأحد أن يبدأ الأكل بدون إذنها . وفي غياب الرجل تستقبل هي الزوّار وتضيفهم ، وتتحدث بحرية إليهم ، ولا تخبيء وجهها كما تفعل غيرها من النساء في بعض بلدان الشرق .

رب العائلة

هناك صفة رئيسية تتميز بها الاسرة الكردية ، وهي أن الزواج يتم نتيجة الحب المتبادل ، إذ أن العروسين يتعارفان جيداً وهما

خطيبان قبل الزواج ، بينما يتم الزواج لدى معظم الأسَر الشرقية الاخرى بواسطة شخص ثالث . وعدا ذلك ، فإن الاب هو رب الاسرة الاوحد الذي يملك بيده كل أمر ، فله المكان الاول في الأسرة ولا يحق لأفراد العائلة أن يتحادثوا بحضوره إلا إذا أذن لهم ، وهم يلبثون وقوفاً بين يديه .

ويأتي بعد رب العائلة مباشرة ابنه البكر . ويكنّ الكردي لوريثه محبة خاصة ، وهذا ما يفسر لنا السبب الذي من أجله يتبادل الاكراد فيما بينهم أثناء المفاوضات ، أبناءهم البكور كرهائن . ورهينة الإبن البكر أفضل وأضمن بكثير من أي قسَم . والقبيلة قد تقدم على خرق جميع تعهداتها إذا كان رئيسها مرتهناً ، ما دام وريثه موجوداً ، ولكنها تتقيد بعهودها إذا ما ارتُهن الابن البكر لأن ذلك يعرضها إلى حرب أهلية بعد موت الزعيم .

وتتقيد الأسرة الكردية تقيداً مطلقاً بالتسلسل الرتبي لأفرادها . وإننا لنشاهد في كل لحظة أمثلة وشواهد كثيرة على ذلك . فهذا الحاج نجم الدين بحاجة لجمرة نار يولع بها شُبُكه — غليونه — فيسرع ابنه البكر كخادم مطيع ويحمل له طلبه ويقدمه له بكل احترام . كذلك إذا كلف الإبن البكر أخاه الأصغر بحاجة ما فإن هذا الأخير يلبي طلبه بذات الاحترام والطاعة . وهكذا يجري التسلسل ..

ولا يحق لفتيان الاكراد أن يجلسوا بحضرة الكبار ، بل يجب أن يبقوا وقوفاً لخدمتهم ، فيحضروا لهم القهوة والشُبُك . وإذا ما دخل أحد الفتيان إلى الخيمة فإنه يقبّل أيدي جميع الذين

يكبرونه سناً . وهؤلاء بالمقابل يقبّلون جبينه . أما إذا دخل الخيمة رجل مسن فإنه يكتفي بأن يصافح يد الزعيم، ويكتفي كلٌّ منهما بأن يمس جبينه بيده علامة الاحترام .

ويرث الاولاد والدهم بعد موته ، أما إذا لم يكن له أولاد فإن الميراث ينتقل إلى أخيه أو إلى أبناء أخيه . ويرث الذكر ضعف الأنثى . وإذا توفيت المرأة ولم يكن لها أولاد فإن قسماً من ميراثها يذهب إلى زوجها ، والقسم الثاني إلى أهلها ، أي إلى إخوتها وأخواتها ، وأولادهم . أما إذا كان للمرأة المتوفاة أولاد ، فإن زوجها يرث الربع ، ويرث الاولاد الباقي . أما المرأة فإذا توفي زوجها ولم يكن لها أولاد فترث الربع ، وإذا كان للرجل زوجتان فإنهما تتقاسمان هذا الربع . وإذا كان لها أولاد فلا تنال إلا الثمن والباقي للأولاد . ويعين ولياً على الأولاد الصغار أخوهم البكر أو عمّهم .

وتتمسك الأسر الكردية بنسبها ، ذلك أن الأسر القديمة تعلق أهمية كبرى على عراقتها وتحافظ على تسلسل نسبها . وليس أحب إلى نفس الكردي من أن تحدثه بودٍّ عن أجداده . وأن تذكر أمامه بعض أسماء أسلافه ، فإذا به يأخذ في تعداد بضعة أجيال ، ويحدثك عن بطولات أجداده في قتال الأتراك والفرس . ولا يطمئن الكردي إلا إذا حفظ أكثر ما يمكن حفظه من أسماء آبائه الأولين وأنساب ذويه .

يقول « مينورسكي » : « لقد كان من دواعي غبطتي أني تعرفت على حمدي بك بابان الذي خصص عدداً كبيراً من سنيّ حياته في

البحث عن جذور نسبه في مصادر التاريخ العربي والتركي والفارسي، التي أتت على ذكر بعض أفراد أسرته . وإني لا أزال أحتفظ بشجرة أسرته كوثيقة جدّ ثمينة لتفهم العقلية الكردية . ثم إن هذا الاحساس القوي بالروابط العائلية ،والتفاخر بالأسرة ،ليس مقتصراً على النبلاء من الاكراد ، بل إن كل كردي يعلم تماماً إلى أية أسرة ينتمي ويعرف تسلسل هذه الاسرة . وكثيراً ما نعثر في كردستان على أشخاص أميين يحفظون غيباً أسماء أجداد لهم يمتدّ تاريخهم إلى خمسة عشر جيلاً مضت » .

الطقوس العائلية

ندرس في المقاطع التالية الطقوس العائلية التي تسجل مختلف مراحل الحياة الكردية [1] التي تبدأ بالولادة :

الـــــولادة

تتم عملية الوضع فوق حصير على الارض . ويكون رب البيت قد غادر بيته وهو لا يعود إليه إلا بعد الوضع بيوم أو يومين . ويساعد المرأة في ولادتها نساء لهن خبرة .ويتقاضين عن عملهن أجرة معينة . ويكون « الملا » قد كتب حجاباً ليتم الوضع بسهولة وسلامة ، ويكتب بعد الوضع حجاباً آخر ليحفظ الأم وطفلها من

(١) اننا نستعين بدراسة « تشورسين » عن أكراد أذربيجان في الاتحاد السوفياتي .

كل شر . ويكافأ « الملا » على ذلك ببقرة أو نعجة .

وإذا ما تعثرت الولادة يأخذ النسوة يشددن أذني المرأة ، وهن ينادينها باسمها ، ويصرخن بأذنيها ، ويتوسلن إليها أن تستعيد رشدها ، ويقلن لها إن أخاها أو أحد الضيوف قد وصل . وإذا ما اغمي عليها تطلق العيارات النارية لتتيقظ . وفي بعض الاحيان يذهب بعضهم إلى الساقية ويقطع الماء بالمدية ، وفي ذلك رمز سحري للدلالة على قطع القيود التي تكبل المرأة .

وفي المعتقدات الكردية الشعبية أن المرأة عند وضعها يهاجمها مخلوق سحري يدعى « هلاناسي » وهو عبارة عن امرأة فارعة القوام ، نحيلة ، مخيفة ، لها ثديان طويلان تحملهما على كتفيها ، وهذه المرأة الساحرة تنتزع قلب المرأة عند ولادتها وتأخذه إلى الساقية لتغسله في الماء . وهي إذا ما تمكنت من ذلك ، ماتت المرأة . ولكي يطردوا الساحرة ، يأخذون بإطلاق النار حول المرأة أثناء ولادتها ، ويلحقون بالساحرة إلى الساقية يقطعون مياهها بالسكين ، ليمنعوها من غسل قلب الامرأة .

وإذا مات الطفل عند ولادته يلجأ الأهل إلى « الملا » فيفسر لهم هذا السبب ، ويعود في الغالب إلى أن إحدى النسوة قد دخلت المنزل وهي تحمل حجاباً مزيفاً ، فإذا ما كافأوه بمبلغ حسن ، صنع لهم حجاباً جديداً من شأنه أن يطرد الشر عن الاولاد العتيدين . وكي تحافظ الاسرة الكردية على طفلها الجديد ، فإنها تمنع جميع النساء اللواتي عُرف عنهن أنهن يحملن أحجبة مزيفة ، من الدخول إلى المنزل . وإذا ما أصيب الطفل بخوف ما ، يطفىء أهله جمرة

مشتعلة في وعاء ماء ويقدمونه له ليشرب منه .

وتختار الام اسماً لطفلها بعد أن تستشير النساء اللواتي ساعدنها أثناء الوضع . وفي كثير من الأحيان يطمع « الملا » بالحصول على أكثر ما يستطيع من أهل الطفل ، فيذهب إلى كتبه ويستشيرها ، ثم يعلم الأهل أنهم إذا ما أطلقوا على الطفل اسماً غير الذي ينتقيه ، فإنه لا بدّ أن يموت .فيتسارع الأهل إلى إغداق الهدايا على « الملا » مكافأة له .

وتتم عملية الختان عندما يصبح بمقدور الأهل أن يقدموا وجبة طعام لائقة . ويتعمد الأهل أن ينتقوا لطفلهم « إشبيناً » غنياً ، ثم يوجه رب الأسرة الدعوات . ويُعتبر رفض مثل هذه الدعوة إهانة كبرى . ويُحضر الاشبين معه خروفين أو ثلاثة ، ويذبح والد الطفل العدد ذاته من الخرفان ، وتقام وليمة يحضرها شخص واحد عن كل أسرة . ثم يذهب المدعوون كلهم ويبقى أقارب الاشبين والطفل وتتم عند ذلك عملية الختان ، ويتولاها حلاق المنطقة . وبعد ثلاثة أو أربعة أيام يأتي الاشبين ليطمئن إلى صحة الطفل ، ويحمل معه قدر طعام ورغيف خبز كبيراً ، وحليباً وعسلاً وبيضاً وزبدة . وعندما يعيد أهل الطفل القدر للاشبين يرفقونها بقطعة قماش أو بسجادة ، أو يرسلون له بقرة . ومهما يكن من أمر فلا يجوز إطلاقاً إعادة القدر خالية .

وترضع الام طفلها لمدة سنتين أو ثلاث ، ويُبذل للصبي من العناية والحنوّ أكثر مما يُبذل للفتاة.وإذا لم تلد المرأة سوى البنات، ينظر الناس إليها بإشفاق ، وتتعرض في البيت إلى التوبيخ

والتأنيب .

وكي يحافظ الاهل على أولادهم من« العين الشريرة » ، يحيطونهم بالتعاويذ والحجب . ومن الحجب الشائعة الاستعمال أن توضع تحت سرير الطفل قطعة خبز ، وفي الليل عندما يُخرج أحدهم طفله خارج المنزل يضع على صدره أيضاً قطعة خبز . والخبز في اعتقادهم من شأنه أن يخيف الشيطان والارواح الشريرة .

لقد وصفنا حتى الآن الطقوس المتبعة لدى أكراد « أذربيجان» السوفياتية ، وتختلف هذه الطقوس بعض الاختلاف لدى أكراد كردستان الوسطى ، حيث عشتُ مدة من الزمن وخبرت الحياة هناك .

عندما تقترب ساعة الولادة يتجمع الجيران في منزل المرأة التي تلد ، وكلما كانت هذه أرفع مرتبة ، ازداد عدد مساعداتها . إلا أن وجود « الداية » اضطراري ، فهي التي تقوم بالعمل الاساسي بينما يلبث باقي النسوة خلفها لمدّ يد المعونة لها . وفي أغلب الاحيان تتم عملية الولادة وقوفاً ، وأحياناً أخرى يعلق حبل في السقف لتتمسك به الإمرأة الوالدة . وعندما يظهر الطفل يوضع على فم الامرأة قنينة ، أو أي إناء آخر له عنق دقيق لتنفخ فيه وتتم عملية ولادتها . ثم تتقدم « الداية » وتقطع « الصرة » بعيداً ، بينما الأعين تترقب المكان الذي ستقع فيه ، فإن هي سقطت على سلاح ما فهذا يعني أن الطفل سيصبح محارباً شجاعاً ، أما إذا وقعت فوق قدر طعام فهذه دلالة على أن الطفل سيكون أكولاً . ويُحتفظ بالمولود لستة أيام في الأقماط ، وفي هذه الفترة لا يحق للداية أو للنسوة

اللواتي شهدن معها عملية الولادة ، أن يغادرن المنزل ، خصوصاً في الليل ، أو أن يحملن معهن الأغطية والأدوات التي استعملنها أثناء الولادة . وإذا ما تغيب هؤلاء النسوة في النهار اضطراراً فيجب عليهن أن يعدن إلى المنزل عند هبوط الليل . وإذا لم يفعلن فهناك خطر كبير من أن يتمكن الروح الشرير من قتل المولود أو أمه . وللسبب ذاته تبقى الأنوار مضاءة طيلة الليل ، ويتناوب أهل البيت على حراسته ليمنعوا الروح الشرير من الدخول إليه . وهناك تقليد آخر ينص على أن تعلـّق في المنزل الذي تمت فيه الولادة قطعة من ثوب أحد الشيوخ الثلاثة : الشيخ جمال سواري ، والشيخ فخري بروجي ، والشيخ بابا بابيكي ، الذين اشتهر عنهم أنهم تمكنوا من القبض على الروح الشرير وأخذوا منه عهداً بأن لا يصيب أولادهم بأذى . ويطلق على الاربعين يوماً التي تلي الولادة اسم « زيستاني » أي فترة استراحة الأم ، وفي أثناءها تتلقى الام الهدايا وهي عبارة عن قطع من الحلوى مصنوعة بالزبدة والجوز .

الـزواج

وبعد الولادة ننتقل إلى طقوس الزواج في أذربيجان .

كانت السن القانونية لزواج الفتيان هي الخامسة عشرة ــ هذا قبل أن تبدله القوانين السوفياتية . أما الفتيات فسنّهن القانونية هي التاسعة أو العاشرة . ويتم الزواج في أغلب الاحيان بين فتيان وفتيات القبيلة الواحدة . أما من يتزوج فتاة غريبة عن قبيلته

فيؤاخذ على فعلته . وقد جرت تقاليد الماضي على أن تُخطب الفتاة وهي بعد في الأقماط . وتتم الخطبة بأن يعقد على رأسها بمنديل علـّقت عليه قطع النقود . وفي كل عام يحمل الخطيب بمناسبة عيد الضحية ، خروفاً إلى خطيبته وقطعة قماش .

وعند إتمام عقد الزواج يدفع العريس لوالد عروسه المهر ، وهو بلغة الاكراد : بشتيك . ويتكون المهر من مبلغ من المال يتراوح بين ثلاثين وخمسين روبلاً ، وبقرة ، وبعض الاغنام . وبالمقابل فإن والد العروس يقدم لصهره جميع الأدوات اللازمة للمنزل الجديد . وقد جرت العادة أن يتألف هذا الجهاز من سجادة وفرشة كاملة ، وقدر كبيرة ... وبالإضافة إلى كل ذلك يقدم والد العروس لابنته فرساً أو بقرة . وتعتبر التقاليد الكردية أن هذا الجهاز هو الثروة الوحيدة التي تمتلكها المرأة الكردية .

ونلاحظ هنا على الهامش أن مهر العروس عند بعض القبائل الكردية البدوية قد يبلغ أحياناً أرقاماً عالية جداً .

ولما كان العرس يضطر الاهل إلى نفقات باهظة ، فقد جرت العادة على أن يمد الاقارب يدهم بالمعونة : فهذا يقدم خروفاً ، وذاك بعض الحبوب ، والآخر يقدم مبلغاً من المال . وهناك تقليد آخر يدعى « كرداشليك » أي الأخوة ، وهو أن يتعاهد إثنان على أن يساعد كلٌ منهما الآخر عند زواجه . وبالطبع فإن هذا التعاهد لا يتم إلا بعد استشارة الاهل . ويترتب على الواحد أن يقدم كل ما

---

(١) يمتنع أهالي قبيلة « بيلباس » عن تزويج فتياتهم خارج قبيلتهم ، الا أن حوادث الخطف كثيرة بين فتيات هذه القبيلة .

يلزم لوليمة العرس كالخرفان والبقر الخ .. وبعد العرس يقوم مع أسرته بزيارة العريس الجديد ويحمل له مختلف الهدايا والمنتجات . وبالمقابل فإن عريس اليوم يقوم بذات الواجبات تجاه عريس الغد .

ويتوجب أيضاً على كل من المتعاهدين أن يحرس غرفة الآخر في الليلة الاولى من زواجه . فإذا لم تثبت عذرية العروس ذهب واستدعى والدها ليسترجعها إلى بيته . أما إذا ثبتت العذرية فتستدعى والدتا العريس والعروس لتطلعا على الإثباتات المادية [1] . ونذكر بهذه المناسبة أن آراء جميع الرحالة الاجانب تجمع على الإشادة بأخلاق الامرأة الكردية . واللغة الكردية لا تحتوي على لفظة البغاء . ولا أجد في جميع مذكراتي عن الحياة الكردية سوى واقعة خيانة زوجية واحدة . فقد وقعت « بريزاد » الحسناء زوجة الامير زين الدين ، بحب شاعر اسمه « إيزو » فما كان من الامير إلا أن قتل إيزو ، وعندئذٍ وضعت « بريزاد » السم لزوجها الامير ثم سممت نفسها .

وتنص التقاليد على أن يقوم أصدقاء العريس بمواكبة العروس من بيت أهلها إلى منزل العريس . ولكن أهل العروس يغلقون الباب في وجوههم ، فيضطر الكرداش — صديق العريس — عند ذاك أن يدفع جزية لصديقات العروس . ثم ترفض الماشطة أن تلبس العروس ثيابها فيدفع لها « الكرداش » ثمن أتعابها . وعندما يصل موكب العروس إلى منزل العريس يهب الشباب كي يمنعوها من الدخول ، فيدفع « الكرداش » مبلغاً من المال ، ويمرّ

(١) هذه العادة كانت مألوفة في بعض المناطق اللبنانية وغيرها من مناطق البلدان العربية حتى أوائل هذا القرن ـ المعرب .

الموكب .وتكون العروس ممتطية صهوة حصان ، ويتقدم موكبها عازفو المزمار والطبول . وتقضي التقاليد أن يغطى وجه العروس في هذه الرحلة بمنديل شفّاف أحمر وذلك لكي تكون طليعة أيامها العائلية حمراء : أي سعيدة .

ويقف الجواد الذي تمتطيه العروس في ساحة دار العريس ، ولا تنزل عنه حتى يقدم لها والد العريس هدية ، وتكون في الغالب بقرة أو حصاناً . عندئذٍ تترجل العروس وتقف عند عتبة البيت ، فإذا بامرأة من قريبات العريس تلقي عند أقدامها قطعاً من الخبز على شكل كعك ، فتتقدم العروس وهي تحيي الجميع وتلتقط قطع الخبز . ! وتقضي التقاليد أن تقبّل العروس العتبة فيما هي تجتازها ، وما إن تصبح في الداخل حتى تأخذ النسوة من أقارب العريس بيديها ويدوّرنها حول التنّور الموقد المحفور في وسط البيت ، وهن يرددن على مسامعها : « لقد أخذناكِ من بيت أهلك ، ويجب عليك أن تخدمي هذا المنزل حتى آخر لحظة من حياتك » .

ثم تجلس العروس في مكان أُعد لها من قبل بزاوية المنزل ويكون مغلفاً بقماش أحمر ، وتحيط بها فتيات من أقاربها وأقارب زوجها . وتلبث متكئة على المساند في وضعها هذا طيلة احتفالات العرس التي تستمر يومين أو ثلاثة . ولا يحق لأحد في هذه الأثناء أن يراها سوى أقارب زوجها ، وحتى عمّها ، والد زوجها ، لا يتمكن من مشاهدتها قبل أن يقدم لها هدية تكون خروفاً أو نعجة أو إناءً فضياً .

ولإخراج العروس من مجلسها هذا بعد انتهاء الاحتفالات ، لا

بد أيضاً من بعض الشكليات : يدعو والد العريس أهله وأهل العروس إلى وليمة يقف أثناءها والد العروس أو أحد أقاربها ويعلن أنه يجب العمل على إخراج العروس من زاويتها ، ولا يتم ذلك إلا بتقديم الهدايا لها . وعند ذلك يأخذ كلٌ من الحاضرين بتقديم هدية تتناسب مع وضعه المادي . وتتقدم إحدى النساء وتحمل جميع الهدايا إلى العروس في مخبأها . وترفع هذه الحجاب لتخرج ،وتتقدم فتقبل يد الجميع . وكلٌ بدوره ينفحها بعض المال . واعتباراً من هذا الاحتفال يحق للعروس أن تتجول في البيت ، على أن يبقى المنديل الاحمر على وجهها .

وبعد مضي أسبوع تقريباً من خروج العروس من مخبأها يدعوها والدها مع صديقاتها ويدعو زوجها مع أهله إلى وليمةصغيرة. وتمكث عند أهلها يومين أو ثلاثة ، وقبل أن تغادرهم يمنحها والدها هدية ، ويدعى هذا التقليد : « افتتاح الطريق إلى بيت الوالد » .

ويأخذ الاقارب بدعوة العروس إلى ولائم متتابعة ويقدمون لها الهدايا ،لكي تتمكن فيما بعد من التردد على منازلهم .فإذا حدث ولم يفعل أحدهم ذلك ، فلن تتمكن قوة في العالم من حمل هذه العروس فيما بعد على زيارة منزله .

وهكذا نرى أن حياة الكنّة ليست صعبة في بيت زوجها ، بل بالعكس فإن أهل العريس يحرصون في الايام الاولى على أن يحضوها كل عناية ، ويغذونها جيداً لتقوى . وتستمر هذه المعاملة حتى تلد طفلها البكر . وإذا كانت المرأة الكردية تُعتبر قبل أول ولادة ، زائرة ، فإنها تصبح بعد ذلك فرداً من أهل البيت وتعامَل

على قدم المساواة مع جميع نساء البيت . غير أنه من واجبات الكنّة الجديدة أن تغسل أقدام جميع من يكبرها سناً في البيت ، وحتى أقدام الضيوف !

والمرأة الكردية شأنها شأن نساء كثير من الشعوب ، لا تنادي زوجها وأعضاء الأسرة الذين يكبرونها سناً ، بأسمائهم . فهي تخاطب زوجها بقولها : « إيه ! » أو « أدا » أي « أنت » . وتنادي والدة زوجها « يا خالة » ووالد زوجها « عمّي » ، وشقيق زوجها البكر « يا أخ » . أما صغار الأسرة فتناديهم بأسمائهم . والزوج من جهته لا ينادي زوجته باسمها ، بل يقول لها : « يا فتاة » .

وتمنع التقاليد الكردية الزواج بين العم وابنة أخيه ، وبين العمة وابن أختها أو أخيها ، إلا أنه يسمح بالزواج ما بين أولاد العم وأولاد الخالات . وأعظم قسَم يمكن أن يؤديه الفتى هو القسم بخاله ، وهذا التقليد عند الاكراد يعود بأصله إلى العهود البائدة يوم كانت السيطرة في القبيلة للأم .

ونختتم بحثنا عن الزواج بقصة جاءت في كتاب « أرب شامو » تروي حكاية زواج « برو » — أي ابراهيم — من « مينه » :

لقد كان « برو » هذا فقيراً ولم يكن له سوى أمه « بصه » فلجأ إلى خاله الذي قدم له يد المساعدة . وكانت شكليات الزواج تجري في الخفية لأنه كان هناك شاب غنيّ يرغب في الزواج من « مينه » . وبعد أن تم الاتفاق ودفع المهر لوالد العروس ، كان لا بد للعريس من أن يحمل الهدايا إلى أقارب العروس ويكسب عطف وتأييد قريباتها ، ليس عن طريق هذه الهدايا فحسب ، بل بلباقته

وحضور ذهنه .

ولما كانت « بصه » تقوم بدور الوالد فقد تربعت على الارض وقالت لابنها : « أنظر يا بني . غداً ستصبح لديك زوجة ، وهذا كل ما استطعت أن أحققه لك مما أوصاني به والدك .وها إنك أصبحت الآن سيد نفسك ، فعليك أن تحسن السلوك في منزلك ، وخصوصاً أن تعتني بخرفاننا التي نستمد منها وسائل عيشنا . لا تكن طائشاً ولا متعجرفاً ، وإذا ما ذهبت إلى قبيلة ووجدت أن رجالها لا ينظرون إلا بعين واحدة ، فافعل مثلهم لكي تستطيع أن تعيش معهم . فأجاب « برو » والدته قائلًا :

ــ حسناً يا والدتي ، سأفعل كما تقولين . وعادت الام تقول :

ــ لنفكر الآن بمدعوّينا ، فهل أرسلتَ هدايا لكل منهم ؟

وتقضي التقاليد أن يرسل العريس إلى كل مدعوّ هدية تكون عبارة عن منديل أو قطعة صابون ... والذي يرغب في تلبية الدعوة يقبل الهدية ، أما الذي لا يرغب في التلبية ،فعليه أن يرفض الهدية . وأجاب « برو » والدته :

ــ أجل يا والدتي لقد بعثنا بهدايا إلى الجميع . فقالت :

ــ هل لدينا من الهدايا ما يكفي ؟ قال برو :

ــ أجل . لدينا الكفاية ، فقد أعطاني عمي سبعة خرفان لأنه يعرف أننا لا نملك جميع تكاليف الزواج .

وفي الصباح أصبح من المتعذر التعرف إلى قرية برو ، فقد وصل إليها عدد كبير من المدعوين ، وكان المزمار والطبل يبعثان بأصواتهما بعيداً في الوديان والجبال . وكان أهل العريس وأقاربه

كلهم قد حضروا . وكنت ترى الاكراد بثيابهم المزركشة يتنقلون هنا وهناك ويتحدثون بفرح وحماسة ، وبينهن النساء بوجوههن السمراء وأزيائهن الرسمية يبتسمن ويثرثرن .

وكان يسود الجهة الثانية من القرية مزيد من النشاط أيضاً والحركة ، حيث تجمّع الفتيان مع خيولهم لمباريات الفروسية – الجريد –وكان كلٌّ منهم يباهي بأصالة فرسه ، والجميع يتناقشون حول من سيفوز .

وأخيراً بدأ السباق ، وكانت مسافة الشوط تعادل العشرة كيلومترات . وعندما وصل الفرسان إلى الساحة كانوا يقومون بمختلف الالعاب الجريئة ، بينما أصوات المزمار والطبل تزيد من حماستهم .

هكذا كان الجميع يتسلون . أما « برو » فقد كان منتصباً على عرشه والشباب يحيطون به وهم ينشدون ويحلقون له شعره ويتأهبون لإلباسه ثيابه . وجرت العادة لدي الاكراد أن يقص الحلاق شعر العريس على مراحل ، فيقترب كل واحد من أصحاب العريس ويدفع للحلاق مبلغاً من المال ليستحثه على الإسراع . والدراهم التي تجمع بنتيجة الحلاقة تخصص لوليمة الشبان .

أما « مينه » فكانت تجلس بين صويحباتها تحت الخباء ، وهن يبكين ، كما تقضي التقاليد ! بينما انصرفت أناملهن إلى تزيينها .

وأخذت إحدى الفتيات ترنّم أغنية خاصة بمثل هذه المناسبة :

« أنا وأنت ، وحدنا غريبتان ،

نجلس منفردتين خارج المنزل ،

ولا أحد يعرف من نحن !
كم أنا غريبة ! آه ... كم أنا تعسة ! آه ...
إني أشاهد منزل والدك ،
وأشاهد السطح العتيق الذي يغطيه !
لا تلطمي وجهك فعريسك يحبك حباً كثيراً !
وأنت تحبينه أكثر !
أنا وحدي هنا غريبة ،
وها أنا ذاهبة ولن أعود ،
إلى منزل أهلي !
إني أبكي وأنا أودّع هذا البيت ،
وليس سواي غريبة ها هنا .
إني أشبه محرمة حمراء كالدم !
ينظر إليّ جميع الغرباء .
فلتُلعن السماء الخبز
الذي كانت تقدمه لي أمي !
فمن أجل المال باعوني
إلى رجلٍ تافهٍ لا أحبه !
يا لشقائي ! ويا لسعادة المحبين !

الفصل السادس

القبيلة الكردية

*

صورة القبيلة

عندما تأخذ أسرة ما في النمو وتخرج عن حدود القرابة الرحمية، فإنها تتحول إلى قبيلة ، فتضعف وشائج الحب المتبادل التي تشد أفراد الأسرة الواحدة ، لتحل مكانها روابط التقاليد والطقوس الدينية والمنافع المشتركة . ولا نستطيع في أيامنا هذه أن نحصل على صورة صحيحة لِمَا كانت عليه القبائل في العصور الغابرة ، إلا تلك التي نجدها اليوم في القبائل التي تعيش في الصحراء العربية ، ومنطقة ما بين النهرين ، و كردستان . فإذا ما نفذنا إلى داخل هذه القبائل

وشاهدنا مضارب خيَمها ، وتحدثنا إلى شيوخها ، فإن صور التوراة تنبعث ولا ريب أمامنا حية . فهذا الشيخ ذو اللحية البيضاء والنظرات الوقورة، الذي يجلس تحت خيمته محاطاً بأولاده وأقاربه وخدمه ، ألا نستطيع أن نرى فيه صورة ابراهيم أو يعقوب ؟ ...

وتتألف الواحدة من قبائل كردستان التركية ، من عائلة رئيسية هي عائلة الزعيم ثم تليها مجموعة من العائلات التي تمت بصلة القرابة إليها ، على درجات متفاوتة . ولكل عائلة خيمة « همبا » واحدة . فإذا ما أردنا أن نحصي عدد عائلات القبيلة الواحدة فما علينا إلا أن نحصي عدد خيمها . فعندما يقال إن القبيلة الفلانية تعدّ ألف خيمة ، فهذا يعني أنها تعدّ ألف عائلة . وما يجب أن ننتبه إليه هو أن قبائل الكردستان تتشكل من عنصرين متمايزين ، أحدهما دائم ، والثاني متأرجح . أما العنصر الدائم فهو تلك النواة من العائلات التي تمتّ بالقرابة إلى زعيم القبيلة، وأما العنصر المتأرجح فلا يخرج عن كونه مجموعة من المغامرين والمتشردين الذين ينضمون تارة إلى هذه القبيلة وتارة إلى تلك .

لذلك يصبح من المستحيل أن نحكم بدقة على القيمة العددية لأية قبيلة ما دامت هذه القيمة تخضع للتطورات والظروف . ونذكر على سبيل المثال قبيلة «ملان» التي كانت تعد ١٦٠٠ خيمة إبان ازدهارها في عهدٍ مضى ، ولكنها لم تلبث أن استحالت إلى ٥٠٠ خيمة بعد سنتين عندما حلت بها الكوارث .

والواقع أن زعيم القبيلة هو أبٌ لها لا حدود لسلطانه، يستطيع التصرف كما يشاء بملكية أي واحد من أفرادها ، بل وبإمكانه أن

يضرب من يشاء ويقتل أي شخص يرى من الضروري قتله .

وتقوم بين زعماء القبائل معاهدة « تبادل المجرمين » الأمر الذي يحول دون الفرار من وجه الزعيم . كذلك فإن الحكومة لا تُقدم إطلاقاً على الحدّ من سلطة هؤلاء الزعماء ، خصوصاً وإن الحكومة التركية تسمح لهم أن يفعلوا ما يشاؤون شرط أن يدفعوا بعض المال سنوياً للخزينة .

وزعامة القبيلة تنتقل إلى الأشخاص بالوراثة . فعندما يموت الزعيم يتولى سلطاته مباشرة أكبر شخص من أقاربه ، ويبايعه الجميع . وقد يحدث أن يغتصب أحدهم السلطة بالقوة ، أو أن يبايعه الجميع دون أن يكون الوريث الشرعي . غير أن هذه الحالات تعتبر إستثنائية ومن شأنها تغيير مجرى الامور في داخل القبيلة .

وترتفع خيمة الزعيم فوق جميع الخيم ، وفيها تتم الاجتماعات العامة ، ويقصدها الغرباء ليجدوا المأوى والغذاء . إنها المحكمة العليا ، ومجلس النواب والشيوخ لمناقشة الأحداث الكبرى اليومية ، وفيها يستطيع كل فرد أن يواجه الزعيم عن كثب ، والزعيم في خيمته يحادث الجميع ويمازحهم ، ويوبخ الذين قد يحل غضبه عليهم . وتكون مائدة الزعيم دائماً عامرة بالمأكولات ، ويحق لكل شخص أن يجلس إليها ويأكل ، وقد روى لي كثيرون من الاكراد أن كوم اللحم والمأكولات الأخرى كانت تبلغ فوق مائدة علي آغا إرتفاع الجبال !

ومع أن سلطة الزعيم مطلقة إلا أن كبار القبيلة يشكلون

بعض الرقابة عليه ، ولأصواتهم وزن لا يمكن تجاهله ، ويعقد هؤلاء الكبار مجلساً كل ليلة في خيمة الزعيم لمعالجة القضايا التي تهم المصلحة العامة .

ولا بد لنا من القول بأنه لم توضع حتى الآن أية دراسة اجتماعية شاملة عن القبيلة الكردية . بل ويبدو أن هناك تضارباً في الآراء حول تكوّنها . ويقول « بتروشفسكي » في مؤلفه عن « الاقطاع في أرمينيا وأذربيجان من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر » : « إن القبائل البدوية في هذه الفترة ، كالقبائل التركية والمنغولية ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، لم تكن تشكل وحدات عرقية ، كما أنها لم تكن تعود إلى ذات النسب ، بل كانت عبارة عن تجمعات من أسر قديمة يعود تاريخها إلى ما قبل وجود الاقطاع » .

تركيب القبيلة وطبقاتها

يعتبر ميلنجن ـ وهو على حق ـ أن القبيلة عائلة اتسع نطاقها . ونكتفي من الأمثلة الكثيرة التي قد نعثر عليها بين القبائل الكردية للتأكد من هذه الحقيقة ، بقبيلة « هاركي » ، فقد كان جدّها رجلًا يدعى « أبو بكر » اشتهر بشجاعته حتى أنه لم يكن يخشى منازلة عشرين مقاتلًا في آن واحد . وكان بين هذا الفارس والأمير زين الدين عداوة ، فكان يسطو على رجال الامير ويقتلهم . وفي ذات يوم اجتاز أبو بكر ببسالته الحدود ، فبعد أن قتل وشتّت عشرين شخصاً من أتباع الأمير الذين نصبوا له كميناً للايقاع به ،

ولكنه تغلب عليهم ،أخذ أسلحتهم وأمتعتهم وحمّلها على بغلين كانا يشكلان كل ثروته ، ومضى مباشرة نحو خيمة الامير زين الدين . فلجأ هذا الامير إلى الحيلة وخبأ على أبي بكر حقيقة نواياه ورحّب به قائلًا : « أهلًا وسهلًا وعلى العين » وأضاف : « إن رجالي أضعف من النساء ، وأنت رجل شجاع وفقير ،وأنا بحاجة إلى مساعدتك ! » ثم اتفق معه على أن يصبح رئيساً لرجاله .وبات أبو بكر تلك الليلة عند الامير على أن يذهب في الصباح ويُحضر عائلته لتعيش معه في قبيلة الامير . وفي الليل عندما أغمض عينيه مطمئناً ، تقدّم رجال الامير وقيدوه . وفي الصباح عندما فكّوا القيود ليعدموه ، تمكن بسرعة من اختطاف خنجر أحد جلاديه وطعنه به طعنة كانت من القوة بحيث اخترقته ونفذ نصلها إلى جذع الشجرة ، وحاول أن يستله لكن المقبض وحده خرج في يده ، فلبث أعزل واستسلم . ولكنه قبل إعدامه طلب أن يؤدي وصيته الاخيرة لأولاده وهي :

أولاً — لا تركّبوا نصلًا في مقبض دون أن تسمّروه تماماً .

ثانياً — ليتزوج كلّ منكم أربع نساء لتنمو ذرّيتكم وتتمكنوا من الأخذ بثأري .

ثالثاً — لا تصغوا أبداً إلى الأقوال المعسولة التي تصدر عن أفراد أسرة الأمير زين الدين .

وكان لأبي بكر أربعة أولاد : مندو ، وسيدو ، وسرحات ، وممشير . وقد أصبح الثلاثة الأول على رأس الفروع الثلاثة في قبيلة « هاركي » .

هذا مثال على تكوّن القبيلة الكردية عن طريق تكاثر العائلة

الواحدة ، غير أنه لا يمكن إطلاقاً وضع تصميم عام لجميع القبائل ، فهناك عاملان دائمان يؤثران في مصير القبيلة وهما ، أولاً : النمو والاندماج ، وكلاهما يؤديان إلى ضم شمل هذه القبيلة حول محور واحد هو « الزعيم الشجاع والبارع » . ثانياً : التفسخ والتشتت بنتيجة الظروف السيئة « فقدان الزعيم ، أو الوباء ، أو الجوع » وكلاهما يحلّ القبيلة .

ويلاحظ « ميللنجن » ، أن القبيلة تستمر في النمو والتكاثر ما دامت أحوالها مزدهرة ، وبالعكس ، عندما تسوء الظروف تأخذ القبيلة بالتقلص ، وقد تفنى .

وبالاضافة إلى العوامل التي ذكرنا ، يجب أن نتنبه إلى وجود طبقات اجتماعية متمايزة في قلب القبيلة . وقد أجمع كل الذين قاموا بدراسات عن الاكراد ، على وجود طبقتين على الاقل : طبقة النبلاء من المحاربين وملاكي الارض ، ثم طبقة الخدم والفلاحين الذين يكونون أشبه بالعمال . ويطلق على أفراد هذه الطبقة اسم « غوران » . ويثير هذا الاسم الانتباه ، ذلك أن « الغوران » يختلفون عن الاكراد بتكوينهم الجسمي وبلغتهم الايرانية . وهذا ما يحمل على الاعتقاد بأن الاكراد قوم فاتحون ، وأن « الغوران » هم سكان البلاد الأصليون . وهناك من يقول بأن لكلمة « غوران » معنيين أحدهما للدلالة على الطبقة الشعبية من الاكراد ، والثاني يعني عرقاً معيناً .

ملاحظات بعض الرحالة عن الاكراد

يقول واغنر : « يقسم الاكراد إلى فئتين : فئة المحاربين الذين

لا يملكون إلا قطعان المواشي ، ويمارسون في بعض الأحيان أعمال الغزو ، وفئة الفلاحين الذين يطلق عليهم اسم « الغوران » . ولا تستطيع الفئة الثانية أن تتخذ صفة الاكراد النبلاء لأنها تختلف عنهم بتكوينها الجسمي وبلغتها » .

ويقول ريتش : « يختلف الغوران عن المحاربين الأكراد بملامحهم الجسمية وبلهجتهم . ويتصف محياهم بالنعومة والخطوط المنتظمة ، حتى ليخيل للناظر إلى جانب وجوههم أنهم قوم من اليونان . ويشير ريتش أيضاً إلى أن وضع هؤلاء الفلاحين بائس جداً ، حتى ليضاهي وضع فقراء الهند الغربية .

أما المؤلف الأرمني « ميرا كوريان » فيقسم الأكراد إلى ثلاث طبقات : ١ - النبلاء « تور ن » . ٢ - المحاربون . ٣ - العمال . والمؤلف « أركلان » يميز لدى الأكراد أربع طبقات : ١ - الطبقة العاملة . ٢ - خدم الزعيم المسلحون . ٣ - الزعماء « الآغوات » وهم أناس محاربون . ٤ - رجال الدين .

صفات الزعيم ومهامه

يتسلم الزعيم سلطاته في القبيلة وفق مبادىء معينة تختلف باختلاف الظروف والحالات . فإما أن يرث السلطان وراثة ، أو أن تنتخبه القبيلة بالإجماع ، أو أن يفرض نفسه بالقوة . غير أن لمبدأ الوراثة قوة العادة وقوة التقاليد التي تعتمد على الاحترام الذي يكنّه أفراد القبيلة نحو زعمائهم الوارثين .

ويروي لنا « شرف نامه » مثالاً ذا دلالة كبرى عن أمراء

« بتليس » . فقد حدث أن شاه إيران سطا على هذه الأسرة النبيلة وشتت أفرادها ،فعاشوا منفيين في مدينة «قم» بعيداً عن كردستان موطنهم الأصلي . ولم يبق منهم مع الزمن سوى شابين صغيرين يمثلان الأسرة النبيلة . ولكن ذلك لم يمنع أحد خدم هذه الأسرة من أن يبذل جهوداً جبارة ليعيد هذين الأميرين الصغيرين إلى سلطان أسرتهما السابق ، ولم يفت من عزم الخادم ما لقيه من الفشل تلو الفشل ، حتى تمكن في النهاية من أن يجعل مبدأ الوراثة ينتصر في « بتليس » وعاد الأميران الصغيران ليحتلا منصب آبائهما .

ويحدثنا « شرف نامه » ذاته عن واقعة انتخاب أحد الزعماء . فقد حدث أن انقرضت أسرة زعماء قبيلة « روجاكي » فتشاور شيوخ القبيلة فيما بينهم واتفقوا على أن يحملوا إلى الزعامة أميرين من الأسرة الملكية . وأعلن كبار القبيلة وصغارها موافقتهم الاجماعية على هذا الرأي .وبالفعل فقد ذهب كبار القبيلة إلى الأميرين وسلموا كلًا منهما السلطان على أحد فرعي القبيلة .

وكتاب « شرف نامه » هذا ، الذي يعتبر من أفضل المراجع عن حياة الأكراد وتقاليدهم ،لايخلو من تفاصيل مطولة عن الحروب التي تنشب بين القبائل ، وعن النزاع الدائم بين الزعماء على تولي السلطان . ففيه أن الحظ يلعب الدور الرئيسي أحياناً في إيصال أحد الزعماء إلى السلطان .

كان هناك ثلاثة إخوة يعيشون معاً في إحدى مناطق الكردستان، وقد اشتهر عن الأخ الأكبر تعبّده وتقواه . وفي ذات يوم تغيّب الأخ الأصغر عن إحدى الولائم ،فلما عاد وطلب حصته،قال له الأخ

الأوسط إنه انتظره طويلاً فلما يئس من عودته أكل له طعامه . فما كان من الأخ الأكبر إلا أن لعن أخاه الأوسط بقوله : « لتنفجر معدتك وتتحوّل إلى نتف » ، وإذا باللعنة تصيب فعلاً الأخ النهم ، فيسقط للحال ميتاً ! وبلغ الخبر أسماع القبيلة فأجمعت على تسليم الأخ التقي سلطات زعامتها .

ويمكن تقسيم الطبقة الكردية النبيلة إلى خمس فئات :

١ — طبقة « الملا زاده » وهم أحفاد الملا الذين اشتهروا بواسع علمهم وبسلوكهم المثالي ومنهم الحيدريون أحفاد الملا حيدر ، والهيلانيون زاده أحفاد الملا عمر افندي . والملا الذين لا يتصفون بمزايا العلم والسلوك المثالي يسمون « أنصاف ملا » .

٢ — طبقة « شيخ زاده » ، وهم أحفاد رجال الدين .

٣ — طبقة « بك زاده » ، وهم أفراد الأسر العريقة من أمراء وباشوات .

٤ — طبقة « الآغا زاده » وهم زعماء القبائل التي تأتي بالدرجة الثانية من الأهمية .

٥ — « زفة دار » وهم أفراد أسر القديسين .

ولنتخذ الآن إحدى المناطق الكردية المجهولة —ولتكن منطقة « شمدينان » في أواسط الكردستان ، لندرس فيها حياة هذه الفئات من النبلاء :

هناك في الدرجة الأولى أسرة « بك زاده عباسي » التي تدّعي ، وفقاً لمدلول اسمها ، أنها ترجع بنسبها إلى سلالة العباسيين . وكان مؤسس هذه الأسرة أمير يدعى شمس الدين وهو الذي أطلق اسمه

على المنطقة كلها « شمدانين » . وكثيراً ما نلاحظ في تكوين الأسر الكردية أن أعرقها يعود إلى أصول عربية . وكانت أسرة شمس الدين تمارس رعي المواشي بين بغداد والموصل . وحدث أن نشب نزاع بينها وبين قبيلة « شمّر » القوية ، فانهزمت أمامها واضطرت إلى اللجوء إلى جبال الأكراد في شمال الموصل . وقطن شمس الدين مع أسرته في قرية « ستوني » من قرى عشيرة « هاركي » أي في الشطر الغربي من شمدينان ، حيث يمر خط الموصل إلى أماديا . وقد تمكن هذا الأمير بما عُرف عنه من ذكاء وسمعة طيبة ، أن يكسب احترام وودّ عشيرة « هاركي » وجوارها . وجاء ابنه ووريثه عز الدين ليبسط نفوذه على مناطق واسعة . واستمرت هذه الأسرة لمدة ستة أو سبعة قرون تعيش في قرية « ستوني » حتى جاء الأمير نصر الدين فنقل مقرّها إلى قرية « بتكار » وبعد ثلاثة أو أربعة قرون وتحت سلطان الأمير زين الدين ، انتقل مركز الأسرة إلى قرية « هارونان » في جنوب شمدينان . وقد بنى هذا الأمير قلعة صغيرة منيعة لا تزال آثارها قائمة حتى الآن . وأنجب الأمير زين الدين ولدين ، أحدهما إمام الدين الذي اختلف مع والده فنزح إلى « أورميا » حيث منحته حكومة الشاه « أفشار » مقاطعتي « بردزور » و « ترجفر » . ولا تزال آثار الحصن الذي بناه في المقاطعة الأولى ظاهرة حتى الآن . أما الإبن الثاني فهو الأمير سيف الدين ، وقد خلف والده ، وكان أول أمير في الأسرة يحمل رسمياً اسم أمير « شمدينان » . وعاشت أسرة شمدينان ثلاثة أو أربعة قرون في « هارونان » حتى جاء الأمير « بهرام بك » فانتقل

بها إلى « نهري » التي أصبحت منذ ذلك الحين مركزاً لها . وقد بنت هذه الأسرة على أنقاض كنيسة قديمة حصناً أطلقت عليه اسم « القلعة » . ولبث أمراء « شمدينان » يحكمون تلك المنطقة حتى جاء الشيخ « عبيد الله » في أواسط الجيل التاسع عشر ، فانتقل الحكم إلى أسرته : أسرة المشايخ المعروفين باسم « سادات نهري » أي أسياد نهري ، وهم من سلالة الرسول . ولم يكن هؤلاء في أول الأمر إلا شيوخ دين ، ولكن ما لبث بعضهم أن أخذوا يستولون على الحكم الزمني .

ويأتي بعد هاتين الأسرتين ــ العباسيين والأسياد ــ في حكم شمدينان عدد من الأسر النبيلة منها أسر الآغوات من زعماء قبائل المنطقة ، التي تعود بأصولها إلى خالد بن الوليد الذي احتل بلاد ما بين النهرين وسوريا في الجيل السابع . وقد لبث الآغوات يتمتعون بسلطان واسع في المنطقة حتى مجيء المشايخ الذين استطاعوا أن يفسدوا بينهم وبين الحكومة التركية . ولم تنشب الحرب العالمية الكبرى حتى كان الآغوات قد فقدوا مركزهم وسلطانهم وأملاكهم لتحل محلهم طائفة « الباش أمير » . ولا يعرف أحد أصل هذه الأسرة ، ولكن المؤكد أنه أحد رجال الدين « الملا » .

علاقات زعماء القبائل فيما بينهم

كان الزعيمان الكرديان ، الأمير بدر الدين من « شمدينان » وابراهيم بك من « بهدينان » يتفاخران بقرى منطقتيهما . فيقول ابراهيم بك : « ليس في العالم كله أجمل من قريتَي شوشه وشرماني»

فيرد عليه الأمير بدر الدين قائلًا : شوشه وشرماني ومعهما سياني وإرغاني ، كلها لا تساوي زاوية من قرية « أوليان » وحدها . ودعا الأمير بدر الدين منافسه ابراهيم بك لأن يزوره في قريته في شهر تموز ، ولما وصل ابراهيم بك إلى قرية « أوليان » طلب الأمير بدر الدين من ثلاثة خدم أن يحضروا له من غلاّت أرضه شعيراً وتوتاً وعنباً . وكم كانت دهشة ابراهيم بك كبيرة عندما وجد الأصناف الثلاثة أمامه ، فأخذ الأمير بدر الدين يشرح له كيف أمكن جمع هذه الأصناف الثلاثة في وقت واحد ، مما يدل على خصب أراضيه .

ومن قصص المنازعات بين زعماء الأكراد أنه كان بين حسن بك وسليم بك خلاف حول ملكية بعض القرى ، فوجه الأول على الرغم من نصائح مستشاره ، رسالة عنيفة اللهجة إلى الثاني ، يقول فيها : « يا سليموك « اصطلاح للشتيمة » يا آكل البلوط لا تمدنّ يدك إلى قراي ، وإلا فإني أهدم كل قبيلتك » . فردّ عليه سليم بك قائلًا : « من الأفضل للانسان أن يموت بشرف من أن يعيش بخزي ، وأنا لن أتخلى عن قراي ما بقي في أسرتي فتاة واحدة» . وفي الصباح انقض على رأس ثلاثمائة محارب شجاع وراح يكتسح قرى حسن بك واحدة بعد الأخرى ، حتى تدخل الشيوخ والعلماء وفرضوا الصلح بين الاثنين .

وهكذا نجد في هذه المنطقة المعزولة من الكردستان صورةحية لتاريخ هذه البلاد برمّتها ، بما فيها من تعقيدات وحروب بين زعماء القبائل .

سلطة الزعيم القضائيـــة

مهما تكن الوسيلة التي يصل بها الزعيم إلى السلطان ، سواء أكانت الوراثة أم الانتخاب أم القوة ، فهو متى ثبت مركزه يدين الجميع له بالولاء والطاعة . ومع أننا لا نزال نجهل ما هي حقيقة صلاحيات هذا الزعيم القضائية في قبيلته ، فمن المؤكد أن هذه الصلاحيات لم تعد الآن شيئاً يذكر بعد أن أخذت السلطات التركية والإيرانية تثبت وجودها . ومع ذلك فمن المعروف أنه منذ ربع قرن تقريباً كان الشخص الذي يغتصب فتاة أو امرأة متزوجة رغماً عن إرادتها ، يحكم عليه الزعيم بمصادرة أملاكه . أما الجرائم الأخرى فجزاؤها إما إحراق منزل المرتكب ، أو قطع أشجار بستانه . غير أن أفظع حكم قد يصدر على فرد من القبيلة هو أن يطرد منها ، وهذا يعني أنه فقد جميع حقوقه كإنسان . فمن المعروف أن غريزة البقاء لدى البدوي تمتزج بغريزة الحياة ضمن القبيلة . ونقدم فيما يلي مثالاً على تمسك الكردي بقبيلته :

كانت السلطات التركية قد قبضت على عدد من الأكراد قاموا بثورة ضدها ، وأرسلتهم إلى طرابلس الغرب في أفريقيا . ولكنهم تمكنوا من الفرار والعودة إلى جبالهم عند الحدود الايرانية ، وهم يؤثرون مجاورة قبيلتهم مع الخطر ، على الابتعاد عنها مع السلامة .

وهناك عقوبات أخف وطأة من الطرد ومصادرة الأملاك ، يفرضها الزعيم على الذنوب الخفيفة ، كأن يغرّم بعشرة إلى مئة ليرة تركية كل من يغتصب فتاة بإرادتها . وإذا ما سرق أحدهم دابة

يجب عليه أن يعوض بقيمتها وأن يدفع فوق ذلك أربع قطع نقدية للزعيم .

هذا ، ويعتبر الزعيم الضمانة العليا للعدل .

ويحكى عن الأمير « أفضل بك » أنه كان يتمتع بشهرة واسعة في هذا المجال ، فقد كان يزرع في كل صيف بستانه الواقع على منحدر جبل « شيدان » تماماً بالقرب من مصيف قبيلة « هار كي » ، يزرعه بمختلف أصناف الخضار دون أن يحيطه بأي سياج ، ويقول : « إن سلطتي تكفي كحاجز ضمانة له » . وأقدم ذات يوم شخص يدعى يونس على سرقة خروف ضخم من قطيع إحدى القبائل المسيحية . وذهبت جميع الجهود في البحث عن السارق بدون جدوى . وانتهى الأمر بأن عزا صاحب القطيع فقدان كبشه إلى أن ذئباً قد افترسه . ولكن نبأ هذه السرقة بلغ مسامع « أفضل بك » فاستاء وغضب ، وأمر بإحضار المرتكب مهما كلّف الأمر . فقام جنوده وأحضروا يونس لمحاكمته . واقتُرحت عدّة عقوبات ، فمنهم من قال بإحراق منزله ، وغيرهم اقترح قطع يده أو بتر ساقه أو طرده من القبيلة ، غير أن الأمير لم يكن يوافق على أيّ من هذه الاجراءات . ولكنه أعلن قائلاً : « لما كانت السرقة أمراً غير عادي تحت حكمي ، لذلك أريد قصاصاً غير عادي » . وأمر بقطع خصيتي السارق . وذهبت قصة يونس السارق مثلاً .

وتجدر الإشارة إلى أن السرقة والاحتيال والنشل وكلّ ضروب الخدعة ، لبثت مجهولة في كردستان . ولم يحدث قط أن أعلن أي تاجر هناك إفلاسه ، مصطنعاً كان أم حقيقياً .

ومن العار على قاطع الطريق في تقاليد الأكراد أن يلجأ إلى الحيلة في سلب الناس ، بل يجب عليه أن يعتمد على قوته وجرأته ويعرّض حياته للهلاك . ويجب على الكردي إذا اضطرته الحاجة إلى قطع الطريق أن يحمي من هو أضعف منه . كما عليه أن يحترم نفسه فلا يتهجم قط على امرأة أو عجوز أو طفل . لذلك لا يلجأ التجار في نقل المبالغ الضخمة من المال إلى البريد ، بل يأتمنون عليها رجلاً عجوزاً يحملها ويجتاز بها الجبال والوديان ، ويصل إلى المكان المرسلة إليه دون أن يتعرض لأي خطر أو إزعاج .وهذا الاحترام للشيخوخة من أنبل الصفات التي يتميز بها الأكراد .

ويقول « مينورسكي » إن الأكراد يحافظون على النظام العام بكل دقة حيث يعيشون وحدهم دون وجود غرباء . فهم يخضعون لذات النمط من العيش فيحلون مشاكلهم فيما بينهم دون أية حاجة للسلطات الحكومية .

بقيت هناك قضية الثأر :

من تقاليد الأكراد أن يثأروا لدماء أقاربهم ، والثأر حق يكتسبه أهل القتيل ، بالإضافة إلى أن القاتل يطرد من قبيلته لمدة خمس سنوات أو أكثر ، فإذا تمكن أصحاب الحق من قتله في هذه الفترة فإن القضية تعتبر قد سويت . وإذا بقي حياً بعد انتهاء مدّة نفيه يحق له أن يعود إلى قبيلته دون أن يفقد أهل القتيل حقهم بالثأر .وقد يتدخل العقلاء فيقدرون ثمن الدم الذي يدفعه القاتل لأهل القتيل . غير أن هذا الاجراء الأخير نادراً ما يتّبع لدى الأكراد . ذلك أنهم يعتقدون بأن دم القتيل يلبث سائلاً من جرحه ما لم يؤخذ

بثأره لذلك تراهم يفضلون تسديد حسابهم برصاصة أو طعنة خنجر . ولكن إذا حمل القاتل كفنه بيده وسيفه في عنقه وسلّم نفسه فلا يسع أهل القتيل عندئذٍ إلا أن يقبلوا بالتسوية !

وسائل اللهو : الشعر والغناء والرقص

يجمع الرحالة على الإعجاب الشديد بالغناء الكردي . ويؤدي الأكراد أكثر أغنياتهم على شكل جوقات متناوبة .

يقول المؤلف الأرمني « أبو فيان » : « لقد تطورت القصائد الكردية الشعبية كثيراً وبلغت حدود الكمال » . ويبدو من ملاحظات بعض المؤلفين أن كل كردي ، رجلًا كان أم امرأة ، هو شاعر بفطرته .ويتوسع« بلو » الذي تعمق في دراسة كردستان في الشمال الشرقي ، في عرض مميزات الأغاني الكردية وإبراز أهميتها الكبرى في الحياة الكردية فيقول : « أشد القبائل الكردية بؤساً غنية في أغانيها وألحانها . ولا تقتصر أقاصيصهم التي تنشد وقائع الحرب على الرحّل ، بل تتعداهم إلى الحياة الحضرية ، إذ يجمع المغني حوله في المساء أفراد القرية ، ويأخذ في بعث ذكريات الأبطال المحاربين القدماء ، أو هو يثير الشجون بقصائده عن الحب والألم والفراق ... وكان يكفي الاستماع إلى المغني عمر آغا أو إلى ضياء الدين ، في أناشيدهما ، حتى يتضح ما فيها من عمق وذكاء وعاطفة » .

ولا تقل شهادة « لايار » في الغناء لدى الأكراد اليزيدين ، عن شهادات غيره . فهو يصف غناءهم على ضريح الأولياء فيقول : « لم

أسمع قط غناء أبعث على الحزن وأجمل ! لقد كانت أنغام المزمار تمتزج بعذوبة مع أصوات النساء والرجال التي تتوقف بين آن وأخر لترك المجال للصناجات والطبول » .

وتدور أغاني الأكراد غير الدينية حول المواضيع العاطفية والبطولية . ويلاحظ « مار » أن المهم في الغناء الكردي هو تلك الموضوعات التي تتكرر دائماً . إنما الذي يثير الاعجاب هو تعدّد الحالات النفسية وأساليب التعبير عنها .

ويعزو الرحالة والعلماء جودة الأغاني الكردية إلى صفات الفروسية التي يتحلى بها الأكراد أنفسهم . ويقول مار :

« يبدو لي أن ثروة الغناء الكردي ناجمة عن المميزات التي يتحلون بها دون جيرانهم من الأتراك والأرمن .

« ففي الوقت الذي تخلى به الأتراك والأرمن عن عاداتهم وتقاليدهم الأصلية ، نجد أن الأكراد يحتفظون بأصالتهم » .

ويقول « ملينجن » في وصف إحدى سهرات الأكراد :

« ... وانعقدت حلقة الغناء بعد الغداء ، فامتدت تحت الخيمة وخارجها ، وكانت تتألف من محاربين شباب وكهول وشيوخ ، وكلهم متربعون على الأرض . ومع أن الحديث أخذ يدور أول الأمر حول مواضيع مضحكة ، إلا أن أصواتاً راحت تردد أنغاماً شجية عاطفية . وشيئاً فشيئاً ، وفيما كانت العواطف تلتهب ، كنت تشاهد الوجوه والعيون تتألق برقة وعذوبة حتى تكاد ، بتناقضها مع ملامحها القاسية ، تثير الضحك . لقد اتخذ هؤلاء المحاربون العتاة أوضاع العشاق المتيمين إذ أحدثت هذه القصائد العذبة في نفوسهم

أثراً قوياً .

« واستمرت هذه التسلية الغنائية مدة ساعتين تقريباً . ولا بد لي من القول إنها كانت تسلية ممتعة ، إذ أنني سرعان ما جرفني تيار الشعر والموسيقى ، وقد أثرت فيّ إحدى تلك الأغاني إلى حد أني لبثت زمناً طويلاً فيما بعد أرددها وأطرب لها .

« وبعد الغناء جاء دور الرقص . فاستحالت الخيمة إلى مهرجان سرعان ما امتدّ إلى سائر الخيم ، وكان يزيد في نشوتنا ضوء القمر الساطع ونيران الليل اللاهبة . وعزفت الموسيقى الكردية وتألفت حلقة الدبكة . ويمتاز الرقص الكردي بأنه لا يؤدى بشكل إفرادي أو ثنائي أو رباعي ، والراقص الكردي لا يحرك جميع أعضاء جسمه كما هي الحال في الرقص الغربي ، بل هو يكتفي بحركات قليلة من ركبتيه . لذلك فإن الحلقة كلها مجتمعة هي التي تتمايل وتهتز على إيقاع الموسيقى فتبدو وكأنها حقل قمح يميس بتأثير نسيم ناعم » .

المرافق الاقتصادية لدى القبيلة الكردية

لقد ذكرنا في الفصلين الثالث والرابع بعض النقاط المتعلقة بنمط الحياة الكردية وتنظيم العائلة ، وبقي علينا أن ندرس العلاقات الاقتصادية القائمة بين زعيم القبيلة وأفرادها . وأعتقد أن هذه الناحية لا تزال مهملة حتى الآن في جميع المؤلفات التي وُضعت عن الأكراد ، ذلك أن هذه الأبحاث قد اقتصرت حتى هذه الأيام على تعداد الموارد الاقتصادية لدى الأكراد وبشكل عابر . إن

الحياة الكردية الصميمة لا تزال بحاجة إلى دراسة اجتماعية تحليلية توضح لنا التفاعل القائم بين المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فيها .

واجبات الكردي تجاه زعيمه

ونحن نكتفي الآن برسم الخطوط الكبرى للعلاقات الاقتصادية في وسط القبيلة الكردية معتمدين على دراسات الاستاذين «فيلتشفسكي، وكريستوف» . ويلاحظ الأول في دراسته التحليلية لبنيان القبيلة الاجتماعي والاقتصادي لدى أكراد «الترانسقوقازي» والمناطق المجاورة لإيران وتركيا ، يلاحظ أن أكراد هذه المناطق كانوا يتبعون نظاماً إقطاعياً كاملاً . فقد كان يتوجب على القبائل الكردية تجاه زعمائها ، عدا عن الضرائب والخدمات ، تقديم فرق مسلحة تنضم إلى إمرة الزعيم وتعمل في حراسة الحدود ، وهذا ما يشكل عاملاً كبيراً جداً في الضغط الاقتصادي على القبيلة .

إذن ، فالأكراد ملتزمون تجاه زعيمهم بمجموعة معقدة من الواجبات والرسوم والضرائب . ومع أنه لا توجد لدينا أرقام ثابتة عن هذه الضرائب ، إلا أننا نعرف أن الأكراد اليزيديين يدفعون للأمير سنوياً عُشر إنتاجهم ، كذلك يتقاضى الشيوخ وزعماء القبائل ذات النسبة . وهذا يعني أن الكردي يدفع ما لا يقل عن خمسي إنتاجه لرؤسائه الروحيين والمدنيين .

وبالاضافة إلى ذلك فإنه يتوجب على الأكراد أن يتكفلوا بنقل خيمة الآغا وأمتعته ، وأن يقدم له كل عريس بقرة . والآغا هو

الذي يتقاضى الغرامات التي يدفعها مرتكبو المخالفات . أما الشيخ فيتقاضى عن حفلة الختان من نعجتين إلى عشر نعاج ، كما يتقاضى عن كل حفلة زواج من خمس نعاج إلى خمس عشرة نعجة. ويتقاضى عن طرد الروح الشرير من نعجتين إلى ثلاث . وهكذا . .

ويُجمع المختصون بالشؤون الكردية على أن الفرد الكردي لا يجرؤ على مقابلة رئيسه دون أن يحمل له معه هدية ملائمة .

الالتزامات العسكرية

يتوجب على الكردي بالاضافة إلى الضرائب ، أن يحمل السلاح بناءً على طلب رؤسائه فيهمل بذلك مشاغله الاقتصادية مختاراً أو مجبراً . وإذا كان الأكراد يحصلون على بعض المكاسب إذا ما نجحت حملاتهم العسكرية ، إلا أن الأضرار الناجمة تكون أفدح بكثير إذ أن المجندين في هذه الحملات غالباً ما يفقدون صلتهم بقطعانهم وأراضيهم ويتطوعون لدى الاقطاعي كجنود محاربين نظاميين . وهذا الاقطاعي بدوره يضطر إلى زيادة الضرائب على الشعب كي يوفر لجنوده وأتباعه المرتبات اللازمة .

وكانت تكاليف الفارس المحارب في القرن التاسع عشر تبلغ ١٦٣ روبل فضة ، بالاضافة إلى مرتب سنوي قدره ٢٤ روبل . وتلتزم القبيلة بالاضافة إلى كل ذلك أن تقدم للمحارب ألبسته وسلاحه وفرسه .

والخلاصة أن الأكراد على الرغم من استقلالهم الظاهري ،ومن قلة الضرائب المفروضة عليهم ، قد جُرفوا في السياق الطبيعي

للاقطاع ، وانتهى بهم الأمر أن أصبحوا تحت حكم رؤسائهم الاقطاعيين . ويعتبر « بتروشفسكي » أن مصير البدو من الأكراد كان أفضل بكثير من وضع الحضريين منهم .

ولم يأت مطلع القرن التاسع عشر حتى كانت الاقطاعية قد وصلت إلى نتيجتها المحتومة في « الكردستان » ، ففسخت المجتمع الكردي ، وأوجدت الاقتصاد الطبيعي الذي يعتمد على الملكية الخاصة للقطعان ، وحمت الفلاحين من غزو القبائل البدوية ، كما أنها حافظت على الكردستان كوحدة متماسكة ضد هذه الغزوات البدوية ، ولكنها كانت قد تحولت إلى عائق كبير في طريق تطور اقتصاد المنطقة .

ويعتقد « فيلتشفسكي » أن الاقطاعية أصبحت في القرن التاسع عشر متخلفة عن تطور الامكانيات الاقتصادية التي نمت تحت ظلها. كذلك فإن القبيلة الكردية أخذت تعاني التطورات المختلفة ، وأخذ دور الرئيس الاقطاعي يتحول بتأثير العامل الاقتصادي إلى دور صاحب الرأس مال . ويرى « فيلتشفسكي » أيضاً أن الثورات الكردية في القرن التاسع عشر كانت موجهة ضد الاقطاعية ، فسجلت بذلك مرحلة جديدة من تطور هذا الشعب .

*

الفصل السابع

القبائل في الزمان والمكان

*

تاريخ القبائل

إذا ما أردنا تحديد قبائل الأكراد عبر الزمن ، وهذا عمل - كما يشير الفصل الأول عن أصل هذا الشعب - من شأنه أن يحملنا إلى التطرق ، إذا لم يكن لما قبل التاريخ ، فعلى الأقل ، إلى التاريخ. وهذه الدراسات ستؤدي بنا إلى خوض أمد بعيد في أقدمية هذا الجزء الطبيعي من آسيا . أما إذا استثنينا النتائج الهامة التي حصل عليها علم الآثار القديمة في الحقل الأشوري - البابلي ، الساساني - الكلداني ، فلن يبقى لدينا سوى معلومات ضئيلة عن هذه البقعة الجبلية التابعة لتلك المناطق الموعرة التي هي موطن الأكراد الخاص . فهناك حقل للروّاد واسع النطاق لم يأت العلم على ذكره

بعد . وقد قال ديكسون الذي زار تلك المناطق ، إن البلاد التي يوجد فيها خرائب وحصون آثارية كالتي تشكل كردستان ، قليلة جداً . إنها فردوس لعلماء الآثار ! ووصفها سركون عندما احتلتها جيوشه بأن صخورها المتراكمة وقممها المتعالية تبدو كالخناجر المصوّبة نحو الفضاء . إن هذه الآثار ترجع إلى عهود مختلفة منها عهود الأكراد والأشوريين والكلدان « الأورايتين » حتى أولئك الذين عاشوا فيما قبل التاريخ .

ويوجد أيضاً آثار قديمة في كافة أودية نوردوز جنوبي جبال أرنوست . وقد تكون تلك أبراجاً وحصوناً للأقدمين .

وقد قال ديكسون عن هذه الجبال إن أطولها ينتصب فوق قرية سات من قضاء هاركي أورامار . وأكثرها شموخاً يمتد فوق سلسلة مرتفعة من جبال جوديداغ . فهذا الجبل الأخير ومكان « الفيناك » — نباكا القديمة — اللذان يشكلان متحفين حقيقيين للآثار القديمة ، يحتويان على كافة الآثار من حفريات سكان المغاور حتى آثار الأكراد ، وتصلها ببعضها الآثار القديمة التي خلفها الأشوريون والفرس والاغريق والرومان والعرب والسلجوقيون . أما على جبال جوديداغ الصخرية وفي أغوار أودية الجنوب ، فيوجد خرائب أشورية وصخور منحوتة ورسوم وخطوط . وأهل البلاد ينسبونها كلها إلى الملك سنحريب ملك بابل الوحيد الذي ذكرته التوراة . ويوجد أيضاً على قمة الجبل أربعة قبور حجرية نقش الأقدمون على أعمدتها خطوطاً ينسبها علماء الآثار إلى الكتابة الأشورية والفارسية والمصرية القديمة . لكن الزمان محا هذه

الخطوط وهي لا تزال توجد في مكان يصعب على المرء تسلقه لالتقاط صور لها .

فالجزيرة والموقوس كانتا ، في زمن ديوكلسيان ، مراكز رومانية متقدمة . ولا تزال آثار الاحتلال واضحة هناك في الطرق والقلاع وغيرها . كما ولا تزال في وادي خيزان ، وفي حالة جيدة ، قلعة يبدو أنها رومانية . وكانت خيزان عاصمة موكسان الإقليم الروماني آنذاك ، قائمة على الحدود فيما بين الدولتين ـ أرمينيا وبلاد ما بين النهرين .

شكراً للدراسة العميقة التي قام بها وكتب عنها ديكسون في موضوع الآثار القديمة في كردستان حيث ألقى أضواء على التاريخ وما قبل التاريخ الكردي ، فأصبح في إمكان الباحثين التطلع إلى هذا التاريخ دون صعوبة . ففي القيام بدراسة آثار نظيرة بها في الترنسقوقاز ، تمكن أيضاً العلماء الروس من استنتاج بعض الحلول في ميدان دراسة الاجتماع بالنسبة إلى تلك الحقبات الغابرة من الزمن، وذلك ، فيما يختص ببناء تلك المناطق إبان عهد الاحتلال الذي قام به الكلدان (ق ٨ و ٧ ق . م .) وهذا مما سمح لنا في عرف المجانسة ، وفي حالة افتراضية طبعاً ، أن ندلي ببعض الافتراضات في موضوع التنظيم الاجتماعي والسياسي بالنسبة إلى الناس الذين عايشوا آثار العمالقة الأقدمين في اورارتو « جزء من كردستان الحالي » . ثمة آثار وتخطيطات للكلدان تشهد بوجود جماعات في ذاك الحين ،مشتتة ومستقلة ،وعلى رأسها قائد إسمه « إبان إيشان» . وكثيراً ما تجاوبت أسماء القبائل في الخطوط الآثارية ، غير أن

هذه الخطوط ما كانت تتحدث غالباً إلا عن الفتوحات أو عن أسر سكان البلاد أو بلد ما . وأيضاً ، يفترض البعض أن ترانسقوقازيا في تلك الأزمنة كانت خالية من القبائل . وكانت تربية المواشي من أولى ركائز الاقتصاد . أما الكتابات الكلدانية فلم تكن تتحدث إلا عن الرجال والمواشي كأسلاب حرب . والقلاع والحصون ، أو بكلمة أدق في التعبير ، الأماكن المسكونة المقاربة لبعضها ، كانت ملك شعبٍ من الرعاة . ونظراً إلى أن الأماكن المأهولة كانت دائماً عرضة للغزو المجاور ، كان الناس يحيطونها بسور ضخم من الحجارة ، وكان القائد يمكث دائماً على حدود القلاع . والقائد الذي لديه عدد من المقاتلين يأتمرون بأمره ، يختلف عن سائر الأهلين ، وذلك دون أن ينتمي إلى أية طبقة أخرى .

والقبور الملكية الترانسقوقازية لا تختلف عن قبور سائر أفراد السكان وهي على نحو قبور بدو الـ « سيت » . وهذه القبور هي التي قادت العلماء إلى الاعتقاد بأن العبودية كانت موجودة هناك ، إذ أن نقل قطع الصخور الضخمة كان يتطلب جهوداً كبيرة لا يقوم بها إلا العبيد . لكن ، لم يوجد أي دليل يشير إلى وجود الملكية الخاصة في المواشي والقطعان . وهذا مما يجرنا إلى الاعتقاد بأن الملكية الخاصة ، أو بالأحرى الاحتكارية التي كان يفرضها القائد ، هي التي أدت إلى تفكك هذه الجماعات وتشتت شملها .

وهكذا ، فمنذ ذاك الزمن السحيق ، ألقت حذاقة علماء الآثار القديمة ، بتفسير تلك البقايا التاريخية ، نوراً على العلائق الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك . ويبقى والحالة هذه على علماء الآثار أن

يضاعفوا نشاطهم وجهودهم في كردستان ليزودونا بمعلومات وافية عن أجداد الأكراد ، لا سيما في مناطق دجلة العليا وجبال طوروس ، مقرّهم الأصلي المتفق عليه .

ولا بد من الوقوف عند بعض الملاحظات الهامة فيما يتعلق بالحياة المادية التي كان يحياها أولئك الأقوام والتي تدلنا على بعض عاداتهم . وعلى سبيل المثال يخبرنا ميللنجن كيف اكتشف في كردستان آباراً مطينة معدة لحفظ الخمور شبيهة تماماً بالتي يصفها كزينوفون في آناباز . وقد كان ميللنجن على حق عندما علّق على اكتشافه كما يلي :

« إنه لضرب تاريخي يسترعي الانتباه عندما نجد حتى في أيامنا هذه بين شعوب كردستان وأرمينيا أن هذه الشعوب ما انفكت تطبق العادات والتصرفات الخاصة نفسها التي مشى عليها أجدادها وذلك هو دليل آخر يبرهن على أن الأشياء في بعض نواحي الشرق ما زالت على ما هي عليه ، في حين أن سائر الأمم في الأرض قاربت في تطورها الكمال . وما برحت شعوب الماديين والأرمن والكردوخ على طابعها القديم المتجلي في سلائلها . ومثلما أنه يوجد ، في عالم الجيولوجيا ، بقايا مطمورة في الأرض تتحدى عوامل الزمن المدمرة والتحلل الكيميائي ، ففي تاريخ الامم أيضاً يوجد عادات وتقاليد هي بمثابة بقايا مطمورة في التاريخ تبقى صامدة رغم توالي الكوارث الاجتماعية وتفكك الأجناس » .

وإننا مقتنعون بأنه على قدر ما تنجح الأبحاث الأثرية القديمة والانتولوجية في أوساط بلاد الأكراد ، سنتمكن من سد النقص

التاريخي الذي يتركنا حتى اليوم نرود فراغاً هائلًا يمتد من الكلدان (القرنان السابع والثامن ق .م) إلى السيرتيو (القرن الخامس ق . م) والكردوخ (القرن الرابع ق . م) والكرتوا"يا من التاريخ السوري (القرن الرابع ب . م) من ناحية ، والقبائل الكردية التي عر"فتنا إليها المصادر الاسلامية ، من ناحية أخرى .

وكم من تقلبات يقدم لنا مشهد كردستان التاريخي على كر" الزمن ، كما يشير إليها شرموي في مقدمته لتعريب كتاب « شرف نامه » عن الجهة الجنوبية – الشرقية للكردستان المتوسط التي خضعت فيما بعد إلى السلالة المالكة الأرمنية في هيكان ، ثم خضعت إلى الإسكندر الكبير ، ثم إلى الارساسيين الأرمن ، ثم إلى الإسكندر ابن مارك انطونيوس وكليوباترا ، ثم إلى الاوساسيين الأرمن الخاضعين حيناً للفرس وأحياناً لروما ، ثم إلى أردشير وشابور ملكي الفرس ، ثم إلى الأمبراطورية الرومانية ، وعادت من جديد إلى الفرس ،فأمبراطور بيزنطيا تيودوسيوس ،فالأرساسيين الأرمن الخاضعين للفرس ،ومن ثم إلى بيزنطيا مرة أخرى ،وأخيراً للفاتحين العرب الأولين ، فالأمراء الأرمن الخاضعين للعرب ، وللسلالة المروانية الكردية المستقلة التي كانت أول سلالة كردية حاكمة ودام حكمها من ٩٩٠ – ١٠٩٦ ، فخلفتها السلالة الشهرمانية ١١٠٠ - ١٢٠٧ في ديار بكر وأرضروم ثم تناوب عليها الفاتحون الشرقيون : ففي القرن الثاني ظهر السلجوقيون الذين امتدت جحافلهم سنة ١٠٤٩ حتى غابات خوارزم ولكنهم تراجعوا أمام فاراجنوري الحاكم البيزنطي . وكان السلجوقيون يقطعون أمراء

الأكراد الأراضي فيصبح هؤلاء تحت إمرتهم . وبعدئذٍ اضطر الأكراد إلى محاربة المغول : أولاً ضد هولاغو خان في القرن الثالث عشر ، ومن بعده ضد تيمورلنك ، وذلك نحو سنة ١٤٠٠.

وفي القرن الرابع عشر أقدمت من شمال بلاد ما بين النهرين دفعة من الأكراد واتجهت نحو جبال أرمينيا وسلسلة زغروس . وفي حكم أوزون حسن آك كوبونلو ، وقعت بلاد كردستان — حصن كيف ، وبتليس ، والجزيرة وسيرت وهكاري — ضحية الفتح المتراوح مداه ما بين ١٤٦٠ — ١٤٧٠ . وأخيراً ، في القرن السادس عشر احتل بلاد الأكراد فاتحون آخرون من الغرب ، وهم الأتراك العثمانيون . ومنذ ١٥١٤ أي تاريخ الانتصارات العثمانية على الفرس في تشالديران شمالي غربي بحيرة أورميا ، ارتبطت مصائر كردستان بتركيا .

إن هذه المراحل السريعة التي تضمنت أسماءً وعهوداً عدة معروفة في تاريخ آسيا السالفة ، كافية لتنبىء القارىء عن مدى توسع التاريخ الكردي الطالع ، إذ لا يسعنا والحالة هذه ، إلا أن نثني على هذا التاريخ المتنوع الخليق باهتمامنا بشغف بالغ .

اتساع الاكراد في المكان

لا شك أن القارىء قد اطلع في الفصل الثاني من هذا الكتاب على ما هو كافٍ بهذا الصدد . ويكفينا أن نعرف أن الأكراد انطلقوا من موطنهم البدائي في ميديا ثم ساروا مع الأجيال في كافة الاتجاهات.وأقرب مركز لهم من ناحية الغرب يكمن في ضواحي

انطاكيه وحلب . أما من جهة الشرق فنجدهم على حدود أفغانستان ، وقد انتقلوا إلى هذه المقاطعة تحت حكم الشاه عباس الكبير ونادر شاه . ويوجد أيضاً جزر صغيرة كردية لم تنل بعد قسطها من الدراسة العلمية كما يجب . أما الأكراد المتمركزون في الشمال ، فهم أكراد أذربيجان السوفياتية الذين يقطنون منطقة « ويزد » من أعمال كردستان المشكّلة سنة ١٩٢٣ من مقاطعات كوشا ، دفنشير ، وكوباتلي . فهؤلاء الأكراد ينحدرون من الجماعات التي خاضت غمار الحرب التركية ـ الفارسية سنة ١٥٨٩ . وفي الجنوب يكوّن طريق كرمانشاه أبعد حدودهم .

ومن الصعب جداً تعداد القبائل الكردية العديدة والمبعثرة في الزمان والمكان في كل من الدول الخمس : تركيا ، إيران ، العراق ، سوريا ، والاتحاد السوفياتي .

ويفيد كتاب « شرف نامه » أن الأكراد في الأصل ينتمون إلى أربعة فروع أساسية كبيرة . ١ ـ الكرمندج . ٢ ـ لور . ٣ ـ كلحور . ٤ ـ غوران . فالكرمندج يقيمون في إيران ، في المقاطعة الممتدة من بحيرة « فان » حتى إقليم « أردلان » في بلاد فارس . والغوران يشكلون الطبقة المزارعة في أردلان بالاضافة إلى بعض القبائل في جنوبي أردلان وشمالي غربي كرمانشاه . وفي الجنوب يوجد جماعة الكلحور ، وفي الجنوب النائي ، جماعة اللور. لكن الشرقيين لا يعتبرون هؤلاء الآخرين أكراداً .

وحوالي سنة ١٨٥٦ ، قام لرش ، وقد نوهنا عن كتابه في الفصل الأول ، إثر دراسات أوروبية وشرقية دقيقة ، بتنظيم قوائم قبائل

الأكراد في تركيا وإيران وروسيا ، وحصرها ضمن ٦٠ صفحة من كتابه . ومن ذاك التاريخ لم يقم أي شخص بما يشابه هذا العمل ما عدا البريطاني مارك سايكس الذي زار كردستان ووضع قائمة وخريطة عن هذه القبائل . ولكن يجب التنويه ، في هذا الظرف ، بأن هناك دراسات خاصة بالأكراد قام بنشرها مؤلفها مينورسكي في دائرة المعارف الاسلامية . والمؤلف نفسه يدلي بمعلومات دقيقة وقيمة عن القبائل الكردية القاطنة على الحدود التركية ــ الإيرانية ، والتي تسنى له دراستها بوصفه ضابطاً روسياً موجلاً في تحديد التخوم المذكورة سنة ١٩٠٤ . وقد نُشرت هذه الدراسات في الأوراق السرية التابعة لوزارة الخارجية الروسية ، ولذا ، يصعب على كل شخص أن يحصل عليها .

ونظراً لعدم تمكننا من تلخيص هذه المستندات والوثائق الوافرة ، حتى بشكل مختصر ، سنكتفي بسرد الوقائع الهامة ، مستعينين بدلائل من مؤلفات « سوان » ، هذه الدلائل التي نكملها أو نعدّلها عند الحاجة بمعلومات مستقاة من مصادر أُخرى .

قبائل كردستان الوسطى : تركيا

عندما نتوجه بادىء ذي بدء إلى وسط كردستان القديم ، نحو بتليس ومقاطعة هكاري ــ الزاب الكبير العالي والجبال الممتدة جنوب بحيرة « فان » حتى دجلة وجزيرة ابن عمر ــ نلتقي بقبيلة هكاري . فبعد فتح تيمورلنك لديار بكر في القرن الرابع عشر ،

عُين الأمير كارا عثمان كحاكم لمقاطعة هكاري . ولما رأى الأمير أن فتح هذه البلاد الجبلية صعب تزوج من بنات الاقطاعيين في المنطقة تقرباً إليهم .

وقد خدم أبناء هذا الأمير المنطقة خدمات كبرى وبسرعة فائقة بسطوا نفوذهم على بتليس حيث دام عهدهم حتى القرن التاسع عشر .

هذا ملخص ما يقوله « سوان » بصدد هكاري . ولكن نلفت النظر إلى أن هذا التاريخ يناقض تماماً ما جاء في كتاب « شرف نامه » الذي نفضّله ، لأن « سوان » كان يعرف تماماً أكراد السليمانية وأردلان والأكراد المقيمين في المناطق الجبلية ، ولكن معلوماته عن الشمال ليست أكيدة . وقادة قبيلة هكاري الذين كان مقرهم في دجولامرغ ـ بعد أن طردهم آل عطا بك زيكوين من أماديا سنة ١٢١٧ ـ على الزاب العالي الكبير ، كانوا يدّعون أنهم من سلالة العباسيين . إن أول أمير بين هؤلاء يذكره «شرف نامه » هو الأمير عز الدين وقد حاول مقاومة تيمورلنك في قلعة « فان » سنة ١٣٨٧ ، ولم يجرِ هناك استبداله بأي شخص يدعى كارا عثمان كما يقول سوان .

وهذه السلالة الأولى حلت مكانها قبيلة دونبولي . غير أن عائلة أخرى من الأمارة المحلية تسلمت الحكم بمساعدة النسطوريين وأخذت لقب شمبو . وكانت سلطة هذه السلالة تمتد شمالاً حتى مقاطعة الباك وعاصمتها باش قلعة . وقد نزع الأتراك الحكم من نور الله بك آخر ممثل لهذه السلالة وذلك سنة ١٨٤٥ ثم سلمت باش قلعة إلى السلطات العثمانية بواسطة حليمة خانم .

أما فيما يتعلق بأمراء بتليس ، فكان هؤلاء يدّعون أنهم ينحدرون من سلالة الساسانيين الفُرس وكانت قبيلتهم تدعى روزاكي وتعد ٢٤ معسكراً .

ولنأخذ الآن بعين الاعتبار أنه لا يجوز خلط الإقطاعي مع القبيلة . إن الحاكم الاقطاعي يحكم قبائل كثيرة قد تكون كردية، أو متسكردة أو مسيحية . ويحتمل أن لا يكون القائد كردياً ، كما مرّ بنا ، في بعض الفصول . أما أُمراء بتليس فكانوا يحملون اسم سارسبكس . وكان لديهم في بتليس قلعة ملكية وجيش مؤلف من ٢٠ أو ٢٥ ألف خيّال . والسلطان والشاه كانا يودان مصالحتهما نظراً لموقع بتليس الستراتيجي الواقع على الطريق التي تصل حلب بطوريس . ومنذ نهاية القرن الثامن عشر أخذ كل أمير من هذه السلالة يقوم بتقدمة هدية صغيرة للباب العالي ، وذلك على سبيل المجاملة . فأصبحت هذه السلالة قوية جداً ، ووقعت اتفاقيات مع قبائل جزيرة ابن عمر .إلا أن أمراء وبكوات آماديا دجولامرغ وروندوز انتموا إلى قبيلة هكاري . ومن المحتمل أن يكون « سوان » على حق فيما يتعلق بآماديا ودجولامرغ ، غير أن الجزيرة وروندوز بقي لهما أُمراؤهما وحكامهما ، مستقلين وفي معزول عن كل نفوذ خارجي ، وغير مبالين بأطماع بلاد فارس وتركيا في بقاعهم التي يصعب الوصول إليها .

وإن الفضل الأكبر في بسط سلطان هذه القبيلة على بقاع كردية أخرى يرجع إلى أدريس ، الوزير اللامع في بلاط السلطان سليم ، وهو كردي من هكاري .

بوجه عام ، لا شك في أن زوال العهد الاقطاعي في تركيا ووهن سلطة البكوات الأتراك ، فتحا مجالات جديدة للأكراد . فتمكن هؤلاء من الاستيطان في أرمينيا ،وذلك بفضل عمل سياسي حاسم قامت به الحكومة التركية . فعلى أثر الانتصار على الفرس في سهل تشالديران سنة ١٥١٤ ، أجرى أدريس المذكور تبديل أقوام الهيدرنلو والقبائل المتضامنة معها في الشمال ، في أرمينيا ، على طول الحدود الجديدة التي تفصل تركيا عن إيران وجورجيا ، وذلك بغية الدفاع عن الحدود التركية. وقد أعفى هذه القبائل من الضرائب شرط أن تؤلف منها نوعاً من الحرس الدائم في خدمة الدولة التركية . ولكن خلال الحروب الواقعة أعوام ١٨٢٩ ، ١٨٥٤ ، ١٨٧٧ ، كان موقف الأكراد مبهماً فخابت الآمال التي علقها الأتراك عليهم .

هل كانت هذه الحقبة من الزمن هي تاريخ استيطان الأكراد في أرمينيا بالضبط ؟! إن مينورسكي يعتقد أن الأكراد البدو انتشروا في أرمينيا أبان عهود سابقة .

إن أجداد صلاح الدين الأيوبي ، من قبيلة رفند ، كانوا من البدو الذين سكنوا في القرن العاشر قرب دفين وهي من أعمال أريفان . ولنذكر أيضاً ، نقلًا عن شرف نامه ، أن قبيلة روزاكي انتزعت بتليس وخازو من أحد أُمراء جورجيا واسمه دافيد . والمصدر نفسه يفيد أن قيام السلالة الحاكمة في بتليس صار

في سنة ٨٣٧ ، وعلى اعتبار أن هذا التاريخ هو موضوع شك والتباس . فهذا الحدث قد حصل بالطبع قبيل القرن العاشر أو الحادي عشر . وهكذا ، استولى الأكراد تدريجياً على بعض الأجزاء من المملكة الأرمنية التي زالت في القرن الحادي عشر . ويوجد أماكن عدة في أرمينيا يقيم بها الأكراد ، وهذه الأماكن على كل حال ليست للأكراد وطناً أماً . وأهم القبائل الكردية في أرمينيا – ولاية أرضروم – هي : زيركي ، دجيبرنلي ، زركنلي ، رلنلي ، حسننلي ، حيدرنلي ، ادمنلي ، سبكنلي .

وأمراء بتليس ، المتمتعين بالاستقلال الناجز ، بلغوا أوج سلطانهم في القرن السادس ، والسابع ، والثامن . وكانوا يعترفون ببعض السيادة الفارسية أو التركية تارة ، ولكنهم كانوا يرفضون لهم كل مبرر للتدخل في شؤونهم طوراً . وآخر أمير لهذه السلالة هو شريف باشا الذي صمد أمام الأتراك عدة سنوات في النصف الأول من القرن التاسع عشر آن بذلت تركيا كل ما في وسعها لإخضاع كردستان ووضعها تحت سلطتها . ثم أسر في سنة ١٤٨٩ وأرسل إلى القسطنطينية ، ومنذ ذلك الحين ، أصبحت بتليس تحت الحكم التركي .

وبالرغم من أن جماعة هكاري حُرموا من عاصمتهم ، فهم ما زالوا يمثلون حتى أيامنا هذه قبيلة عظيمة وشهيرة يحسب لها ألف حساب في المنطقة الجبلية حيث تقطن . والأتراك يمارسون معها سياسة تساهل كيما يتسنى لهم الاعتماد على إخلاصها في تلك المنطقة الواقعة على الحدود .

إن سوان قام بشروحاته بهذا الشأن قبيل الحرب العالمية الأولى. ومنذ ذلك التاريخ طرأت تبديلات على أوضاع الأكراد. وأبان الحرب، خاضت هذه القبيلة قتالاً مرّاً إلى جانب الأتراك وأتلفت القبائل النسطورية في المقاطعة، وظلت الاضطرابات تسود هذه المنطقة حتى تحديد التخوم التركية ـ العراقية الذي لم يحصل إلا في عام ١٩٢٥. ولا يظهر في الوقت الراهن أن السياسة التركية تتمكن من تركيز دعائمها على إخلاص الاكراد.

وهناك عادة غريبة في هكاري تطبق عند تولي الحكم. فإذا تبين أن الخان المحلي غير جدير بتسلم أعباء الحكم، يجري استدعاء الاعيان والوجوه للاجتماع. فينظر هؤلاء في الوضع حتى إذا تأكد لهم أن الخان غير جدير بالحكم، وإذا ثبت زوال حقه، وُضع أمامه حذاء يجب عليه أن ينتعله ويغادر الاجتماع بعد إعطاء موافقته على تعيين شخص سواه لتسلم الحكم. وذلك دون استصفاء أموال وأملاك الخان الساقط.

وفي إقليم درسيم «ولاية خربوت» بجوار هكاري، يوجد أكراد قبيلة زازا وهي قبيلة منعزلة عن غيرها يُعرف عنها فقط أنها تعيش في الجبال منذ أجيال بعيدة. وقد قال سوان بصددها: «آسف جداً لأني لم أتمكن من زيارتها. ولهجة هذه القبيلة على الرغم من أنها آرية من صفّ الفارسية والكردية، إلا أنها لا تشبه لا هذه ولا تلك. وهذه القبيلة تسكن في منطقة دجلة العالية. ويتحدث المسافرون عنها أن شعبها الصغير يتميز بالشجاعة، وأن قاماتهم أقرب إلى القصر منها إلى الطول. وفيهم نسبة كبيرة من

ذوي العيون الزرقاء والشعر الأشقر » .

قبائل كردستان الجنوبية : العراق

١ ــ البابـــان

إن الطريقة نفسها التي طبقتها تركيا في أرمينيا للحفاظ على حدودها في الشمال ، امتدت فيما بعد إلى الكردستان الجنوبي الذي يشكل حالياً جزءاً من العراق ،وذلك منذ ضمها إليه السلطان مراد الرابع . وقد استمر في حكم هذه المقاطعة البكوات الأكراد بالوراثة ، وفي مستهل القرن الثامن عشر وُضعت هذه المنطقة المسماة إيالة شهرزور مباشرة تحت تصرف نائب ملك العراق ، الذي أخذ يعين منذ ذلك الحين البكوات الأكراد في ٦ سناجق : كركوك ، إربل ، كوسنجق ، كارتشولان ، رمندوز ، صرر . وكان الباب العالي يغدق على هؤلاء البكوات لقب باشا . وكان البكوات بدورهم يتعهدون بمساعدة الأتراك عسكرياً لردع أعدائهم كما يتعهدون لهم بتموين الجيوش التركية في إقليم العراق .

وفي هذا الجزء من كردستان توجد قبيلة بيبي أو بابان التي خلفت قبيلة سوران المنقرضة ــ المذكورة في شرف نامه . وقد لُقبت القبيلة بهذا الاسم تبعاً لقائدها بيبي سليمان من « بشدر » الذي أدى إلى الأتراك سنة ١٦٧٨ خدمات عظيمة لما كانوا في عراك مع الفرس . ومن ثم أسس أحد بكوات هذه العائلة ابراهيم باشا ، عام ١٧٨٦ في محلة مليك هندي ، بلدة أسماها السليمانية وذلك على شرف

« بويوك سليمان » نائب ملك العراق . فأصبحت السليمانية مقراً لبكوات جماعة البابان . فاسماعيل حقي التركي عضو مجلس النواب في القسطنطينية ، ينتمي إلى هذه العائلة . كذلك حمدي بك بابان الذي جمع مستندات هامة عن تاريخ عائلته وقبيلته . وآسف أن أذكر بهذا الصدد أن كافة المستندات التي كانت في حوزتي طيلة أعوام ، استرجعها حمدي بك بناء على طلبه ، إذ أنه كان آنذاك يقيم الدعوى في لندن ضد الحكومة البريطانية مطالباً باسترجاع أملاكه المضبوطة . وأيضاً ضمت حكومة بغداد في وزاراتها أكثر من مرة أشخاصاً من آل بابان .

٢ ــ الهماوند

ولنذكر أيضاً في هذا الجو اتحاد الهماوند . والهماوند قبيلة كردية لعبت دوراً خطيراً حاسماً في الحرب الروسية ــ التركية ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨ تحت اسم باش بوزاق ، أي: الخيالة غير النظامية . وكوفئت على ذلك بتوسيع أراضيها في منطقة بازيان «تشامتشامل» . ولهذه القبيلة شهرة خاصة في المغامرات الكثيرة التي تقوم بها . وقد قال ديكسون فيها : إن البلاد الواقعة ما بين كركوك والسليمانية هي مقاطعة أكراد الهماوند الشجعان ، وهم قبيلة من البدو الذين تجد لديهم بصورة دائمة نحو ألفي بندقية حربية . وهم لا يجدون ما يشرّف المرء مثل الخيل والسلاح والمغامرات واللقاء في ساحات القتال . لذلك تخافهم قبائل الأكراد الأخرى والمناطق المجاورة . وكتب ديكسون أن حكومة تركيا حاولت معاقبتهم في مطلع

القرن العشرين . وبعد جهد جهيد ومناورات لا تحصى تمكنت فصيلة تركية من إلقاء القبض على عدد منهم ، فأرسلوا إلى طرابلس. وبهذا الصدد قال لي أحد قادتهم بفخر واعتزاز ، إن أولئك الذين ألقي القبض عليهم قد فرّوا من السجن بعد ثلاثة أسابيع ورجعوا على الأقدام حتى بلغوا التخوم الفارسية . ويرتدي هؤلاء ثياباً نصف عربية ، ويمتطون الخيل كالعرب ، ويتاجرون بها . أما على الروابي المرتفعة فلا يمتطي الأكراد إلا البغال ، وهم يعتبرون الفرس غير صالح للركوب . فالسفر في هذه المنطقة مجازفة خطرة . وقد رافقنا مرة رئيس فرقة مع رجاله فأرادوا إيهامنا بقوتهم ومقدرتهم ، لكن في الحقيقة ، لا فرق بينهم وبين العرب الرحّل المسلحين . والخيام التي يسكنون فيها ما تزال بدائية ، وهم لا يعرفون الترف الذي تتمتع به الأقلية الضئيلة من الأثرياء بينهم .

قبائل كردستان الفارسية

١ ــ الموكري

لندع في الوقت الحاضر الأراضي التركية ولنتوجه إلى الجنوبي ــ الشرقي حيث نجد في بلاد الفرس قبائل موكري وأردلان .

إن قبيلة موكري التي تحتل البلاد الواقعة جنوبي بحيرة أورميا ، تمثل الفرع الجنوبي لأكراد الشمال ، والموكري يتكلمون لغة كردية يبدو أن لفظها وتصريفها أدق من سائر لغاتهم جميعاً .

وهم يدّعون أن لغتهم هي أقدم لغة . وأقدميتها قد لا تزيد عن أقدمية سائر اللغات الكردية ، لكن المحافظة التامة على أشكالها القديمة تسمح باعتبارها كقاعدة للمقارنة بين سائر اللغات .

إن قبيلة موكري ، نسيبة قبيلة بيبي في شهرزور ، ظهرت في منطقة « ساوج بولاك » في القرن الخامس عشر ، وعلى رأسها قائد يدعى سيف الدين .فانتصرت على أتراك « دجابوكاو »وأخذت منهم قضاء درياس«شهريفران»ومن ثم احتلت أقضية« دولا باريك» وهي :« أخطتش ، والتامور ، وسولدوز » . وفي عام ١٥٨٣ ، وكل السلطان مراد الثالث إدارة أرض شاسعة جداً إلى أمري بك من سلالة سيف الدين . وتشتمل هذه الأراضي على « الموصل وشهرزور وإربل » وغيرها حتى فرغانة شرقي بحيرة أورميا . وتحت حكم ابنه ، حيدر خان ، كانت قبيلة الموكري تحكم أقضية مراغة وأدجاري وليلان ،كما كانت تحكم مدينة « ميندواب » ومحلة « ساروكورغان » القوية قرب مراغة .

وجماعة الخان في موكري ينقسمون إلى فرعين : بابا إمري وبابا ميري . وقبيلة دبوكري في كردستان (موكري) لا تزال تعيش معهم . وهذه القبيلة قليلة العدد . وهي من جهة أخرى ، تشارك في حياتها سواها من القبائل المتمركزة في الغرب وفي الجهة الغربية الجنوبية ، كما وأن هذه القبيلة معروفة تماماً في تلك البلاد نظراً لحكامها المقتدرين الذين كانوا ، منذ أجيال ، أصحاب السلطة في عاصمتهم « ساوج بولاك » . فالشاه عباس ، ونادر شاه ، وفتح علي شاه ، جميعهم ، اعتمدوا في أعمالهم الحربية على جماعة

موكري الأشداء. فالشاه عباس مدين بانتصاراته للأكراد الذين كانوا يشكلون الأكثرية الساحقة في جيشه وقد هزم الأتراك في معركة كبرى سنة ١٦٢٤، فضلاً عن أن هذه القبيلة كانت دائماً بالمرصاد لقبيلة بلباس المجاورة لها والمعروفة بمغامراتها الكثيرة. مع العلم أن قبيلتي موكري وبلباس تنحدران في الأصل، من قبيلة واحدة تتكلم لغة واحدة. وقبيلة بلباس عظيمة الشأن ولها في بلاد ما بين النهرين الأقسام التالية : منفور، بيران، ماماش، وأودجخكا هيدري.

ومن الزعماء الموكريين، بوداك خان الذي أصاب مثل غيره، شهرة واسعة. وأُطلق عليه اسم أنو شروان الثاني (دخل هذا الملك الساساني التاريخ حاملاً صفة الملك العادل) وذلك نظراً لعدله.

عاش بوداك خان في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، فتبنى، أول الأمر، قضية الأسرة الكردية في زند، تلك الأسرة التي أعطت بلاد الفرس ملكاً هو (كريم خان). غير أن جماعة القاجار تغلبوا عليه في النتيجة. فاضطر إلى التحالف معهم وكان إذ ذاك تحت حكم فتح علي شاه. ثم اعترفوا به كأمير لموكري. وعلى الأثر، قامت شخصيات كبيرة من الموكريين بتقديم خدماتهم إلى عشائر القاجار، كمجيد خان مثلاً الذي تبوأ منصباً هاماً فيما بعد واسماعيل آغا دبوكري الذي أصبح مستشاراً في بلاط شاه إيران، وهلمجراً. وبالتعاون مع الجيوش الحكومية التي بعث بها عباس ميرزا، ولي عهد أذربايجان وحاكمها العام، قام بوداك خان برحلتين استهدفتا تأديب جماعة بلباس.

وتاريخ القاجار يأتي أيضاً على ذكر قائدٍ موكري آخر اسمه عزيز خان زعيم عائلة بابا ميري وذلك في عهد محمد شاه وناصر الدين شاه . وقد بدأ نشاطه في طوريس يوم وقعت المصالحة بين بوداك خان والقاجار ، ثم كلف ببعض البعثات السياسية (في قضية هيرات) والادارية (في قضية شيراز) حيث أنهى مهمته بنجاح باهر وعهد إليه منصب « أدجودان باش » أو حاكم عسكري لطهران في بداية عهد ناصر الدين . كما أنه كلف من قبل الشاه بتقديم التمنيات والهدايا إلى ولي عرش روسيا إبان زيارة هذا الأخير لأريغان . وهو في طريقه إلى أريغان اضطر عزيز خان إلى الاهتمام بثورة بيبس فأخمد نيرانها . أما في طريق الإياب ، فقد أجرى ترتيب بعض القضايا العسكرية . ومن ثم بناء على أمر الشاه ، قام بتنظيم مصالح السلطة في العاصمة التي حققها أكراد موكري وأكراد كلحور وأفشارس تحت قيادة ابنه علي خان . ومكافأة له ، عيّن عزيز خان رئيس أركان الحرب العامة في الجيش الفارسي . ولكن على أثر الدسائس التي قام بها كلٌ من الصدر الأعظم وميرزا آغا خان . أتهم عزيز خان بالتآمر مع الروس والانكليز بغية سلخ كردستان عن بلاد الفرس ، الأمر الذي اضطره إلى العودة لمنزله في بوكان . وهناك شارع في طهران يدعى شارع عزيز خان .

ومن الفائدة بمكان أن نذكر أن مقاطعة موكري هي مسقط رأس النبي الفارسي العظيم زرادشت . كما وأن آثاراً قديمة لبلدة شيز عاصمة الماديين معروفة باسم « تخت سليمان » ولا تزال قائمة في شمالي تلك المنطقة . ولا تزال هذه الحرب موجودة في إقليم الأفشارس

في جوار « ساين كالا » حيث قهر الساسانيون مارك انطونيوس ، وهو على ارتفاع تسعة آلاف قدم عن البحر . والشعب هناك يعتقد أن قصر سليمان المحاط بالجن كان قائماً في هذا المكان . وعلى قمة مجاورة مرتفعة ألف قدم ، تضع الأساطير قصر الملكة سبا المبني من عظام الطيور والمدعو « تخت بلقيس » .

وقد يرجع اسم « تخت سليمان » إلى سليمان شاه الذي كان حاكم كوردستان في القرن الثالث عشر . وهنا كانت في قديم الزمان كما يروى ، عاصمة ميديا حيث كان سيروس يحرص على كنوز كريزوس ! وجماعة موكري الذين يعرفون أساطير هذه الأمكنة ، يستشهدون بها ليثبتوا أنهم الأكراد الأصليون .

٢ — بنو اردلان

إن بني أردلان المجاورين للموكريين ، في الجنوب ، كان دورهم في التاريخ الفارسي أبرز من دور جيرانهم الموكريين . وبلدة « سنّات » هي عاصمتهم . وقد حكمت إقليم أردلان منذ القرن الرابع عشر أسرة من النبلاء كان الحكم قبلها بيد أمراء أردلان الأقدمين . وتدّعي هذه الأسرة بأنها من سلالة صلاح الدين الأيوبي الذي كان هو نفسه كردياً من « حسن كاييف » وهي عشيرة تابعة لقبيلة هكاري [١] . و « سنّات » هذه بلدة قديمة جداً تشهد على

١ ـ ان قبيلة صلاح الدين ، راوند وروادي ، أصلها من شمال مقاطعة آراكس ، ثم انتقلت الى الجنوب وقد عاش والد صلاح الدين في تكريت ، قرب الموصل .

قدّمها الكتابات العديدة التي اكتُشفت في ضواحيها والتي ترجع إلى عهد الساسانيين . ومقاطعتها الجنوبية الغربية ــ أي حلوان وزوهاب وقصر شيرين الحالية ــ كانت مقر الملوك الساسانيين . وعندما شيدت « قصر شيرين » في العهد الساساني ، قامت بلدة حلوان التي امتدت وإقليمها حتى شهرزور حوالي ٤٠٠ سنة ق . م.

وبعد أن حكم حكام أردلان عدة أجيال بشكل مستقل تماماً ، تبنوا اللقب الذي أغدقه عليهم شاه العجم ، وهو لقب والي أردلان. وظلت مقاطعة أردلان محتفظة باستقلالها وحليفة لبلاد فارس حتى عهد خسروخان بن عمنولاه خان ، القائد الشهير الذي لا يزال اسمه خالداً في تلك المنطقة .

وكان للوالي عند الفرس أهمية كبرى يفيدنا عن ذلك تقرير تسيتسيانوف المبعوث إلى الأمير تشارتوريسكي في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٨٠٥ . وكانت بلاد الفرس ، علاوة على الخانات والمقاطعات الشاسعة التي كانت تؤلفها وترضخ مباشرة لحكم الشاه ، تشتمل أيضاً على أربع ممالك يحكم كلاً منها نائب ملك يسمونه بالفارسية : والي. ومن هؤلاء والي عربستان ، ووالي كوردجستان « ملك جورجيا » ووالي لورستان ووالي كردستان . وهذا الأخير يملك الأراضي المجاورة للممتلكات التركية ،كما يملك مقاطعة « بيازيد » التي كانت قديماً تابعة لوالي كردستان ، والتي تقطنها اليوم شعوب كردية . وكان على هؤلاء الأربعة مهام يتوجب عليهم إداؤها للشاه حين تتويجه في أردبل : فكان على والي عربستان أن يمسك ريشة التاج ، وعلى والي كوردجسان أن يحمل السيف ، أما والي لورستان فيحمل

الاكليل ، ووالي كردستان التاج المرصع بالألماس والحجارة الكريمة .

واتسعت مملكة أردلان عبر الأجيال بعد أن ضمت إلى أراضيها كافة الأقاليم الضعيفة حتى بلغت حدود الجاف وبلاد المو كريين وأمراء رامندوز . والمقاطعات التي ضمتها إليها هي : دجوونرو ، أورمان ، مروان ، بانه ، ساكيز وأقضية حسنباد واسبندباد . كل هذه المقاطعات تؤلف حالياً أردلان وتمثل أقضية إقليم « سنّات » و « سننجوك » .

ويمكننا هنا التوقف عند مقاطعة أورمان التي هي أفضل سائر تلك المقاطعات. إن هذه المقاطعة الصغيرة كانت في الأساس مستقلة، وظل حكامها مدة من الزمن يديرون شؤونها بأنفسهم . وهؤلاء الحكام كانوا يزعمون أنهم من سلالة رستم ، البطل الفارسي الوطني . والناس في هذه المنطقة يتكلمون لغة خاصة ، وهم يعتبرون أنفسهم أنهم أوراميون لا أكراد . وفي الحقيقة إن الأوراميين ، كالغوران، هم من أصل فارسي . وهم يعيشون في وادٍ محاط بالجبال ، ولهم عوائدهم الخاصة . ومن أساطيرهم واحدة تروي أن داريوس ملك الفرس طرد سلفهم الأول ، أورام ، من وطنه ، إلى جهة ديفند شمالي العجم ، ففرّ أورام بصحبة أخيه قندول ، والتجأ إلى تلك الجبال المنعزلة حيث أقام وأسس قبيلة أوراميا .

وكثيراً ما حاولت أردلان وهي في أوج مجدها إخضاع هذه القبيلة ، ولكن دون جدوى . فقبيلة أوراميا لا تزال وحدها حتى

اليوم تشمخ مطمئنة إلى حريتها .

وقد دام عهد الأسرة الحاكمة في « سنّات » حتى القرن التاسع عشر . وكان عمنولاه خان ، والي أردلان إبان العقدين الأولين من القرن التاسع عشر ، من أبرز الحكام .

وقد ربطت الأسرة الحاكمة في هذه المدينة مصيرها بمصير قبيلة القاجار عندما أخذت هذه الأخيرة تطمح إلى العرش الفارسي ، وعقدت معها اتفاقية صداقة وتحالف ، ثم أسهمت مع جيوشها في المعارك ، وذلك بقيادة حاكمها لطف علي خان زند المنكود الحظ الذي أدت هزيمته ووفاته إلى ترك العرش بين أيدي القاجار .

وخسروخان بن عمنولاه تزوج وليّة خانم ابنة فتح علي خان ، المرأة المقتدرة التي أمسكت زمام الحكم بعد وفاة زوجها . ثم خلفها غلام شاه خان سنة ١٨٦٥ وكان آخر ولاة أردلان . وبعد وفاة هذا الأخير قام ناصر الدين شاه ليتصرف بالحكم مدّعياً القرابة من الأسرة التي كانت تحكم أردلان . وفيما كان المرشحون في انتظار القرار النهائي ، أقدم فجأة على تعيين عمه « متعمد عود دولة » الرجل الصلب ، حاكماً على كردستان .

ولم تصطدم هذه الحكومة بأي ردة فعل جديرة بالذكر من قبل أهل أردلان . وهكذا بات من السهل على « متعمد عود دولة» أن يضمن موقفه في « سنات » . لكن الحالة كانت على خلاف ذلك لما توجه إلى أورمان فأبى جماعة هذه الأخيرة الخضوع إلى حكام أردلان ، إذ أنهم كانوا يتذمرون قائلين إن الشروط التي تفرضها سيادة العجم قاسية وبالتالي ليس في استطاعتهم أن يتحملوها .

ولم يتوصل « متعمد عود دولة » لإخضاع حسن خان سلطان أورمان ، إلا بعد معركة شاقة وطويلة . ومع ذلك فقد كان احترامه وتقديره لهذه القبيلة شديدين إلى درجة أنه عهد بالسلطة بعده إلى ابن حسن خان وإلى أخيه .

وفي أيامنا هذه يقع جزء من مقاطعة أورمان في الأراضي العراقية . أما الجزء الآخر والأوسع ،فيقع في الأراضي الفارسية . ومع أن حكام هذين الشطرين يخضعون رسمياً إلى هاتين الدولتين ، فهم لا يزالون أحراراً هنا وهناك .

أما أسرة حكام أردلان السابقين فبالرغم من حرمانها من الحكم ، لا تزال معروفة تماماً ولها مكانة مرموقة بنظر الحكومة الفارسية . وكان أحد شيوخها المتأخرين ، فخر الملوك ، رجلاً مثقفاً جداً تبوأ عام ١٩١٧ منصب حاكم شوستر ودزفول في عربستان .

إن هذا الموجز التاريخي الخاص بمقاطعة « سنّات » يفيدنا أن الأكراد سواء في تركيا أم في العجم ، غالباً ما كانوا يفلحون بإنشاء ولايات مستقلة في كل تصرفاتها وأعمالها حتى ولو كانت خاضعة إسمياً لأحد هذين البلدين تركيا والعجم .

٣ ــ الجاف

لنتوجه الآن إلى جيران أردلان حيث قبيلة الجاف . إن هذه القبيلة تتمتع بشهرة حربية واسعة في وسط الكردستان الجنوبي . ولم نكن نعرف شيئاً عن تاريخها سوى أن ما نقوله هنا هو كما قال « سوان » ترجمة عن أقوال الأسرة الحاكمة . وقد سمح لنا بنشر

ذلك محمد عليّ بك بشتهال ، من « كزيل ربّاط » في الجنوب الأقصى من كردستان ، وهو أحد أعضاء الأسرة الحاكمة المذكورة .

يُعتقد أن هذه القبيلة سكنت في قديم الزمان في « جوانرو » إحدى مقاطعات أردلان السابق ذكرها وذلك حتى عام ١٧٠٠ ، فكانت طبعاً تحت سلطة حكّام أردلان . وكان هؤلاء الحكام يحاولون تدعيم سلطتهم على هذا الاقليم بدافعين : الدافع الأول طمعهم في إقليم « جوانرو » الخصب . والدافع الثاني قلقهم من قوة قبيلة « الجاف » المحاربة . وذات يوم على أثر معركة دامية لاقى فيها قائد « الجاف » حتفه ، أُسر ابنه وأخوه ثم قُتلا . أما سائر زعماء القبيلة فقد لاذوا بالفرار تحت حماية باشا السليمانية الكردي. ولم يبق هناك إلا بعض العشائر الصغيرة التي كان تعلقها بالأرض الأم يفوق بحدته كرهها للغزاة . وإن بعض أبناء هذه العشائر من هذه القبيلة ولا سيما عشائر كادير ، وميرفايسي ، وتيكاي ، ويوسف عار أحمدي ، وكوعيف ، ونردجي ، وكرخيش ، لم يتمكنوا من احتمال استبداد حكام أردلان المتعجرفين ، فالتجأوا إلى جماعة « غوران» وتبنوا اسمهم وهم يُعرفون الآن بجماعة جاف ـ غوران.

وقد منح باشا السليمانية الكردي حمايته لزعماء الجاف وسمح لخيماتهم بحق التنقل ربيعاً وخريفاً في الأوساط التي يعيشون فيها اليوم ، أي من «بندجفين » شمالاً حتى « كزيل الرباط وخناقين » جنوباً .وهكذا أصبحوا مواطنين أتراكاً قديماً ، ومواطنين عراقيين حالياً .

وفي عام ١٩١٤ بلغ عدد المقاتلين في هذه العشائر من قبيلة جاف ،ماية ألف رجل . ويصرح محمود باشا زعيمهم أن بوسعه أن يجنّد ٤٠٠٠ خيّال بظرف بضع ساعات .

وتعيش جماعة الجاف في فصل الشتاء غربي نهر سرفان ، من خط « خناقين — كارا — صالحية » حتى جبال « كارا داغ » كما تعيش في « شميران » وفي سهل شهرزور . ومنهم ألفا أسرة لا تبدّل مواطنها ، وثمانية آلاف أسرة تقريباً رحّالة . وكان أول مهاجر من « جوانرو » إلى جنب بحيرة « سرفان » شخصاً يدعى « زهير بك » ، وذلك منذ ٣٠٠ سنة . ثم تبعه آخرون حوالي عام ١٦٣٨ .

وقد ساعدت قبائل الجاف السلطان مراد الرابع عندما احتل بغداد . فمنحهم السلطان مقابل جهودهم لقب المراديين ، ذلك اللقب الذي قلما هو معروف هناك . غير أن ما يعادل ٤٠٠٠ عائلة بقيت في إقليم جوانرو ، بينما استقرّت ١٥٠٠ عائلة في مقاطعة غوران .

وقد استعرض فوريه (١٨٤٥) في كتابه « رحلات ومغامرات في العجم » ، بعض لمحات خاطفة مأخوذة من صميم الواقع ، فوصف مثلا وسط « خناقين » حيث تحتشد جماهير الغزاة التابعة للأقضية المجاورة فقال : « إن روعة السلاح الذي بيد كل من هؤلاء والذي يتألق على ثياب مزركشة متألقة لمّما يثير الإعجاب فعلًا بهؤلاء القوم ! » ثم تحدث عن هجوم غاشم قام به قائد فصيلة من الخيالة الفُرس على قبيلة الجاف ، قائلًا :

« لقد قام القائد بهذه الحملة غير المشروعة لكي يتموّل على حساب

هذه القبيلة ، ثم يبعث إلى الشاه بتقرير كاذب يحمل هذا الأخير على الاعتقاد بأن قائده خادم باسل مندفع ومطيع . لكن القبيلة سددت الضرائب المترتبة عليها فقطعت على القائد المذكور غايته من وراء هذا الهجوم ولم تكن إلا مضاعفة أرباحه . ثم أبت إجابة رغباته بصلابة وعناد ! » .

وعُرف باشوات الجاف بشموخهم واعتزازهم، وهم لا يتكلمون كثيراً لكنهم ينفذون بسرعة. وقد اتخذوا تدابير حاسمةوإجراءات صارمة في غضون القرن الأخير ليمنعوا كل ما يمكن وقوعه من انشقاق في صفوف القبيلة. وقد لوحظ أيضاً أن بين القبائل الكردية الكبرى ، قبيلة الجاف وحدها التي أثبتت أنها قادرة على صيانة استقرارها الداخلي . وبفضل تصرفات حكامها الواعين ، نعمت بالتقدم والازدهار المنشودين .

وهناك طابع موصوف في حياة الأكراد لولاه لكانت الحال عكس ما هي عليه اليوم ، ولكانت تركيا والعجم قد تعرضتا لأخطار الغزوات الكردية . وهذا الطابع هو عدم تمكن القبائل الكردية من العيش بسلام مع بعضها . وهو طابع تتسم به شعوب المناطق الجبلية عامة .

والآن لنستمع إلى سوان يتحدث عن جماعة غوران : « من المحتمل أن تكون هذه القبيلة أشهر من سواها من القبائل الكردية، نظراً لأنها جذبت نحوها العدد الأكبر من زوار بلاد فارس الغربية وكردستان الجنوبية. ويبلغ عدد قبيلتي غوران وجاف عشرة آلاف عائلة يقضون الشتاء في سهل زوهاب وغربي هذا السهل ،ويصطافون

في « سربول و كرند » وفي « رجاب وماهيدخت » . ومن المحتمل أيضاً أن جماعة « كلحور » ساهموا في تكوين هذه القبيلة ، واتخذوا لأنفسهم اسم غوران الذي يطلق إجمالاً على المزارعين » .

غير أن « سوان » يعتقد أنه إذا أمعنا النظر في اتنولوجية هذه القبيلة ، قد يتبين أن جماعة « غوران » هم من أصل عجمي أو لوري ،لا كردي، إذ أن هناك قبائل عديدة على التخوم التي تفصل كردستان عن لورستان لا هي كردية ولا لورية لكنها تتكلم لغة لا يزال فيها بقايا من لغة « تدجيك » ،وهي لغة فارسية قديمة [1] .

مع ذلك ، فهذه اللغة القديمة لا تزال اللغة الكلاسيكية التي تتكلمها أردلان . وهي تُستخدم في الأشعار التي كُتبت وما تزال تُكتب في « سنّات » وجوارها . ويسمونها اليوم لغة الأورامي أو الشهرزوري .

فالقبيلة الكبرى والأكثر نفوذاً ، التي تحكمها عشائر السلاطين وتزعم أنها تنحدر مباشرة من بهرام جور . وهذا الأخير ، كما هو معلوم ، كان أحد ملوك الساسانيين وحكم من ٤٢٠ إلى ٤٤٠ . و « جور » تعني في الفارسية : فراء ــ لأن هذا الملك كان صياداً شهيراً . ولاقى حتفه إذ وقع في بئر بينما كان يصطاد الفراء .

وقد قال فيه عمر الخيام الشاعر الشهير ، ما يلي :

انظر كيف انتقم اللحد من بهرام
الذي قضى حياته يصطاد الفراء !

---

١ ـ التدجيك لغة ايرانية تستعمل في تدجيكستان السوفياتية الحالية وليست لغة فارسية قديمة كما يقول سوان .

وعقب سنة ١٦٣٩ ، عندما عقدت تركيا والعجم معاهدة تخطيط الحدود فيما بينهما ، وعندما انضمت إليهما قبائل الجاف وسواها ، حكمت عشائر غوران بسلطة واسعة من عاصمتها في « جهواره » شمالي شرقي الكرند وجنوبي شرقي جبال دلاهو . وقد اشتهرت بأشعارها وقصائدها ، لذلك نرى أنواعاً كثيرة من أشعار الأكراد تحمل أسماء غورانية .

لكنهم في الأزمنة الأخيرة فقدوا كل سلطة ، وعلى أثر الوهن الذي سيطر على زعمائهم اندثروا تماماً وتركوا الميدان لقبيلة «كلحور» التي هي الآن أشد مما كانت عليه في أي وقت مضى بفضل القبائل الصغيرة التي تؤلفها والمتحدة معها تحت اسم واحد .

جماعة الكلحور

منذ أجيال ، تعيش جماعة الكلحور على الضفة الجنوبية من كردستان الفارسي ، على حدود كرمانشاه . وهي تتألف من ٢٥ فرعاً من الأهلين المقيمين والرحالة . وبعض هذه الفروع تملك أوساط سكن دائمة وهي تقيم فيها صيفاً وشتاءً . لذلك فقدت مع الزمن أراضيها ومواشيها فاضطر أبناؤها إلى اللجوء للعمل كرعاة وخدم . وتعيش الأكثرية منهم حياة رحالة ويهتم قسم قليل بتربية المواشي .وهذا لا يمنعها من إنتاج القمح في السنين الطبيعية وتصدير ما يعادل ثلث الانتاج إلى أسواق « كرمانشاه » . ومن جهة أخرى ، لها بعض الموارد من القوافل التي تعبر الأراضي بين بغداد وكرمانشاه حيث أنشأت ٢١ مركزاً يديرها حرس يتقاضون رسم

الدخول على الحمولة .

وقد كان زعيم هذه القبيلة قبيل الحرب العالمية الأولى ، داوود باشا ، رجلاً ذا نفوذ واسع عرف كيف يسيطر على المنطقة إلى أن أصبح سيدها المطلق مع أنه كان ، في الأصل ، ناقل سلع بسيط . والأراضي التي كانت تخضع له واسعة جداً إذ أنه تغلب على جماعة غوران وسلب سلطتهم وأخضع لسلطانه بعض القبائل الصغيرة هناك ، ونذكر على سبيل المثال ، قبائل « سندجابي » . ثم دعم نفوذه بزواجه من بنات العشائر النبيلة ومنها عشيرة والي « بوتشكوح » . وأخيراً ، لاقى حتفه في شهر يوليو ١٩١٢ ، في بلدة « صحنة » ، بينما كان يحارب إلى جنب الأمير « صلار عود دولة » القاجاري ضد جيوش حكومة « فرمان فرما » .

ويصف لنا « فريبه أيضاً كيف طمرت الزلازل قبائل سندجابي بشعبها وقطعانها ، وصفاً مثيراً جديراً برهبة المشهد وهوله . أما المولى علي ، مرافق فريبه ، فقد قابل الحدث دون اهتمام بالغ مكتفياً بتعليله بأنه حدث طبيعي بحت !.

أما فريبه نفسه فيجد لهذا الحادث سبباً آخر يقول : « إن هذه الشعوب — أي قبائل سندجابي — إسلامية بالإسم فقط ، فهي لا تصلي ولا تصوم ولا تؤدي العشر إلى المسؤولين . وقد رأى الله في القضاء عليها واستئصالها إكراماً له وللأنبياء » .

أما بصدد وضع قبائل الكلحور الراهن ، فقد وصفها اللفتننت كولونيل « بيت » في مقال نشره في « الدايلي تلغراف » حيث قال : « إن طغيان واستبداد الموظفين الفرس السابقين والحاليين ،

بالاضافة إلى تقتير الملاكين البخلاء في كرمانشاه ، إن هذه العوامل كلها ، أدت إلى إفقار تلك القبائل . وثمة قضية زعيم هذه القبيلة ، عباس خان ، الذي زُجَّ في السجن مع كثيرين من زعماء القبائل عام ١٩٢٦ ، وذلك بأمر « رضا شاه » الذي كان يستهدف من وراء ذلك القضاء على سلطة القبائل التقليدية وإرغامهم على الخضوع لحكومة طهران الرئيسية . وأخيراً ، أطلق سراح عباس خان عام ١٩٤١ ثم انتخب نائباً عام ١٩٤١ عن منطقة كرمانشاه . ومما هو جدير بالذكر أن عباس خان لعب دوراً خطيراً في ثورة القبائل ضد حكومة طهران سنة ١٩٤٦ » .

لا شك في أن ما أوردناه في الصفحات السابقة قد أفسح في المجال للقارىء لأن يلقي نظرة عابرة على مصائر القبائل الكردية الكبرى في كل من تركيا والعجم . غير أني ألفت نظر القارىء إلى أن التطور السريع الذي طرأ على الأوضاع السياسية في آسيا قد أدى إلى تعديلات عميقة في مختلف الحالات التي كانت فيها القبائل الكردية .

وقد اشتدت السلطات الحكومية في كل من تركيا والعجم إلى حدّ أن كل ميل للاستقلال كان يصطدم بردّات فعل عنيفة . ولنا بقضية « اسماعيل آغا سمكو » زعيم قبيلة « شقاق » الذي رغم انتصاره وبسط سلطانه على كامل منطقة أورميا ، إثر الحرب الكونية الأولى ، انهزم أخيراً ولاذ بالفرار ، ثم قضي عليه في جوار (شنو) . كما وإن الانكليز ، عندما دخلوا العراق ، اضطروا إلى محاربة الأكراد ، لا سيّما محمود باشا الذي نصب نفسه (باديشاه

كردستان) . ففشلت معركة هذا الأخير مثلما فشلت الحملة التي أثارها الشيخ برذان شمالي الموصل . وفي تركيا أيضاً ، قام الشيخ سعيد في عام ١٩٢٥ بحركة عصيان ، لكنه فشل كما فشلت ثورات عدة قام بها الأكراد هناك . وإني أحجم عن استنتاج أي حل بهذا الصدد ، إلا أني ألاحظ فقط أن عهد الحياة القبائلية والاقطاعية ، على ما يبدو ، قد ولّى نهائياً . وبالتالي ، فإن المحيط الذي كان يساعد على استمرار ذلك العهد في أيام الأمبراطورية العثمانية قد انتهى أمره وإن الشرق يتجدد ويتطوّر ويدخل في عهدٍ جديد متطور .

*

الفصل الثامن

الكردي والدولة ، الامة الكردية

*

التمييز بين الدولة والامة

بعد أن تحدثنا في الفصول السابقة عن لغة الكردي وأصله الاتنولوجي ، ثم حاولنا وضعه في وسطه الجغرافي والاجتماعي والعشائري والقبائلي ، وصلنا الآن إلى مرحلة التحدث عن مصائره في ميدان الدولة والأمة معاً . وهذا هو التاريخ الكردي الذي يتطلب ليس فقط فصلاً بل مجلداً . غير أننا نكتفي مكرهين ، بالقيام ببحث سريع مقتضب بهذا الشأن .

إن الدولة عمل سياسي يرتكز على مبادىء السلطة الشرعية .

أما الامة ، فإن التحامها يقوم على المبدأ النفساني ، على الضمير العام. وقد لحق التطور بالدولة والأمة في كل من الشرق والغرب، وكان التطور ينمو ويسير هناك وفقاً للشروط والحالات التي تكوّن فيها الإدراك التشريعي والأدبي .

الدولة والامة في الاسلام

في الاسلام ، الضمير الديني يأتي في أول درجة ، ثم يليه الضمير القومي . والاسلام عامة هو فوق كل جنس وكل عصبية قومية . ولغته الدينية هي اللغة العربية . والقرآن كتاب ديني مقدس وقانون مدني في آن واحد . أما فيما يتعلق بالفرد المسلم ، فمفروض فيه أن يتمم واجباته تجاه الله في مقدمة ما تستوجبه حقوقه .

أما فكرة القومية التي تأتي بالدرجة الثانية في الاسلام ، فظهورها المتأخر حدث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ثم انطفأت لتنهض من جديد سنة ١٩١٤ . ولما كان موضوعنا يقتصر على الأكراد ، فإننا نحجم عن متابعة هذا الموضوع ، لنتناول قضية الأكراد من جديد .

الاكراد في التطور السياسي الاسلامي

لقد تبين من التاريخ الاسلامي أن الاسلام مرّ في عهود انقلابية كثيرة . وخلال هذه الحقبات من الزمن وقعت حروب بين الأتراك والفُرس . أما الأكراد فلم يربحوا شيئاً في تلك

الظروف مع أنهم اشتركوا عملياً بتلك الحروب التي كانوا خلالها ينضمون تارةً إلى الأتراك وطوراً إلى الفرس . ذلك لعدم تمكنهم من تحقيق التفاهم فيما بينهم .

ولننتقل الآن إلى بحث تاريخ السياسة الكردية الذي سنجد في مجراه فرقاً ما بين الأكراد الأقدمين وأكراد العصور المتأخرة. يمكننا أن نفرض أن هذا الشعب المحارب كان يرسل من رجاله المسلحين إلى ملك الرومان ، وبيزنطية ، وفارس . أجل ، يمكننا الأخذ بهذه الافتراضات دون أن نكون متأكدين من وقوعها كما وأننا لا نشك بأنهم كانوا يعتنقون مذهب زرادشت حيث لا تزال بقايا حية من مذهبه بين الأوساط الشعبية . ومن المحتمل أن يكون الكردي قد حوّر لغته في هذه الأزمنة السحيقة ، من الآسيوية إلى الهندية الأوروبية ، وذلك على حدّ قول البروفسور مارّ .

وهناك تخمينات متعلقة بالأكراد لا تحصى ولا تعد حتى في الأزمنة الاسلامية حيث يمكن الجزم بأن التاريخ الكردي لم يُكتب بعد تماماً . ولدينا كتاب كردي تاريخي « شرف نامه » الذي كُتب باللغة الفارسية في أواخر القرن السادس عشر ، وأكمله كتاب آخر بالكردية ألفه محمد أمين زكي أحد الحكام العراقيين عام ١٩٣٨ ونقله إلى العربية محمد علي عوني عام ١٩٤٥ . ويوجد أيضاً كتب تاريخ كردية عن الأسر التي حكمت أردلان على مر الزمن ، وقد لخصتها أنا بنفسي . وهناك أديب كردي معاصر يدعى حسين حسني من

روندوز ، يذكر بعض هذه الكتب في مؤلفاته . وقد قضى هذا الأخير آخر أيام حياته في البحث والتنقيب عن التاريخ الكردي والرسوم والخطوط والآثار القديمة ، وعن استكشاف المصادر العربية والتركية والفارسية الأصلية . أما بين الادباء الفرس ، فنذكر « كسروي تبريزي » الذي انصرف لدراسة تاريخ السلالات الحاكمة الكردية الصغيرة في العجم وترنسقوقاز سنة ١٩٥٠ . وعلى علمنا نحن ، كان الكردستاني السوفياتي فلتشفسكي ، يعد كتاباً عن التطور الاجتماعي في كردستان ، غير أننا نجهل مصير هذا الكتاب تماماً . أما البروفسور مينورسكي ، فهو شيخ الدروس الكردية ، ويجب الإشارة إليه بنوع خاص لما لمؤلفاته من أهمية في هذا الحقل ؟

هكذا ، فبفضل هؤلاء العلماء جميعاً سنتمكن هنا من إعطاء موجز عن المصائر الكردية في تاريخ الدول الاسلامية . وسندلي بهذا الموجز التاريخي على ثلاث مراحل : فالأولى ، تقع بين الفتح العربي وخلفاء المغول (ق ٦ — ١٥) حيث تظهر سلالات وتنقرض سلالات . والمرحلة الثانية تمتد من القرن الخامس عشر حتى التاسع عشر ، حيث تركيا والعجم تضمان إليهما ، من كل ناحية ، قبائل كردية . أما المرحلة الثالثة فهي ، أخيراً ، تلك التي تسير من القضاء على الاقطاع لتبلغ الثورات على الفرس والأتراك .

اول حقبة من التاريخ الكردي ــ من القرن السادس حتى القرن الخامس عشر

يعود أصل بني شداد إلى السلالات الكردية القديمة ، وقد أسس هذه الأسرة العشيرة عام ٩٥١ م محمد شداد بن قارطو من قبيلة صلاح الدين التي انشقت إلى قسمين : غندجه وآني سنة ١٠٧٢ . وقد وقعت آني بين أيدي أهالي جورجيا ١١٢٤ — ١١٢٦ ثم بين أيدي بني شداد ١١٢٦ — ١١٦١ — ١١٦٥ — و ١١٧٤ .

وقد امتدح المؤرخون العرب الصفات والمميزات السياسية التي اتسم بها أبناء هذه السلالة الكردية لعدلهم وإحسانهم وحسن تصرفهم مع المحكومين أية كانت جنسيتهم ولغاتهم .

والسلالة الكردية الثانية التي اشتهرت بين السلالات الكردية القديمة هي سلالة بني مروان ومؤسسها هو أبو علي بن مروان بن دوسطاق. وقد دامت من سنه ٩٩٠ إلى سنه ١٠٩٦ وكانت ممتلكاتها تمتد حتى بلاد ديار بكر ، شاملة بعض البلدان الأرمنية ، بما فيها بلدة أورفا . وتاريخ هذه السلالة معروف تماماً بفضل مخطوطة عربية توجد الآن في المتحف البريطاني . وقد قضى السلجوقيون الأتراك على سلالة بني مروان هذه ، بفضل الدسائس الكثيرة التي حاكوها ضدّ الأكراد عموماً وضد حكامهم من بني مروان خصوصاً .

والأمير أبو نصر أحمد ، من بني مروان اشتهر بحذقه وعدله

ووعيه . وقد بدأ حكمه على أثر توليته الحكم من قِبَل خليفة بغداد .

يبقى أن نذكر سلالة بني عناز (١١١٦) وسلالة شبنكرا في فارس (القرن الحادي عشر) والحضرسبيين (١١٤٨ — ١٣٣٩) .

أما الأيوبيون (١١٦٩ — ١٢٥٠) فهم سلالة كردية كان لديها جيش مشترك من الأكراد والعرب مما يدلّ على تقارب وتفاهم بين هذين الشعبين منذ هُنيء لهم أن يتجاوروا حتى يومنا هذا . وقد بسط الأيوبيون سلطانهم على مصر وسوريا وعلى قسم من بلاد ما بين النهرين .

ولئن سلمنا بترتيب طبقات السلالات الكردية كما وصفها تاريخ شرف نامه ، فهذه السلالات تتمتع ، في أول الدرجات ، بمزايا السلطنة الحقيقية . وهي : ١ — أمراء ديار بكر والجزيرة ٢ — أمراء ديناور وشهرزور . ٣ — الحضرسبيون ٤ — الأيوبيون .

وبوجه عام ، فإن ما تقدمنا به يشير إلى دور الأكراد في أولى القرون الاسلامية ، فقد لعب الأكراد أدواراً على جانب كبير من الخطورة في مصائر الخلافة وأخصامها ، بوصفهم عنصراً مقاتلاً شهيراً ومرغوباً فيه . وقد قال البروفسور مارّ ، إن الأكراد ، تحت حكم السلجوقيين ، كان الأتراك أنفسهم يحسبون لهم ألف حساب . ويعتقد مارّ كذلك أن هناك مزيجاً كردياً — مسيحياً لا يمكن نفيه ، فضلاً عن أن الأكراد والعرب قد تزاوجوا واختلط

بعضهم ببعض على صورة وحدّت بينهم في أكثر المواطن التي يتعايش فيها الشعبان . كما يعتقد أن الأكراد لا يشعرون بأن البلاد التي يقطنونها هي بلادهم ، إلا في الأماكن التي يكثر فيها العنصر العربي ،على العكس من الأتراك والفرس الذين لا تربطهم بالأكراد أية رابطة من التفاهم والتآخي . ويؤكد مينورسكي أن أميرين أرمنيين ، وزعيمين عسكريين لهما مكانتهما ، كانا في خدمة ملك جورجيا ، وهما زكريا وإيفان من أصل كردي من بني شداد في آني . يقول : « يعود الفضل الأكبر في انتصارات تمار ١١٨٤ — ١٢١٣ إلى القائدين زكريا وإيفان اللذين تدعى عائلتهما في جورجيا بإسم « لنجاني » . وفي رواية أخرى يقول أحد المؤرخين : « كان القائدان من أكراد بلاد ما بين النهرين المنتمين إلى قبيلة بابركان . وبموجب أحد المخطوطات القديمة ، كان القائدان ابنين لسركيس الثاني ،ابن زكريا ،ابن آفاك سركيس الأول» .

وكان الاسلام بالنسبة إلى الأكراد ، كما كان لكافة الشعوب في آسيا السابقة ، رسالة وقوة حضارية حققتا تطويرهم السياسي والاجتماعي . وسنتناول هذا الموضوع فيما بعد عندما نتطرق إلى الحياة الدينية عندهم .

ولم يصبح دور الأكراد ضعيفاً جداً إلا لما ظهرت جماعة المغول . فعند اقتراب هولاكو من بغداد ، حاول زعيمان كرديان على رأس قوات لا بأس بها أن يتصدوا له متعاونين مع العراقيين العرب ، ولكن هولاكو هزمهم .ويروى بهذا الصدد أن هولاكو كان قد ضمن مساعدة الأكراد التابعين لسليمان شاه قبل الهجوم على

بغداد . وكان هذا الأخير منافساً لحسام الدين خليل، زعيم أكراد لورستان الصغرى الذي أهلكته هذه المعركة الداخلية . ومما هو خليق بالذكر أن المصادر تختلف بالنسبة إلى أصل سلالة سليمان شاه. فإقبال يتحدث عن هذا الأخير معتبراً إياه «كزعيم كردي محترم» في حين أن محمد علي عوني ، ناشر الطبعة العربية لتاريخ الأكراد الذي ألفه محمد أمين زكي ، يقول إنه كان زعيم إيواي التركمانية .

وعلى كل حال فإنه يجوز الافتراض أن موقف المغول إزاء الأكراد كان نتيجة لطرد جلال الدين المنغبورني من كردستان بواسطة جيش المغول ،وذلك في آخر مراحل صموده ومقاومته لها .

وهكذا جرى انسحاب الأكراد إلى الجبال ،وخضعت إمارتهم لأمراء المغول . ويأتي شرف نامه على ذكر بعض القضايا فيقول إن زعماء الأكراد نالوا بعض حقوقهم في أيام المغول . أما التركمان (الخرفان البيض)فهم الذين حاولوا جاهدين لإفناء العشائر الكردية الكبيرة ، وقد تبين أنهم أخطر من المغول بالنسبة إلى الأكراد .

المرحلة الثانية من تاريخ الاكراد : منذ بداية القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر ــ المعهد الاقطاعي في تركيا والعجم .

قامت الدولتان الكبيرتان تركيا والعجم في غضون هذه الحقبة من الزمن . وقيامهما لم يترك سوى مجال ضيّق للأكراد لاكتساب استقلالهم . ومما هو جدير بالذكر أن الشاه اسماعيل مؤسس السلالة الصفدية زجّ في السجن أحد عشر زعيماً كردياً عندما مثلوا أمامه

يعربون عن طاعتهم له .

وأفلح السلاطين الأتراك في كسب ودّ الأكراد واستجلابهم وذلك على أثر معركة تشالدران عام ١٥١٤حيث عانى الفرس هزيمة نكراء . ثم كلفوا حكيم أدريس ، وهو زعيم كردي من بتليس ، بالسعي لادخال زملائه في نظام الدولة التركية والانضمام إليها . وهكذا لم يطرأ أي تغيير أو تبديل على حالة الأكراد الداخلية ، إذ ظلت الامارات والقبائل الكردية المنضمة إلى تركيا تنعم في ظل قيادة زعمائها الأكراد ، بحكم داخلي ذاتي . وقد عمّت هذه الطريقة كافة مناطق ومقاطعات كردستان التركية ، من المالطية حتى بيازيد وشهرزور .

ومن جراء إيمان المواطن الكردي بمعاهدة التحالف والصداقة المعقودة عام ١٥١٤ بين تركية من جهة ، وثلاثة وعشرين إمارة تركية من جهة أخرى ، لم يتأخر الأكراد ، كما يؤكد برنستون خلال ما ينيف عن ١٥٠ سنة ، عن إكمال واجباتهم تجاه تركيا ، والاشتراك في كل حروبها ، وذلك بصرف النظر عن عشرات الآلاف من الضحايا التي قدموها لسلاطين تلك الدولة .

ولا شك في أن قيام الدولتين المذكورتين يسجل فترة جديدة في تاريخ الأكراد . فلما كانت نظم هاتين الدولتين تختلف عن النظم المرعية الاجراء في الغرب عامة ، فإن السلطة الأساسية ووحدة التجزؤات المختلفة في الدولة ، حتى الحدود السياسية ، كانت أبداً عرضة للتغير في حين الانتقال من عهد إلى عهد .

وذلك بقطع النظر أيضاً عن حالات الفوضى والحروب التي كانت تطغي على الحالات الادارية الطبيعية في البلاد . فكان الأكراد في مثل هذه الأجواء المضطربة ، ينظمون أنفسهم كما يحلو لهم .

وفي سنة ١٦٨٣ بعد هزيمة الأتراك أمام فينّا النمساوي ، شرعت السلطات التركية تتدخل في شؤون الأكراد الداخلية . وأول بادرة كانت هي تعيين سليمان حاكماً عاماً في ديار بكر للقيام بمهمة الوساطة بين الاقطاعيين الأكراد من جهة ، وحكومة القسطنطينية من جهة أخرى . ومن ثم أخذ الأتراك يطبقون مبدأ – فرّق تسد – إلى أن أصبحت القبائل الكردية أقاليم تركية ، ولم تعد للزعماء أية سلطة فعلية . ورغم المحاولات العديدة التي قام بها الأكراد ، تمكن الأتراك أخيراً من السيطرة على كافة أرجاء البلاد ، وذلك في منتصف القرن التاسع عشر . وآخر محاولة للصمود إزاء التدخل والتغلغل التركي كانت تلك التي قام بها الأمير بدرخان من الجزيرة عام ١٨٤٧ ، والذي بعد أن قهر الأتراك مراراً عديدة ، وقع صريع خيانة ابن عمه .

أما في العجم ، فإن أمراء أردلان الاقطاعيين الذين بقوا وحدهم ، بعد انطفاء الخضرسبيين ، كزعماء أكراد مستقلين ، جُرّدوا تدريجياً من زعاماتهم وحلّ مكانهم أمراء القاجار عام ١٧٦٠ .

ويخبرنا المؤرخون أن الأكراد تدخلوا عملياً في المعارك التي وقعت بين نادر شاه والصفديين من جهة ، والمعارك التي وقعت بين

جماعات قاجار وبختياري وأفشار وزند من جهة أخرى ،إبان فترات خلوّ الكرسي الملكي في القرن الثامن عشر . ولم يكن انتقالهم إلى الحكم بشخص كريم خان زند (١٧٦٠ - ١٧٦٩) الحاكم الإنساني العادل ، وصديق الفنون ، إلا عهداً مبتوراً لأنه لم يدم طويلاً .

ويصف المؤرخون شخصية تاريخية لا بأس بها تتجلى في الأمير محمد الذي حكم « راوندوز » في بداية القرن التاسع عشر . ثم ما لبث أن احتل بجيشه المؤلف من ٣٠ ألف مقاتل الأراضي الكردية الواقعة في المناطق الغربية حتى نصيبين وماردين ما عدا الموصل والسليمانية . وأعلن استقلاله بعد ذلك في سنة ١٨٢٦ وأجرى مفاوضات دبلوماسية مع العجم ومصر .

المرحلة الثالثة من التاريخ الكردي ، من منتصف القرن التاسع عشر حتى الحرب الكونية الاولى — ازالة العهد الاقطاعي في تركيا والعجم

يقول فلتشفكي إن زوال العهد الاقطاعي في كردستان يعود إلى أن الزعماء الأكراد ، على قدر ما ضغطوا على خدمهم وظلموهم ، انتهوا بنخر مداميك قوامهم العسكرية . وفي نفس الوقت ، لم يحسنوا تطبيق الطرق الاقتصادية التي كانت تفرضها التطورات في الوسط الكردي على غرار ما فعل جماعة أوباباشي الرأسماليين . ويجب أن نضيف إلى ذلك ما ذكره « ثريا بدرخان » من أن سياسة السلطان والشاه المركزية كانت من أهم العوامل التي ساهمت في زوال ذاك العهد . فتضامن القوتين الاقتصادية والسياسية ، أدى إلى إدخال بلاد كردستان في حلتها الجديدة ، وذلك نحو منتصف القرن التاسع عشر . ولا بد من أن نتساءل هنا في أي حال ظل

الكردي بعد زوال سلطة زعمائه التقليديين ؟ إنه لم يُبذل شيء خليق بالذكر يرمي إلى أن تحل مكان تلك السلطة ، سلطة قادرة على إنصاف هذا الشعب وحمله على الحياة العادية التي تفرضها الدولة حسب المفهوم الصحيح . وها نحن نذكر بعض الأحداث التي كانت تقع في بيئة الأتراك تحت ظل الدولتين التركية والفارسية :

عقب ثورة الشيخ عبيد الله عام ١٨٨٥ ، قام القائد العسكري الفارسي الأمير نظام المنحدر من عشيرة حكام كيروز منذ ٧٠٠ سنة ، باستدعاء الزعيم الكردي حمزه آغاي لمقابلته ، وأقسم أنه لن يحاول إلحاق الأذى به طالما هو على الأرض . وفي تلك الأثناء كان الأمير قد حفر حفرة في خيمته وجلس فيها . وعندما دخل حمزة ، أعطى الأمير إشارة ، فخرق الرصاص رأس حمزة . وهكذا حنث الأمير بقسمه . لكن الأمير نظام يقول إنه ما زال على القسم لأنه نزل تحت الأرض ولم يكن فوقها حين أعطى الأمر بقتل حمزة . وبالطريقة نفسها جرت في ميندار مذبحة زعماء بلباسي الذين دعوا إلى الاشتراك في عيد من الأعياد . وهكذا كان أيضاً نصيب يزدشير الشهير في تركيا .

من هنا يتضح لماذا يتأصل الاحتراز والحذر في نفسية الأكراد ، فيظلون متحفظين إزاء الفرس والأتراك . ولماذا أيضاً لم يتمكنوا من جمع شملهم في ذينك البلدين .

ولا بد من سرد بعض المحاولات التركية الرامية إلى جعل

الأكراد آلة طيعة في أيدي الدولة العثمانية فقد خلقوا لهم أول الأمر فرقاً لا نظامية اسمها الحميدية ، والفكرة كانت لشاكر باشا. وفي عام ١٨٩٢ أسست تركيا في كل من القسطنطينية وبغداد « مدارس للقبائل » هدفها أن تبث في الأكراد والعرب الرحّل روح التعلق بتركيا ، ولكن هذه المدارس الاستعمارية لم يُكتب لها النجاح . أما فيما يتعلق بالتطوع ، فقد تولج القيام بتحقيقه محمد زكي باشا ، وقد اجتمع به دي شوله في أرضروم ، وبوصفه عسكرياً أيضاً ، علّق على هذا الموضوع في شيء من الارتياب قال :

« كثيرون هم الأشخاص المتنفذون الذين يخافون من انخراط الأكراد في الجندية ، فيخشون استيقاظ ميولهم الحربية إذ لئلا ثاروا ، فيكونون قد أعطوهم ما كان ينقصهم من التكتيك والسلاح » .

لكن الأتراك أنفسهم اقتنعوا أخيراً بوجوب تحويل الكتائب الحميدية اللامنظمة إلى فرق من الخيالة الخفيفة النظامية .

وقد لاقت الفرق الحميدية تقدير ضابط الماني يدعى جراف فوك وستارب قام بزيارة كردستان بعد مضي عشرين سنة على تأسيسها فقال إنه لا يشك مطلقاً بإمكانية تحويل هذه الفرق إلى فرق حربية فعالة إذا ما حظيت بتدريب عسكري صحيح .

ومما هو معروف تماماً أن الأكراد المسلحين من قبل الاتراك

كانوا أداة عمياء تلعب بها سياسة عبد الحميد وتستخدمها ضد الأرمن. لكن الأكراد الناضجين ما كانت لتخدعهم هذه السياسة الحميدية ومبرراتها الدينية. والجواب التالي ينسب إلى الشيخ عبيد الله عام ١٨٨٥ وقد توجه به إلى أنصاره يوم طلب إليه الأتراك أن يسهم في ذبح نصارى أورميا: « نحن الأكراد، يريد الأتراك أن يستخدمونا فقط لاضطهاد إخواننا المسيحيين. وغداً عندما ننتهي، سيقوم الأتراك باضطهادنا نحن! لا، لا نريد أن نضطهد أحداً ولا أن يضطهدنا أحد!»

وأحدث من ذلك، في سنة ١٩٢٨، كتب « ثريا بدرخان » يقول هذا القول الكريم:

« في اوكتوبر عام ١٩٢٧، أجريت مصالحة عامة فيما بين الأكراد والأرمن بواسطة « الهوبيون » ــ اللجنة الوطنية ــ التي تمثل كلا الجانبين الكردي والأرمني، وذلك بعد أن تأكدا من أن التركي هو عدوهما المشترك وعدو تضامن مصالحهما، فباسم أبناء جنسي أعرب عن تمنياتي الخالصة للشعب الأرمني وأؤكد له احترامي لهدفه القومي الشرعي الذي هو أرمينيا المستقلة المتحدة! ».

والمشكلة في العجم تبدو أوسع من ذلك، فهي قضية القبائل عامة التي ما زالت ترقب الحل. ومشروع دمورني بقي مولوداً ميتاً. وقد تبين أن الاجراءات الادارية التي اتخذها رضا شاه لم تكن ناجحة.

وبالنتيجة ، إننا لنعتقد بوجود أمة كردية ، رغم أن الأتراك والفرس رفضوا الاعتراف بها ، مما أوصد الأبواب أمام كل الجهود التي بذلت من أجل هذا الشعب منذ نهاية العهد الاقطاعي . فالبحث الآتي الذي يتناول الحركة الوطنية الكردية ، سيلقي الأضواء على المراحل المتعاقبة ، وعلى الطرق والبرامج بهذا الصدد .

*

الفصل التاسع

الحركة الكردية الوطنية

*

ما هي المصلحة من وراء بحث هذه المعضلة

عندما نتقدم من بحث هذا الموضوع الدقيق ، أول ما يتبادر لأذهاننا هو أن نتساءل : هل الكردي جدير بخلق دولة خاصة به ؟ هل تدوم هذه الدولة ؟ هل تكون عنصر سلام وأمان ؟ وهل تكون بالتالي ولادتها سبباً لزيادة تعقيد الحالة في الشرق الأوسط ؟

قد تتباين الأجوبة على هذه التساؤلات لكنها لا تحول دون الإقرار بضرورة حل للمعضلة الكردية ، ومن العسف والخطأ أن ننعت تظاهرات إرادة الأكراد الوطنية بأنها أعمال عنف وعصيان. أما علّمنا تاريخ القوميات أن بداية الحركات الاستقلالية لم تكن إلا بالسلاح ؟

وأنه الفشل بعينه أيضاً إذا وقفنا عند هذا الحد من الابحاث وسكتنا عن مرحلة التطور التي يمر بها هذا الشعب .

ثلاث مراحل من الحركة الوطنية

لقد عرفت الحركة الوطنية الكردية، حتى الآن ، ثلاث مراحل : المرحلة الأولى ، وهي عهد عصيان وفتن إجتماعية فثورات إقطاعية . وقد رافقت الثورة التركية الأخيرة محاولات عدة قام بها الأكراد مطالبين بقانون خاص يعترف بخصوصياتهم القوميةوهذه هي المرحلة الثانية . أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي التي عقبت الحرب الكونية الأولى ، حيث بُحثت القضية الكردية في المحافل الدولية ــ معاهدة سفر ولوزان ــ والحلبة الراهنة تبتدىء من تاريخ تأسيس اللجنة الوطنية الكردية« خويبون » في سنة ١٩٢٧، التي يجب أن نعتبرها من الآن فصاعداً كمنظمة مسؤولة عن هذه الحركة . ولنتوسّع الآن في دراسة هذه المراحل الثلاث .

ثورة عبد الرحمن باشا ١٨٠٦

إن عبد الرحمن باشا هو ابن أخت ابراهيم باشا بابي منشىء بلدة السليمانية ١٧٨٦ ، بعد أن أغمد الخنجر في صدر الحاكم التركي « لكوي سندجق » وقهر منافسه الكردي خالد الباشا الذي عُيّن مكانه حاكماً في السليمانية . انتقل عبد الرحمن إلى العجم ، وأخيراً ورغم مساعدة الشاه له ، تغلب الأتراك عليه بمساعدة أبناء خالد ، فخلّده أبناء جنسه بأناشيد شعبية .

ثورة البلباس ١٨١٨

ونقلاً عن التقارير العسكرية الروسية ، فشل الأمير الفارسي الوارث عباس ميرزا في قمع العصاة وكابد خسائر فادحة . وفي الفترة نفسها عام ١٨١٥ ، ثار أكراد البشالكة التركية في بيازيد وفان ، وانضمت إليهم الرحالة الأكراد في العجم « أريفان ، ناخيتشفان ، خوى » . إلا أن حاكم أرضروم تمكن من قمع الثورة . ويقول فلتشفسكي إن القضية لم تكن مجرد دسائس بعض الزعماء بل كانت ثورة جماهيرية صحيحة . فالجماهير الكردية تحت حكم الأتراك كانت تقاسي أبشع ألوان الظلم من حكامها الطغاة .

وسجلت السنوات ١٨١٨ ، ١٨٢٠ ، ١٨٢٢ ، سلسلة فتن وثورات موجهة ضد العجم وتركيا على السواء . وفي عام ١٨٢٥ ، ذبح الأكراد فصيلة فارسية وأفنوها عن بكرة أبيها .

الاتراك خلال الحرب الروسية التركية ١٨٢٨ — ١٨٢٩

إن إمارات راندوز وبحطان وبجبحان وهكاري لم تدخل في الحرب . وقد حاول بهلول باشا وهو كردي من بيازيد ، التحالف مع الروس ولكنه لم يفلح . ويقول فيتشفسكي إن الأكراد كانوا خلال الحرب الروسية — التركية أسياد الموقف . وقد عمت الثورة بلادهم آنذاك وكانت موجهة ضد الاقطاعيين الأتراك والأكراد على السواء . هؤلاء الاقطاعيين الذين باستبدادهم وتعنتهم أضروا باقتصاديات الرحّل الفقراء .

ولم يكن عامل الاقتصاد وحده سبب الثورة ، فالعقيدة الوطنية أيضاً عملٌ كثير فيها وقد شرعت هذه العقيدة تتبلور أولاً في بيئة النخبة ، عند الزعماء ومحيطهم حتى بلغت الجماهير .

الاكراد وثورة مصر ١٨٣٢ — ١٨٣٩

في تلك الأثناء انتهز الأمير محمد من راوندوز الفرصة ، حيث انضم إليه بعض الزعماء الأكراد وقام ضد الأتراك ، فأرسل هؤلاء لمجابهته محمد باشا من سيراس على رأس جيش من الباشوات ،فانتصر واقتاد الأمير إلى القسطنطينية حيث عفي عنه . على أن هناك مخطوطات تشير إلى أنه قضي عليه وهو في طريق العودة .

ثم توالت الثورات ، وبعد هزيمة الأتراك في نصيبين بأيار عام ١٨٣٩ ، ثار محمود باشا في السليمانية ، واضطر إلى اللجوء إلى العجم عندما عيّنوا حاكماً مكانه . وقد حال التدخل الروسي ـ البريطاني سنة ١٨٤٣ دون وقوع حرب شعواء بين بلاد الفرس وتركيا بسبب لجوء محمد باشا إلى بلاد العجم .

ثورة بدر الدين خان بك ١٨٤٣ — ١٨٤٦

إن المؤلفين الذين تحدثوا عن هذه الثورة وهم « مينورسكي ، سوان ، ادموف ، وغرام » يحكمون عليها بأنها نتيجة لجور وتحكم بدرخان ونور الله بك بالعشائر النسطورية في هكاري . وبعد معركة دامية انتصر طبال باشا عليهما ، وتبين أن بدرخان وقع ضحية خيانة ابن عمه . وقال روندو عن بدرخان إن هذا

الأخير عرف كيف يستفيد من البلبلة التي وقع فيها الأتراك إثر معركة نصيبين ، فبسط نفوذه وسيطرته حتى فان والموصل وسوج بولاك وأورميا ، وديار بكر ، وحالفه عدد من زعماء الأكراد الكبار بما فيهم حسين بك من كارس ، والأدجرا ،وأمير أردلان. وفيما كان دائباً على تجهيز جيشه عام ١٨٤٥ ، تمرد النسطوريون وتمنعوا عن دفع الضرائب ، فاضطر إلى إخضاعهم بالقوة .

على كل حال ، تشهد بعض الأدلة الأرمنية بأن بدر خان كان يمارس سياسة دينية مثالية وكان يعتبر نفسه الزعيم الروحي للمناطق المتحررة من الاحتلال التركي .

وقد عاش بدرخان هذه السنين الطوال أسيراً في كندي بجزيرة كريت ، ثم في دمشق حيث توفي عام ١٨٦٨ .

ثورة يزدان شر ١٨٥٣ — ١٨٥٥

قامت هذه الثورة أيضاً أثناء الحرب الروسية ــ التركية وانبثقت شرارتها الأولى من بحطان في مقاطعة هكاري .

احتل يزدان شر بتليس والموصل وكل المنطقة الممتدة من فان إلى بغداد . وتطوع النسطوريون في جيشه وساروا تحت لوائه . وفي سنة ١٨٥٥ ، حمل يزدان أقوال العميل القنصلي البريطاني نمرود رسام على محمل الجد ، فخشي ما ذكره له من قوة الأتراك وهادنهم ، فما لبث الأتراك أن اقتادوه إلى القسطنطينية حيث لقي حتفه . وهكذا أصبح بطلاً وطنياً شبيهاً بعبد الرحمن باشا . وخلدت ذكراه أناشيد شعبية كردية .

ثورة الشيخ عبيدالله نهري ١٨٣٠

كانت هذه الثورة التي وقعت قبيل ثورة الشباب الأتراك ، تستهدف استقلال كردستان . وقد أُضرمت نيرانها على الحدود الفارسية في جوار شمدنان حيث هددت طوريس لبرهة وجيزة من الزمن . واضطر الأكراد أخيراً إلى التراجع عن القتال ، وعلى أثر احتجاجات العجم ، وبفضل التدخل العسكري التركي ــ الفارسي ، تمكن الفرس والأتراك من إيقاف نشاط الشيخ الثائر . ثم بعد أن قادوه إلى القسطنطينية ، أرسلوه أسيراً إلى مكة . وبعد الثورة التركية ، عاد ابنه البكر الشيخ عبد القادر من مكة لكي يصبح فيا بعد عضواً في مجلس الشيوخ التركي .

وهناك محاولات أخرى لم تثمر قام بها نجلا بدرخان ، الأميران أمين علي بك ومدحت بك وقد أُلقي القبض عليهما في كمين نُصب لهما عام ١٨٨٩ .

المحاولات والتجارب التي بذلت في سبيل تنظيم الحركة الوطنية اول منظمة كردية سياسية في القسطنطينية ١٩٠٨

على غرار العرب والأتراك الشباب أنفسهم ، اجتمع نواة الحركة الوطنية الكردية حول صحيفة يومية ، فتبلورت عقيدة الاستقلال الوطني عندهم . وهذه الصحيفة هي « لسان حال ثنائي ـ كرد ـ ترك » تأسست في القاهرة سنة ١٨٩٨ ثم نقلت إلى جنيف ففوكلستون ، ثم عادت إلى القسطنطينية ، وظهرت من جديد في

القاهرة خلال حرب ١٩١٤ .

وتبدل محرروها كثيراً لكنهم كانوا جميعهم ينتمون إلى عائلة بدرخان والأمراء مدحت وعبد الرحمن وثريا . وعام ١٩٠٨ قام الشيخ عبد القادر بإنشاء صحيفة « الشمس الكردية » وهي لسان حال جمعية تعاونية وتقدمية انضمت إليها جمعية أخرى مماثلة لها . وما عتم أن سارت كلتاهما في طريق العمل حتى بدأت أسرة بدرخان ، وأسرة سيد « نهري » تتهاجمان وتنشر الواحدة منهما فضائح الأخرى . فتوقفت الصحيفة عن الصدور . ثم غادر عبد الرزاق بدرخان البلاد للتعرّف إلى النيات الروسية نحوه وأقام في باريس فيما اتجه سائر أفراد العائلة إلى مصر . أما نصيرا الشيخ عبد القادر : خليفة سليم وعلي آغاي ، فقاما بثورة في بتليس قُمعت بشدة . وفي سنة ١٩٠٩ ، أغلق الشباب الأتراك الجمعيات والمدرسة الكردية في تشنبرلي . إلا أن فرقة من الطلاب ورجال القانون اتحدوا سنة ١٩١٠ في جمعية جديدة ، اسمها « الأمل الكردي » وشرعوا يصدرون مجلة شهرية دُعيت باسم (اليوم الكردي) . وهكذا بدأت القافلة تمشي . وفي عشية حرب ١٩١٤ ، راحت الحركة الوطنية تلتمس طريقها في الحقل العلمي .

الاكراد خلال حرب ١٩١٤ — ١٩١٨

أوقفت الحرب هذه المحاولات الأولى الهادفة إلى تنظيم وتكوين فكرة وطنية مشتركة . والنداء إلى الحرب المقدسة ، وإلى الجهاد ، سمح مرة أخرى للأتراك بتوجيه الأكراد في اتجاه

مضاد لمصالحهم الوطنية الشعبية الصحيحة . فالأتراك يريدون الاستفادة من الأكراد لغاياتهم الحربية . غير أنهم لا ينفكون يراقبون حركاتهم عن كثب ، وهناك قائمة كبيرة جداً تحتوي على اسماء الوطنيين الأكراد الذي نُفّذ بحقهم حكم الاعدام خلال الحرب .

وقد بعثت برسالة تحت عنوان « إسهام في دراسة الجهاد » إلى المؤتمر الدولي السادس لتاريخ الأديان الذي عُقد في بروكسل عام ١٩٣٥ أحتج فيها على إساءة الأتراك إلى الأكراد ، كما وإني أرسلت خطاباً إلى لجنة تنظيم المؤتمر الدولي الثاني عشر للشرقيين في استنبول ، عام ١٩٥١ ، بعنوان « شهادة كردية عن الجهاد » .

ومن المعروف أن كميل بك من بحطان ، وهو من أسرة بدرخان ، اهتم جدياً سنة ١٩١٦ في تفليس ، بالتبشير بالقضية الكردية أمام الدوق الكبير نقولا ، نائب ملك القوقاز وقائد القوات العام المرابطة آنذاك على الحدود التركية . ويبدو أن روسيا لم تتبنّ في ذلك التاريخ سياسة واضحة بالنسبة إلى الأتراك حيث كانت المشكلة الكردية تمتزج وآمال أرمينيا مستقلة . وفي أواخر سنة ١٩١٧ ، استقبلت في مركزي القنصلي في أورميا موفداً من قبل جمعية الاستقلال الكردستاني أودعني رسالة من « السيد طه » يطلب مني فيها مواجهة مع العسكريين الروس بغية الإتفاق على عمل مشترك ضد الأتراك من شأنه أن يحرر كردستان . فالسيد طه ، الفار من سجون روسيا القيصرية ، هو

أبن أخت الشيخ عبد القادر . وقد غادر السيد طه القسطنطينية بعد أن مكث فيها حتى ١٩١٧ إلى مكة حيث نزل عند مالك حسين هناك . وفي سنة ١٩٢٥ ، أعدمته السلطات التركية في ديار بكر وألقت القبض على ابنه السيد عبدالله وأسرته في الموصل .

وبين الكتابات التي في حوزتي عن الأكراد بيان أدلى به المؤرخ مولاي سعيد في سنة ١٩١٧ . ويشير هذا البيان إلى أن الدافع الأساسي في مصالحة الأكراد بين بعضهم بعض هو تحررهم من ربقة زعمائهم الاقطاعيين تمهيداً لمعالجة حالتهم اليائسة . ومما هو جدير بالذكر أن مولاي سعيد كان رجلًا حاد الذكاء ومثقفاً . وكلمته القيمة بالنسبة إلى المطاليب الاجتماعية الكردية تلتقي ورأي زميلي السوفياتي فلتشفسكي .

وفي أثناء الانقلاب في تركيا اجتمع الزعماء الأكراد في شهر أيار ١٩١٩ ، للقيام بتنظيم حركة واسعة النطاق ضد الكماليين ، فأقدم الكولونيل « بل » رئيس قلب الاستخبارات في حلب ، وأرجعهم عن عزمهم باسم حكومته واعداً إياهم بأن الحلفاء سيأخذون تحقيق القضية الكردية بعين الاعتبار ، وكانت معاهدة سفر متوقعة عند ذاك .

وقبيل إمعان النظر في الحافز الذي أدّى إلى قيام الحركة الكردية الوطنية ، من المستحسن أن نأتي على ذكر إعادة النشاط الوطني المعبّر عنه في إنشاء اللجان ، وهكذا أسس الأمير ثريا في القاهرة ، حالاً بعد معاهدة فودروس السلمية ، لجنة الاستقلال الكردي . أما في القسطنطينية ، فقد قام الأمير أمين علي

وكياموران علي بك والشيخ عبد القادر ورهط من الشخصيات ، بتأسيس جمعية تستهدف النهضة الكردية . وبعد فترة وجيزة خرجت إلى عالم النور « منظمة الحزب الوطني الكردي » و«جمعية الأهداف الاجتماعية » . إلا أن احتلال مصطفى كمال للقسطنطينية، شتت هاتين المنظمتين اللتين ظلتا تبديان نشاطاً سرياً . وفي سنة ١٩٢٧ ، عندما تأسست اللجنة الوطنية « خويبون » جمعت في أحضانها المؤسسات جميعاً .

التكريس الدولي لاماني الاكراد
معاهدتا سفر ١٠ آب ١٩٢٠ ، ولوزان ٢٤ كانون الثاني ١٩٢٣

رغم أن معاهدة سفر بقيت حبراً أبكم على ورق أصم ، لا شك في أنها كانت مرحلة خطيرة في تطور القضية الكردية . فلأول مرة في التاريخ بحثت وثيقة سياسية دولية قضية الاستقلال المحلي للمناطق التوركية العجمية التي يقطنها الأكراد . ومن هذا التاريخ أصبح تدويل القضية الكردية أمراً لا مناص منه .وقد كان لمعاهدة لوزان التي حلت مكان معاهدة سفر وقع أليم في النفوس ، كما يقول « مندلستام » الاخصائي في مادة الأقليات ، إذ أن هذه المعاهدة لم تنص على المساواة بين الحقوق المدنية والسياسية إلا لمصلحة الدول الكبرى .

قضية الموصل

على الرغم من أن معاهدة لوزان أتت ناقصة وغير عادلة بالنسبة

لأكراد تركيا ، فقد لعبت دوراً خطيراً لا سيا بقضية الموصل التي اضطرت عصبة هيئة الأمم لوضعها على بساط البحث وأوفدت إذ ذاك لجنة تحقيق دولية إلى تلك المنطقة الكردية . ثم وضعت اللجنة حدوداً مؤقتة في تشرين الأول عام ١٩٢٥ دعتها « خط بروكسل » وقد نص التقرير المرفوع من لجنة التحقيق الدولية في شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٥ إلى هيئة عصبة الامم على وجوب وضع هذه المنطقة تحت الوصاية الدولية لمدة ٢٥ سنة . ونص أيضاً على ضرورة تسليم الشؤون الادارية والعدلية والتربية إلى العناصر الكردية مع اعتبار اللغة الكردية لغة رسمية .

إلا أن الثورة الكردية التي قام بها الشيخ سعيد في شباط - نيسان عام ١٩٢٥ في أثناء دراسة التقرير ، ما كانت إلا دعامة للعرض البريطاني في جعل ولاية الموصل ولاية عراقية . وفي نفس الوقت ، كانت هذه الثورة طريقاً إلى التعبير عن شعور الأكراد بأنهم يستطيعون الاندماج مع الشعب العربي في العراق ، وأنهم يستطيعون أن يكونوا مواطنين صالحين مع العرب حيث كانوا . كما كانت هذه الثورة بمثابة تكذيب لتصريح الوفد التركي في لوزان بأن الأقليات الاسلامية كانت مرتاحة لمصيرها تحت الحكم التركي .

وبموافقة عصبة الأمم أصبح خط بروكسل الحدود الفاصلة بين تركيا والعراق . وفي شباط ١٩٢٦ ، صرح أول رئيس وزارة عراقي أمام مجلس النواب في بغداد قائلاً : « يجب علينا أن نمنح الأكراد حقوقهم . يجب أن تُمنح الوظائف في مناطقهم لأبنائهم واللغة الكردية يجب أن تكون لغتهم الرسمية ويجب على أولادهم

أن يتعلموها في المدارس . » وكانت هذه الكلمات تكريساً للتفاهم الودّي الصحيح بين الأكراد والعرب .

تأسيس « خويبون » والثورات الحديثة

بعد ثورة الشيخ سعيد ، لم يكن الهدوء الذي نعمت به البلاد من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٠ إلا هدوءاً ظاهراً ، ففي ربيع عام ١٩٢٧ عقد مؤتمر نبتت منه فكرة تأسيس اللجنة الوطنية الكردية « خويبون » التي أقسم أعضاؤها على استمرار الكفاح في سبيل تحرير كردستان في الأراضي التركية . وعهد بتنظيم الحملة إلى ضابط قديم هو إحسان نوري باشا . فبدأ بتحضير دقيق مختاراً جبل أرارات كنقطة ارتكاز لخطته .

وهكذا ، ابتداء من ربيع عام ١٩٣٠ عادت إلى المسرح سلسلة من الثورات الكردية . وسنذكر بالموجز عدداً من هذه الثورات . فثورة ١٩٢٠ أحدثت تقارباً بين تركيا والعجم على حساب الأكراد ، حيث وقعتا اتفاق تعديل الحدود في أرارات في ٢٣ يناير ١٩٣٢ ، وكان لها تأثير في العلاقات التركية ـ السوفياتية .

ويعلق المارشال داسبري بصدد ثورة ١٩٣٠ بعد عودته من الشرق الأدنى ، في صحيفة « لماتان » عدد أول كانون الأول عام ١٩٣٠ قائلاً : إن الثورة الكردية لم تخمد لظاها بعد ، والأكراد يستندون على بعض الأتراك المناوئين لمصطفى كمال .

وفي أواخر عام ١٩٣٠ وبداية عام ١٩٣١ ، انبثقت من أوساط دراويش النقشبندية أخوية كان الشيخ سعيد عضواً فيها ، وهي

حركة مناوئة للكماليين . وفي عام ١٩٣٢ حاكمت المحكمة العسكرية في أرضروم صلاح الدين ابن الشيخ سعيد الذي قدم إلى تركيا من العراق معللاً بالعفو . وقد انضم فيما بعد إلى ثورة درسيم . وسنة ١٩٣٣ سجلت حملة قام بها البوليس التركي ضد الشيخ فخري في ضواحي ديار بكر . وسنة ١٩٣٤ ، أصدرت المحاكم التركية سلسلة من الأحكام بالاعدام وبالأشغال الشاقة المؤبدة .

وقد خيم على الفترة الواقعة بين ١٩٣٤ و ١٩٣٧ صمت رهيب ، ولم تقع إلا مؤامرة اسبارتا ـ أيار عام ١٩٣٥ ، التي اشترك فيها الشيخ بديع الزمان الكردي ، ثم العصيان وعدم دفع الضرائب في منطقة موش التركية في العام ذاته . وفي ٥ مايو عام ١٩٣٢ صدر مرسوم نفي وتشتيت الأكراد بمعدل خمسة بالمئة من كل قرية . فكان هذا المرسوم صدى لأعمال النفي التي قام بها الأتراك خلال حرب ١٩١٤ ، لكن الحيوية الكردية كانت أشد وأقوى من الاندفاع التركي الاداري ، فلم تؤثر هذه الاجراءات في الجماعات التي يتألف منها شعب كردستان .

وفي عام ١٩٣٧ هبت ثورة درسيم ـ تنجلي ـ فتبنّت الدول الغربية إذ ذاك العرض التركي قائلين هذا القول الزاخر بالتعرّض والافتراء وإنكار الحقيقة : « المدنية تكافح ضد البربرية » . لذلك انتهت هذه الثورة بأن هدم الأتراك بيوت الأكراد في المنطقة الثائرة ، ثم بإحراق الأحراج التي يأوون إليها . فكنتَ ترى العجزة والنساء والأطفال يولولون هاربين . وإذا شئت الاطلاع على بربرية الأتراك في هذه الأعمال فارجع إلى الحوادث البشعة التي

يذكرها كتاب « درسيم كودستان تاريهنده » .

وضع الاكراد في العجم

لمحة خاطفة عن وضع الأكراد في العجم تبين لنا أن المشكلة هنا تتخذ طابعاً خاصاً . فالبيان الذي يلح على اعتبار أصل السلالات الكردية الفارسية تنبع من مصدر واحد سحيق ، وعدم وجود المبررات للعداوة بين الاقرباء ، من العوامل التي تتجلى أبداً في التصريحات الفارسية الرسمية والصحافة . ومع ذلك ، فإن طهران لم تتهاون أبداً في قمع الانتفاضة التي قام بها خالد آغا الجلالي من جهة أرارات ، وقمع المحاولة التي قام بها اسماعيل آغا سمكو الشهير من جهة شنو . كما أنها لم تتردد في خنق الحركات التي قام بها جعفر آغا سلطان أورمان عام ١٩٣٢ . فالعلاقات الكردية الفارسية تسممت فيما بعد على صورة واضحة .

الاكراد في الاتحاد السوفياتي

إن عدد الأكراد في الاتحاد السوفياتي في ترانسقوقازي لا يتعدى مائة ألف نسمة . لكن هذا الرقم لا يدل على أنهم غير قادرين على إنشاء قطب استجلاب لإخوانهم في الخارج ، بل على العكس ، وذلك بفضل سياسة الاتحاد السوفياتي إزاء القوميات . ولا نغالي في شيء إذا قلنا إن أريفان هي المصدر الذي تُطبع فيه أكثر النشرات والمؤلفات الكردية ، حيث يوجد أيضاً في القرى الكردية القائمة تحت نظام جماعي ، مدارس ابتدائية ، ومكتبات

وأجهزة راديو ، وآلات زراعية ، وجمعيات تعاونية ،جميعها تعمل في سبيل تطوير المجتمع هناك .

المعضلة الكردية في مجرى السنين الاخيرة وخلال الحرب الكونية الثانية ١٩٤٠ ـــ ١٩٤٥

لم تكن الظروف التي خلفتها الحرب الكونية الثانية أجدى من ظروف الحرب الكونية الأولى بالنسبة إلى الأكراد . ففي عام ١٩٤٣ ، اشتعلت الثورة في بارزان ـ العراق تحت قيادة الملاّ مصطفى شقيق الشيخ محمد ، بمساعدة الشيخ لطيف ، وقد حاول البعض ترويض الثوار ولكن دون جدوى . ففي عام ١٩٤٥ ، أثناء اجتماع هيئة الامم المتحدة في سان فرنسيسكو ، قامت لجنة كردية بانتهاز الفرصة المناسبة ورفعت إلى المجلس خطاباً ومذكرة وخريطة مستعرضة مطالبها الوطنية في « كردستان حرّ ومستقل» . والجزم ، كما جاء في المذكرة ، بأن السلم لن يعم الشرق الأوسط بدون حل للمشكلة الكردية ، لم يكن قولاً باطلًا . ففي آب عام ١٩٤٥ عادت الدماء تجري من جديد في بارزان . وفي شهر تشرين الثاني من السنة نفسها ، عُقد مؤتمر كردي في باكو . وفي تركيا، بدأ الأكراد يثورون . ومن جراء الأحداث في أذربيجان ، منذ ١٣ كانون الثاني عام ١٩٤٦ أُعلنت جمهورية كردية في مهاباد برئاسة القاضي محمد ، إلا أنها لم تحيَ طويلًا . وفي كانون الأول أدخلت أذربيجان في الدولة الايرانية وأُلغيت الجمهورية في مهاباد، وكان ثمن هذا العمل البطش بالأكراد بدون شفقة ولا رحمة .

وبعد هذا التاريخ تضارب اتجاهان عند الأكراد ، فالشباب أخذوا يفكرون بإمكانية الاتكال على الروس ، في حين أن القدامى كانوا يشمئزون من كل اتفاق مع الروس . « لوموند ٨ مايو عام ١٩٤٦ » . وكالمعتاد نجد عند روندر معلومات واضحة عن هذه الحلبة من الزمن : برنامج القاضي محمد ، جمعية شباب كردستان في إيران ، منشورات شيوعية في العراق . ومن الفائدة بمكان أن نشير أيضاً إلى خطاب وجهه المستر فيليبس برايس إلى التايمس في ٢٤ أبريل عام ١٩٤٦ ، وهو نائب من المحافظين في البرلمان الانكليزي ، يمدح به سياسة السوفيات ، فيقول : « إن السوفيات وحدهم عرفوا كيف يجدون حلاً للمشكلة الكردية بأخذهم إياها من الناحية الاقتصادية وبمحاربتهم آفة الفقر في القبائل » . ويعتقد المستر برايس أن الحكومة الايرانية ، لو قامت ، بدلاً من رش أكراد بارزان بالرصاص ، باستخدام واستثمار الطاقات المائية في تلك الجبال الغنية بالفحم الأبيض ، لتمكنت من الحصول على سلم دائم » .

ثم هل يجب أن نؤكد من ناحية أخرى ، أن الشرق الأوسط ، عقب الحرب الكونية الثانية ، وتحت تأثير الحرب والأزمات المالية ، والأجور الباهظة التي اضطر الأميركان إلى دفعها لتغطية الحاجات العسكرية التي عادت فجفت بسرعة ، قد دخل في غليان اجتماعي أحدثه الغرب نفسه ؟!

وفي نتيجة هذه التجربة الرامية إلى تركيز المعضلة السياسية لا يسعنا إخفاء تمنياتنا إلى الأكراد ، كما أنه ليس بمستطاعنا ، من

جهة أخرى ، إنكار الفائدة الناتجة عن تتبع التجدد وتكوّن الروح الوطنية الجادة في إثره منذ الحرب الكونية الأولى في العجم وتركيا وغيرهما من بلدان الشرق الاوسط .

وهنا تقع المشكلة : فتطور كلا الجانبين جعل الاتفاق بعيد المنال ، والخروج من هذا المأزق يوجب التوصل إلى نتيجة انقلاب سياسي في مفهوم التعاون . فالبادرة الضرورية يجب أن تنبثق ، بادىء ذي بدء ، من الحكومات المعنية . وعلى الزعماء الأكراد أن يبرهنوا عن حسن نية وثقة . إذ أنه ما دام العلاج الناجع متأخراً فسيظل الحقل مبسوطاً أمام الدسائس .

*

الفصل العاشر

حياة الأكراد الروحية

*

طابع الديانة الكردية

بعد التدقيق في حياة الأكراد في شتى نواحيها ، لاحظنا أكثر من مرة الدور الذي لعبه الاسلام في هذه الحياة . كما وأننا رأينا كيف أن الأكراد خدموا الخليفة العربي واشتركوا عملياً في الحرب ضد الصليبيين (صلاح الدين) وتبنوا الحضارة الاسلامية (المروانية والشدادية) .

على أن الكردي في الميدان الديني ، كما هو في سائر الميادين ، يثبت ذاتيته المميزة . وسنعرّف القارىء إليها في هذا الفصل ، إذ سنبحث بادىء ذي بدء ، الاسلام كما يبدو في الوسط الكردي ، ثم اليزيدية كمذهب كردي صرف ، ثم طائفة أهل الحق التي

ليست هي كردية صرفة إلا أن كثيرين هم الأكراد المنتمون إليها.
وأخيراً سنتكلم باقتضاب عن الخرافات والمعتقدات الشعبية التي لا يمكن فصلها عن مجموعة الحياة الدينية التي يمارسها شعب يدور البحث عن مذهبه . وفي حين أن العقائد الدينية والطقوس المفسرة في الكتب المقدسة والمعلّق عليها من قبل اللاهوتيين تبقي إقطاعية النخبة المثقفة التي تتبع الجماهير الشعبية ما تفرضه عليها وتعيش في نفس الوقت على ركن قديم من التقاليد والمعتقدات التي تتناقلها من قرون إلى قرون ، وتتمشى عليها ، وربما تتطرف باستعمالها . فهذه الأفكار الدينية القديمة التي لا تزال تحيا في أغوار النفس الشعبية ، هي للبحاثة بمثابة دلائل تكشف النقاب عن حقيقة الحياة الروحية في البيئة المعنية بالأمر .

موقف الاكراد بازاء الاسلام

قد سبق أن ذكرنا في فصول سابقة كيف أن الاسلام أسهم في تطوير تاريخ الشعب الكردي وكيف كان له من هذا الشعب مؤيدون مستعدون دائماً للمحاربة بإسمه ومن أجل انتشاره، ورجال أتقياء يعطون المثل الصالح ويجدون في التبشير به فرضهم الاجتماعي، كالحاكم مظفر الدين من سلالة « بك ـ تكوينين » من هولر (اربل) . ويخبرنا كتاب شرف نامه بأسماء أكراد كثيرين من المحتمل أنهم كانوا أقل تقى من زعيم اربل ، غير أنهم كانوا مسلمين صالحين شرفاء . فقد شيدوا المساجد وأسسوا المدارس وقاموا بكل ما استطاعوا أن يقوموا به من أعمال البرّ والاحسان .

النخبة وتبحرها في الاسلام

هذه بعض الشهادات التي تثبت تبحر النخبة في الإسلام :

عُرف صلاح الدين الأيوبي الكردي الأصل ، بنشاط إسلامي خيّر . وبالرغم من أن نشاط هذا الكردي الكبير قد جرى خارج كردستان ، فإن أعماله تدل على رغبة الشرفاء من الأكراد في العمل الطيّب . فقد شيّد صلاح الدين مدارس كثيرة في القاهرة ، كما شيّد فيها داراً للكتب ومستشفى . ومن المدارس التي أنشأها مدرسة « القرافة » الكبرى و « القرافة » الصغرى قرب ضريح الإمام الشافعي ، ومدرسة قرب ضريح يُنسب للامام الحسين ،ومدرسة زينة التجار الشافعية ،والمدرسة المالكية، والمدرسة الحنفية في محلة قصر عباس . وفي القدس أيضاً بنى صلاح الدين مدارس كثيرة ، وقد أنفق كل ثروته في أعمال الخير والإحسان والانسانية . ويقال بأنه لم يوجد في خزينته بعد وفاته إلا ٤٧ درهماً من الفضة .

ويفيدنا كتاب شرف نامه عن أعمال الخير والاحسان التي قام بها هو وأجداده في بتليس، منها تشييد المدارس التالية : الاخلاصية حيث علّم شمس الدين مولانا محمد شرنشي ، قطب عصره في علم الفلك والعلوم الكلامية ، والحجّية التي علّم فيها مولانا محمد زازي المتصوف الروحاني ،والأدرسية وقد علّم فيها مولانا عبدالله بشتي المولى الأسود الذي كان يمارس سلطة روحية خاصة. والخطيبية، والشاكرية ، والشريفية حيث كان يعطي دروساً مولانا خضر بابي من آباء الطائفة الشافعية . ومدرسة الزاوية الشمسية التي تشبه

ديراً فيه مدرسة داخلية لطلاب اللاهوت . واشتهر شمس الدين من بتليس بإسم القديس فرنسيس للمسلمين ، إذ كانت الطيور تأتي وتشرب من كف يده .

إلى جانب هذه الأوساط الاسلامية الكردية الكبيرة ، لنذكر سواها من التي لم تحظَ بالاهمية الأولى في كردستان . وتأتي الجزيرة في المقدمة لأنها أنجبت رهطاً كبيراً من الجهابذة المشهورين في علم الكلام الاسلامي ، وكان يرعاهم ويحميهم بدر بك بن شاه علي بك ، ونذكر منهم : مولانا محمد بك القلعي ، أبا بكر ، حسن السرتشي ، زين الدين بابي ، السيد علي . ويروى أن أبا بكر اغتاظ مرةً وصمم على مغادرة المدينة ، فهب أعيان المدينة والأمير على رأسهم يتوسلون إليه كي يعدل ، فعدل عن الذهاب . واشتهر الرابع بمعرفته علوم الظاهر والباطن ، وقد دخلت الأحكام المنصفة لهؤلاء الأساتذة في الشرع الاسلامي الكردي . وإن قضية الجزيرة جديرة بالانتباه فهي أيضاً مقر لليزيديين ، وبلدة « زاخو » أيضاً شهيرة بما أنجبت من علماء لكردستان فاق عددهم علماء سائر المدن الأخرى . وفي « خوزان » أسس الأمير داوود بن الأمير مالك ، مدرسة دعاها الداوودية . ومدينة خلاط التي أنشأها الأكراد أنجبت عالماً كبيراً يدعى مولانا محي الدين الخلاطي ، وهو الذي دعي من قِبل ناصر الدين الطوسي لإشرافه على بناء مرصد في مراغه (القرن الثالث عشر) . وفي بلنفان ، شيّد محمد بن غيب الله بك المتزوج من ابنة الشاه طهمسب ، مدرسة وجامعاً كبيراً .

وإن هذه القائمة التي أدلينا بها نقلاً عن كتاب شرف نامه ، ليست كبيرة ولكنها كافية لتثبت أن كردستان في القرون المتوسطة والحديثة كانت كسائر البلدان الاسلامية بلاداً تنعم بمدارسها ومساجدها وشيوخها ورجال دينها وعلمائها .

وفي الخطاب الذي وجهته أنا بنفسي إلى المؤتمر الدولي السادس عشر للدراسات الاتنولوجية المعقود في بروكسل سنة ١٩٣٥ تحت عنوان : « بحث في التقاليد والأناشيد والقصائد الشعبية بالاستناد إلى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية » قلت عن قصيدة مم وزين : إن القصيدة كانت ترتدي طابعاً إسلامياً بحتاً بابتهالها المتواصل إلى الله وتعظيم القرآن الكريم وآياته .

وفي ديوان الشاعر الكردي سوسان نجد قصائد تسيطر عليها الروح الاسلامية ، وأذكر بنوع خاص قصيدة « سيسبان » التي تصف معركة بين المسلمين والمشركين وتأتي على ذكر الرسول وعليّ ، والحسين والحسن ، وعمر بن الخطاب . وهي قصيدة تتسم بطابع عربي .

والجامع الأزهر عرف بين أساتذته عدداً كبيراً من الأساتذة الأكراد . منهم الكيمائي عبد السلام المارديني الذي صنّف مخطوطاً بهذا الصدد . كما وإن لدينا كتاباً يبحث في علم الكلام نُشر عام ١٩٣٤ في القاهرة ومؤلفه هو السيد عبد الرحيم الحسيني المعروف بالمولوي ، وهو كردي من « سنّات »أما فيما يتعلق بناشر هذا الكتاب فهو محي الدين صبري نعيمة ويبدو أنه كردي غوراني من « سنّات» أيضاً .وقد دُرّس طيلة ٣٦

عاماً في الأزهر ونشر ما كتبه الغزالي والرازي وغيرهما

التصوف الكردي ــ سلطة المشايخ

الفكرة الدينية المعمول بها عند الأكراد هي التصوف المرعي في جمعيات الدراويش . وهو تصوف من الناحية العقائدية لم يحظ أبداً بتأييد العلماء رسمياً . أما من الناحية الاجتماعية فقد انطبق جيداً على البيئة ، أولاً بموجب المذهب النقشبندي ؟ ثانياً بموجب مذهب عبد القادر الكيلاني مؤسس المذهب القادري وهو حالياً منتشر تماماً بين القبائل الكردية بفضل الأصل الكردي الذي ينتسب إليه مؤسسه . وإن الدرويشية الكردية منظمة على الصعيد القبائلي ، والشيخ هو مرجع المذهب الصحيح ، يعلمه ويبشر به في مقره « الخناقة » ، محاطاً بتلاميذه حيث يصبح أفضلهم بعد ذاك خليفة له تجاه القبائل .

ولا بد من أن تكون قد وردت أمام القارىء أسماء بعض المشايخ عندما تحدثنا عن تدرج القبائل والحركة الكردية الوطنية . ولكن من المستحسن أن نتحدث في هذا الفصل مطولاً عن أولئك الأشخاص لما لهم من أهمية في كردستان . وهذه هي أهم عائلات المشايخ الكردية هناك .

أولاً تأتي عائلة شمدنان المعروفة بـ« سادة نهري » فهذه الأسرة يرجع أصلها إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وقد راح ابنه إلى أكرا يبشر بالمذهب القادري وقد دفن هناك ولا يزال قبره مزاراً للحجاج .وقد أقام فيما بعد ابنه أبو بكر في منطقة حريكي ـ قرية

الشيخ الكريم ، وأصبح بعد ذلك مرشد المذهب النقشبندي . وجعلت له شعبيته الكبيرة كثيراً من الأعداء والحسّاد ، نذكر منهم الشيخ معروف من السليمانية والملاّ محمد من بالك وهما اللذان راحا يهاجمان مكوث مولانا خالد في كردستان بهذه العبارات : « إن الأكراد جماعة سذّج ومؤمنون ، لذلك سيقدمون العطايا إلى النقشبنديين ، فيصبح هؤلاء أثرياء ، وستقع القضايا الروحية والزمنية في مأزق حرج ، ويعيش إذ ذاك أبناء مشايخ النقشبندية في الدلال والرفاهية بفضل ثروات آبائهم ، ويشبّون شامخين وواثقين من أنفسهم مما يؤدي بهم إلى نسيان مبادىء أجدادهم وحياتهم الساذجة . ولن تعود الأولية للشؤون الدينية إذ أن هؤلاء المشايخ سيحاولون التدخل في المسائل السياسية ويستولون على الحكم ، فيجعلون من أتباعهم عبيداً لهم . ومآربهم الخاصة ستثير غضب الحكومة ، فترسل هذه الأخيرة جيوشها إلى كردستان حيث لن يبقى بعد ذاك سكينة وعدالة » .

ولم يكتفِ أعداؤه بتلك الإساءات بل انتهوا إلى فكرة القيام بقتله . ولما بلغ الأمر مولانا خالداً الذي كان رجلاً تقياً ، ذهب إلى القسطنطينية ، فنصحه العلماء هناك بأن يذهب إلى البلاد العربية . وبعد عدة سنوات من التبشير في سوريا ، مات مولانا خالد ، ودفن في الصالحية بضواحي دمشق .

وقد قال عنه المولى سعيد الذي أعطاني هذا التأريخ . « إنه كان رجلاً تقياً وصالحاً ، لكن المبادىء التي زرعها في كردستان لم تنفع تلك البلاد . »

ستوني ـ حيث عاش من بعده إبنه الشيخ حيدر وخلفاؤه عدة أجيال . وفي زمن المولى الحجي ، أتت تلك الاسرة وسكنت في قرية مليان في خومارو ، ومن ثم انتقل احفادها فيما بعد إلى قرية دمانة شوفلا حتى عهد المولى صالح . وأبناء الأسرة الأخيرة تركوا المذهب القادري واعتنقوا المذهب النقشبندي . وإلى هذا الزمن يعود تاريخ قيام هذه الأسرة في نهري (عاصمة شمدنان) .

وبين دراويش النقشبندية يجب أن نذكر « مولانا خالد » من السليمانية . وكانت له سيطرة روحية قوية على أتباعه . والمولى خالد كردي عادي من أهالي منطقة شهرزور أصبح بعد إنهاء دروسه في المدرسة « المولى خالد » وشرع يعلم في السليمانية ، وقد رأى في الحلم يوماً الشيخ عبدالله دهولي كدرويش بسيط ، فأمره الشيخ قائلاً : « قم يا خالد واذهب إلى الحج ، فسترى هناك في الكعبة درويشاً مثلك ، فقبّل طرف عباءته وسيساعدك على تحقيق أمانيك » . غير أن خالداً لم يبالِ بهذا الحلم ، ومضت السنون ، فنسي خالد حلمه تماماً .

وذات يوم ذهب خالد إلى الحج ، وعندما بلغ الكعبة أبصر درويشاً فدنا منه فنظر إليه الدرويش نظرة طويلة وقال له بصوت هادىء عميق : « يا خالد ، أنسيت حلمك القديم ؟ إذا لم تذهب إلى دهلي ، فستكون طريق الخلاص أمامك طويلة الأمد » . فذهل خالد من كلام الدرويش وذهب إلى دهلي رغم المحاولات العديدة التي بذلت لردعه ، وفي دهلي أمضى سنوات عدة قرب الشيخ عبدالله في الصوم والصلاة ، ثم عاد إلى السليمانية يحمل بركة ذلك

ولننتقل الآن إلى عائلات بعض المشايخ الأخرى في كردستان. ففي السليمانية ، تتمتع سلالة الشيخ كاك أمادي بشهرة واسعة نظراً لانتسابها إلى قريش قبيلة الرسول . والشيخ سعيد ابن الشيخ كاك نقيب هذه البلدة الذي قتل في الموصل عام ١٩٠٦قام بدعاية واسعة النطاق بين أكراد العجم في زمن عبد الحميد ، للتمهيد للأتراك لدخول المناطق الكردية الواقعة تحت النزاع . ولكن ذلك لم يمنع الأتراك من أن يقضوا عليه . ونجل الشيخ سعيد ، الشيخ أحمد لم يكن معروفاً كأخيه البكر الشيخ قادر الذي التجأ إلى جماعة الهماوند بعد اغتيال أبيه ، حيث قام بثورة ضد الأتراك انضم إليه فيها شيخ برزان. وقد لاقى الأتراك صعوبة في خنق هذه الثورة .

أما العائلة المتنفذة في أورمان فهي عائلة الشيخ عثمان القاطنة في قريتي طويلة وبياري . وقد أنجب الشيخ عثمان ولدين هما الشيخ محمد والشيخ عمر . ونجلا هذا الأخير الشيخ نجم الدين والشيخ علاء الدين ، ونجل الأول الشيخ حسام الدين ، يمثلون هذه السلالة ولهم سلطة على قبائل موكري وماماش ومنفور . وهم من النقشبنديين .

وفي كركوك اشتهر نجل الشيخ علي التعلباني : الشيخ محمد علي المنتمي إلى المذهب القادري . وفي كركوك أيضاً توجد سلالة السيد عبد الرحمن وتمثل في شخص عبد الرحمن زاده من الطائفة الشافعية (الطائفة نفسها المنتشرة في القوقاز وداغستان) .

وكان السيد عبد الرحمن في الفترة المتراوحة بين الأربعين

والخمسين سنة من القرن التاسع عشر أقوى شخصية دينية في كافة أرجاء الكردستان . فكان لديه ما ينيف عن خمسين ألف مريد يبشرون برسالته في طول البلاد وعرضها .

وفي آماد يتمثل المذهب القادري في عائلة الشيخ نور الدين بريفكي . وفي منطقتي بتليس وفان ، نذكر الشيخ بهاء الدين ابن الشيخ محمد كفراوي . وفي منطقة هكاري ، سلالة الشيخ فهيم أوراسي ، لا سيما الشيخ عبد الكريم ابن الشيخ طه الذي كان قبل حرب عام ١٩١٤ يعيش في بشقالة .

ويذكر « روندو » مشايخ « بالو » أفراد عائلة الشيخ سعيد الذي هو بطل ثورة عام ١٩٢٥ ، وقد نجح في إشعالها بفضل نفوذه الديني من جهة ، وسلطته الاقطاعية والقبائلية من جهة أخرى . وحصل على تلك السلطة نظراً لزواج موفق عقده مع بنات الزعماء المحليين الأثرياء .

ويوجد في كل من أكرا وزبار أسرتان من شيوخ المذهب النقشبندي ،الأولى من سلالة الشيخ عبد السلام البرزاني الذي اغتال الأتراك أنجاله خلال الحرب الكونية الأولى . أما الأسرة الثانية المقيمة حالياً في قرية بدجلي ، فيمثلها الشيخ بديع البوجلي نجل الشيخ محمد .

لقد رأينا ، على الصعيد الديني ، أن المشايخ هم رؤساء جمعيات الدراويش ،وأهمها جمعية نقشبندي وجمعية قادري . فالأولى أسسها الحجة محمد بهاء الدين من بخارى ، وهي أقدم جمعية روحية كردية ، وقد قال المؤرخ هامر بهذا الصدد إن النقشبنديين يعتبرون

أن أول حلقة في سلسلتهم هو الخليفة أبو بكر . بيد أن أتباع سائر المذاهب يعتبرون أن علياً صهر الرسول هو الحلقة الأولى في جمعياتهم الدينية . وقد انتشر المذهب النقشبندي في كردستان بعد المذهب القادري .

ويتعذر علينا الدخول هنا في تفاصيل الدرويشية أو الصوفية غير أنّا نوجز قائلين إن المريدين ينتسبون إلى درجة أو إلى درجات بتعيينات من المرشد . وهم يتطهرون أدبياً ويعكفون على التعبّد إلى الله والاتحاد معه في حالة النشوة والغيبوبة . والطرق الدينية الخارجية للوصول إلى هذه الدرجة تتجلى في الصلوات ، فلها معنى روحي خاصّ في الذكر والتلقين ، وترافقها أكثر المرّات حركات ورقصات مختلفة .

وتعقد الاجتماعات الدينية في بيوت معدة خصيصاً للصلاة توجد في كردستان : في ساوج بولاك ، ونهري ، وبرزان ، وبريفكان ، وبدجيل ، الخ ...

الموقف الكردي من اليزيدية

إن اليزيدية التي يعتنقها بعض الأكراد هي إحدى طوائف كردستان ، ويقول مارّ إن هذا المذهب كان يضم أكثرية الأكراد قبل اعتناقهم الدين الاسلامي . ومن المعلوم أن الأكراد في الحرب ما كانوا ليذبحوا اليزيديين بل كانوا يسترقونهم عبيداً [1] .

---

١ ـ يقطن اليزيديون في قضاء شيخان ـ منطقة الموصل ـ على جبل السنجار ١٦٠ كلم غربي الموصل ، وفي منطقة ديار بكر وحلب ، وفي ارمينيا السوفياتية قرب تفليس . وعددهم الاجمالي لا يتعدى السبعين ألفاً .

المذهب اليزيدي وتاريخ اصله الاسلامي

إن هذا التاريخ ورد في كتاب للاسكو اسمه « التحقيق عن اليزيدية في سوريا وفي جبل سنجار » (١٩٣٨) وبناءً على التحقيقات التي وردت في الكتاب المذكور ، يكون مؤسس اليزيدية الشيخ عادي ابن مسافر .

وُلد هذا الشيخ في سوريا بين عام ١٠٧٣ و ١٠٧٨ ، وتوفي بعد أن بلغ التسعين من العمر . وقد تعرّف في بغداد حيث قضى الشطر الأول من حياته إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وترك الشيخ عادي بعض النصوص التي تفسر مذهبه ، فهي لا تنحرف عن الاسلام وليس فيها أي شيء يجعل من كتاب المذهب اليزيدي كتاباً هاماً ، يقول لاسكو : « والجدير بالذكر أن « عادي » يفسّر بأن الله هو الذي خلق الشيطان والشر فيقول : « إذا كان الشر موجوداً رغم إرادة الله وبمعزل عنها ،فهذا الأخير غير مقتدر. إذن ، فكائن غير مقتدر لا يمكن أن يكون الله » .

وفي نظر بعض آباء الكنيسة الشرقيين « كزوريسم وبندورا » اللذين عاشا في مصر ، أن الملائكة الساقطين تعذبوا من أجل البشر على غرار « بروميثي » خاطف النار الذي عوقب لأنه أراد منفعة البشرية !

وبعد أن غادر « عادي » بغداد ، أقام في هكاري في خرائب دير مسيحي حيث تقشّف وتنسّك ، فأدّى تقشفه وصومه وزهده إلى بسط سيطرة فعلية على الأمارة برمتها . وبعد وفاته انشطر مذهبه شطرين : الشطر الأول : من أهل السنّة ، والشطر الثاني :

من أهل الشيعة . ثم بدأ بينهما صراع مذهبي دام جيلاً كاملاً .وقد انتصر المذهب الأول في سوريا ومصر ، والثاني في كردستان . وفي القرن الثالث عشر برزت اليزيدية إلى حيز الوجود دون بعض الاعتقادات التي أُلحقت بها فيما بعد .

إن الايمان بإمامة يزيد الخليفة الأموي ، وبقداسة « عادي » وترجيع إبليس إلى مقامه السابق ، من أهم المبادىء اليزيدية المدعومة ، من جهة أخرى ، ببواطن الأساطير التي لم نكمل دراستها بعد . وإني أعتقد بأهمية تلك البواطن التي تحدث عنها مؤلف تاريخ إسلامية اليزيدية ميشال آنجلو كيودي الذي أسلم . ولهذا السبب أيضاً رأيت من الضروري أن أثبت تعليق مارّ الذي يقول إن بحث اليزيدية يجب أن يتناول كل ما يحيط بها .

إني لن أدخل في تفاصيل كتاب لاسكو إلا أني أود أن أشير إلى أن في إيمان اليزيدي المعاصر « إلهاً واحداً يسلم شؤون هذه الأرض إلى معاونيه الملائكة السبعة » . ومن المستغرب أن نجد بين الملائكة اسم الشيخ الحلاج مما يشير إلى أن هنالك اتصالاً روحياً بين اليزيديين وغير اليزيديين كما يلاحظ لاسكو .

لقد ذاب آخر أحفاد الجماعة الحلاجية في جمعية القادرية التي عُرف « عادي » بؤسسها . ويتساءل « لاسكو » لماذا يجل اليزيديون الروح السفلي ، الطاووس الملاك ، فيأتي على ذكر بعض الروحانيين المسلمين الذين شغلتهم مسألة هلاك إبليس الأبدي . فعبد القادر الكيلاني والحلاّج وأبى العربي وأحمد الغزالي اعتبروا أن الشيطان رفض الخضوع لآدم وأبى تكريمه التكريم الواجب لله وحده ،

لكنه لم يسقط إلا من جراء حبّه الزائد للألوهة . وبدلاً من أن يقوم هؤلاء بلعنه كانوا يطلبون من أتباعهم ألا يلعنوه . ونلفت النظر إلى أن أول عقيدة دعت إلى تكريم إبليس ظهرت في القرن السابع عشر ، في حين أن الاثباتات المكتوبة عن اليزيديين ظهرت في القرن الثاني عشر .

وفي فقرة الواجبات لهذا التكريم : صلوات ، وصيام ،وأعياد، وذبائح ، وتقشف . أضف أن الأوسيين يقدمون حملًا ذبيحة لإله الشر . (المدنية في القوقاز – بيهان ومايو ١٩٣٦) ويحمل الأوسيون أيقونة محفور عليها رسم ديك ، بينما يوجد في أيقونة اليزيديين رسم طاووس .

ويتمسك « لاسكو » بالتاريخ ليقيم الدليل على أن في اليزيدية أصولاً غير إسلامية فيلاحظ أن معتقدات وخرافات إيرانية صُفّت أولاً إلى جانب بعض المعتقدات الإسلامية ، ومن ثم ، تقدمت تلك على هذه تدريجياً إلى أن أصبحت هي الأصل في المذهب اليزيدي ، وضُرب صفح عما في اليزيدية من أصول إسلامية ، فنسي اليزيديون أنهم كانوا مسلمين .

أما أنا من جهتي فلا أعتقد أن الأكراد اليزيديين كانوا في البدء مسلمين .

إن أطروحة « مار » التاريخية تضع الأكراد اليزيديين في وسطهم الحقيقي ، إذ أن مذهب « عادي » حوّر به أتباعه . والجدير بالذكر أن الأكراد كانوا قبل ظهور «عادي» ، يعتقدون بعدة نظريات دينية ويمارسون عادات خاصة بهم لا علاقة للاسلام

بها على الاطلاق ،لكنها نضجت فيما بعد ونمت تحت تأثيرات متباينة ومختلفة ، فاليزيدية ليست إلا مرحلة في التطور الديني . والمهم ألا نتحول عن الموضوع ونتمسك بأهداب وقشور لا تمت إلى البيئة الكردية وتطوراتها بصلة . ونحن نوافق « لاسكو » عندما يقول : « إن النظريات بصدد اليزيدية ، ستنقلب رأساً على عقب يوم تجتمع لدينا وثائق كافية تتحدث عن الشعب الكردي وعاداته وتقاليده » .

اليزيدية كما يراها البروفسور « مار »

بعد أن تطرق البروفسور مارّ في دراسته إلى كلمة « تشلبي » وأوضح أن هذه الكلمة ظهرت عند الأتراك السلجوقيين في بداية القرن الرابع عشر ، وهي مأخوذة عن الأكراد الذين أخذوها بدورهم عن الآرامية « تسيلْم ْ ـ تسلما » التي تعني « صورة » انتقل هذا العالم الروسي إلى بحث البيئة الاجتماعية والأصل السحيق من حيث انبثقت تلك العبارة ، فقال : « إذا كانت كلمة «تشلب» أي الله هي من أصل يافثي ، أو بكلمة أدق ، يافثي جنوبي ، وإذا كانت كلمة تشلبي المتفرعة عنها لا تعني « إلهي » فحسب ، بل تعني أيضاً : « شريفاً ، ونبيلا ، وسيداً ، ورب بيت ، وموسيقياً وشاعراً ومثقفاً » وأيضاً : « كريماً ، وأديباً ، وجلياً ، وأنيقاً » أقول إذا كانت تعني كل ذلك ، فمن الواضح أنه يصبح لدينا ، دون اللجوء إلى البراهين ، جزء خطير من تاريخ الشعب الذي ابتدع تلك الكلمة . ومن الجلي أيضاً ، أن الشعب الذي ابتدع تلك

الكلمة المتشعبة المعاني كان :

١ – يعتنق مذهباً أبصر النور على الحدود الجنوبية للعالم اليافثي .

٢ – شعباً يعيش في نظام اجتماعي له طابعه ، وطبقاته على الأقل طبقتان : النبلاء والعامة .

٣ – له في طبقة النبلاء صف يمتاز عن سواه ، ينحصر فيه الإكرام الديني ويكون وجوده على أساس وراثي . وفضلاً عن الإكرام الديني ، كان العلم والغناء والشعر والموسيقى صفات تمثل هذه الطبقة البارزة .

٤ – أعطته تلك الطبقة نظاماً اجتماعياً ولبّت رغبات مجتمعها عقائدياً ووضعت معنى للطبقية الاجتماعية مع الفوارق، كما حددت التعابير السامية التي تطلق على النبلاء في كل مكان .

٥ – صنع تاريخه بمعزل عن المصادر المكتوبة ، وفي القرن الرابع عشر اختلط جزئياً أو بكثرة مع الأتراك السلجوقيين واستجلب معه إلى لغتهم كلمتي « تشلب وتشلبى » اللتين أنضج مفهومهما تاريخه الوطني الغابر منذ آلاف السنين . ومن المحتمل جداً إذ ذاك أن تكون تلك الكلمة ذات المعاني المختلفة عنواناً للتاريخ الكردي . وهذه أيضاً مسألة أخرى معقدة .

وإن مارّ وهو يحدثنا عن تفاصيل البحث الذي قام به بشأن كلمة « تشلبي » يقدم لنا مجموعة من الإفادات عن مركز اليزيدية بالنسبة إلى عقائدهم العريقة في القِدم بآسيا القديمة ، وسنحاول اختصار تأملات مارّ واستنتاجاته ، وعلينا أن نشير إلى أن

مارّ يرى أن التراث الديني الكردي يتقدم في التاريخ زمن الاسلام .

المعتقدات في آسيا القديمة

إن التباين في المعتقدات والتقسمات الحالية في الوسط الكردي على الصعيد الديني ، هي ، بنظر مارّ ، نتيجة للانتصارات المسيحية والاسلامية المحققة ضد المعتقدات في آسيا القديمة . ويبدو أن المذهب الكردي الشعبي ، بنوع خاص ، لم يقرّ بالغلبة من جهته فكان يقوم بأعمال ، حتى ضمن الأديان المنتصرة ، تطعن هذه بعض الطعن بما يؤدي إلى وصف تلك الأعمال الاحتجاجية بالهرطقة . هكذا ، في أرمينيا المسيحية ، نعرف طوائف مختلفة بما فيها « أبناء الشمس » تكشف لنا النقاب عن آفاق جديدة في تاريخ الحياة الدينية في تلك البلاد إذا ما أقدمنا على مقارنتها ببعض عقائد الأكراد . ولا يمكننا والحالة هذه الأخذ بعين الاعتبار نظرية الأرمنيين تشمتشيان وأبوفيان القائلة بأن اليزيديين هراطقة انشقوا عن الكنيسة الأرمنية ، لكن القضية هي بالعكس من ذلك ، أعني أن ظهور الهرطقة في الكنيسة الأرمنية حدث من تأثير مذهب شعبي كردي يشبه جوهر المذهب اليزيدي الكردي .

إلا أن مارّ ينظر إلى القضية من هذه الناحية فيرى أنه قبل ظهور الأتراك في آسيا القديمة ، حدثت حركة دينية قوية في وسط الكنيسة الأرمنية ، فتعدّت حدود أرمينيا واكتسحت بيزنطيه

وبلغت أقصى الغرب تحت أشكال متباينة وأسماء مختلفة . وكان أن تركت آثاراً قوية — في جملة ما تركت — في العقيدة اليزيدية .

ومما يقوله أحد المراقبين الأوروبيين : « إن اليزيدي لا يصلي أبداً ، وإنما يصلي بصورة استثنائية للشمس . فعندما تشرق الشمس ، على اليزيدي أن يخر ساجداً أمامها ثلاث مرّات ويقول :

« أشرقت الشمس فانهض أيها التعس ! انهض واعمل واجباتك الدينية . لا إله إلا الله والشيخ عادي صديق الله . ومن ثم يقبّل الأرض التي بلغها شعاع الشمس ، فيزرع في الأرض حجراً يمثل هيكل الشيخ « عادي » ، ثم يدور حول الحجر ثلاث مرات . ولا يجوز أن يراه أحد ينتمي إلى دين آخر ، أو ينظر هو إلى أحد وهو يقوم بصلاته » .

والأمير كمران علي بدرخان في خطابه عن عبادة الشمس عند اليزيديين ، لا يعتقد بأن اليزيديين هم عبّاد الشمس . إلا أنه يذكر أن الأتقياء يقبّلون نور الصباح على جذع الشجر . وهناك شهادة أخرى تفيد أن المرسل المسيحي « الماران » في القرن الرابع ، كان يهدي عابدي الشمس من الأكراد إلى الدين المسيحي . فعلى ضوء تلك الاعتبارات ، يبدو أن اليزيديين من الأكراد لا يزالون يمارسون بعض مبادىء مذهب زرادشت .

وملحمة البطولة الكردية الشهيرة « مم وزين » تروي لنا قصة

الأمير « مام » الذي حُصر وهو في عهد الدراسة في مكان لا يدخله نور الشمس . وذات يوم بينما كان يلعب مع رفاقه حدث أن كسر زجاج النافذة الذي سبّب دخول شعاع الشمس إلى الغرفة . وما أن رأى الأولاد شعاع الشمس حتى هرعوا يهتفون جميعهم : « هوذا الله » وحاولوا القبض عليه ، إلا أن المعلم أوقفهم وأخذ يشرح لهم عن الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وقال لهم : إن الله هو السيد المطلق لهذه الأجرام والكواكب . فتلك الإشارة ، لا بد من أن يكون لها معنى في معنى عبادة الشمس .

والمهم في مذهب اليزيديين رأيهم إذ يعتبرون الروح المنسوبة إليها روح الشرّ قد انفصلت في البدء عن الله ، وفي النهاية ستعود إليه . ولا يجوز اعتبارها خليقة معاكسة للخير ، بل قوة طبيعية تعمل في اللاوعي . فمن الواضح إذن ، أن نظرية الشر ليست كأساس ولا توجد في أساس مذهبهم . كما وإنهم يعتبرون الروح الساقطة ، بفضل طبيعتها الأصلية ، ورسالتها وعودتها إلى حالة الإكرام والاحترام كما كانت في البدء ، تشكل مادة عبادة خاصة عندهم .

الخميرة الوثنية الكردية في ارمينيا

يؤكد مارّ أن الخميرة الوثنية دخلت العالم الاسلامي في آسيا الصغرى بواسطة الأكراد ، إذ كانت الجماهير الكردية تتدفق إلى أوساط السلجوقيين في حين كان الاسلام يبني على أنقاض المسيحية

التي أنهكها الصراع مع الحركات الدينية الشعبية ، وفي تلك الأثناء تأسس دين جديد هو الدرويشية ، وما بدأ هذا الدين نشاطه حتى اصطدم بجهات قتال كثيرة ، واضطر إلىمناهضة الاسلام المسيطر في ذلك العهد . ففي الدرويشية ، كما يقول البروفسور سميرنوف ، لاقى المذهب المانشوي تجسيده . غير أن نظام الدراويش « المولوي » المميز بثقافته العلمية ، كما تأسس في كونياه في القرن الثاني عشر ، أبى إلا أن يطلق العنان لتطوره ويخرج من محيطه الطقسي ، إذ كانت تسيطر حواليه ، على الجو ، فكرة التجدد الداخلي في الانسان بواسطة الاتصال المباشر مع الله خارج الطوائف ودرجات الكهنوت . وفي أرمينيا ، البلاد المجاورة ، اشتهر القرنان العاشر والحادي عشر بالمعارك الطاحنة بين الكنيسة والحركات الدينية الشعبية ، والتي تهمنا من تلك الحركات هي الحركة الدرويشية التي نشرها في بداية القرن الحادي عشر جاكوب من خارك (باشاليك بايزيد) . وكان أتباع جاكوب يعيشون حفاة مسربلين بثياب من الصوف غليظة ، وكان بينهم نبلاء وجماعات من الشعب بكثرة ، وكانوا يعظون بطهارة الحياة وبالصوم ، والندامة ، والكمال ، وهم يتنكرون لرجال الدين وطوائف الكنيسة الرسمية . فسمت تلك الحركة الوثنية القوية فوق كافة المنازعات الطائفية وكان لها تأثير عميق في جميع الطوائف المسيحية . وقبل البحث في الهند أو في الاسكندرية عن أسس الدرويشية المحددة بالزمان والمكان — كالدرويشية في كونياه في ظل عهد السلجوقيين مثلاً — ربما كان من الضروري كشف

هذه الطائفة وبين المسيحيين . ويوجد من هذه الطائفة في درسيم بين جماعة كيزيلباج . وهم يعتقدون أن الروس سيحاربون الأتراك بالسيف الذي أهداهم إياه علي . ويوجد أيضاً عند جماعة « علي إلهي » أدب مكتوب بلغة غورانية ، وقد توصل مينورسكي إلى الحصول على مخطوطة من هذا الأدب عنوانها : « سر نجام » .

والقبائل الكردية التي تنتمي إلى هذا المذهب هي قبائل منيشي من جماعة الكلهور ، والسنجابي ونواة جماعة غوران . إلا أننا لا نجدهم في جوار برديفر الخطيرة بالنسبة إلى تقاليدهم ولا في كردستان الفارسي : في « سنّات » أو في سالوج بولاك . وقد علّل ذلك مينورسكي قائلاً بأنه نتيجة نفوذ مشايخ النقشبندي .

وأهل الحق يحفظون أيام الأعياد والصوم . ويحتفلون بعيد النوروز على نطاق واسع . وهم على غرار الدراويش الصوفيين ، يعرفون أيضاً جلسات الانتشاء بالله وترديد صلوات الذكر التي ترافقها الموسيقى والأحاديث عن حب الله والحب الأخوي ، أما عقيدتهم عن أصل الشرّ فلم تنجلِ بعد تماماً . وأهل الحق حاولوا حل قضية العقاب والثواب في اعتقادهم بالتناسخ .

الاساطير الشعبية الكردية

الشمس في نظر الأكراد امرأة جميلة تبهر الأبصار بمرآها ، والقمر رجل ذو وجه ظليل . وتروي بعض الأساطير الشعبية أن

النقاب عن العلاقات الدينية المتقاربة جغرافياً والمتعاقبة تاريخياً.
أما بصدد الوقائع الناتجة عن هذا العمل ، فيجب الأخذ بعين الاعتبار « التأثير الديني الكبير » الذي ينسب إلى أرمينيا في آسيا الصغرى منذ القرنين الحادي عشر والثاني عشر .

والخلاصة أن مارّ يرى أن اليزيدية هي الديانة الكردية الأصلية التي كان الأكراد يعتنقونها قبل الاسلام ، إلا أنها فقدت كثيراً من حقولها بعد اعتناق الأكراد للدين الاسلامي .

اهل الحق

إن مذهب هذه الطائفة الذي نوّه عنه مارّ له علاقة أيضاً بالكردستان وسنتكلم عنه باختصار :

ينبهنا مينورسكي إلى أن القضية ليست مجرد تأليه الخليفة الرابع ، إنما القضية تقتصر على تجسد سبع ألوهيات ، وعلي واحد منها . وكان في كل مرة أربعة ملائكة يرافقون الإله المتجسد . وعلى غرار المذهب الاسماعيلي يخلف الإله المتجسد أحد الرفقاء الأربعة ويكون عادةً أقواهم . كما أن إنزال كلام الله لم يحدث في عهد علي ، بل حصل حين ظهر بابا خوشين والسلطان اسحق .

وأتباع هذا الدين يعتقدون بالتقمص . وهم يمارسون أنواعاً غريبة من العقود الروحانية فيما بينهم . ويصير توزيع وتكسير الخبز واللحم المسلوق على الحاضرين ، إلا أنه لا يجوز مقارنة هذا العمل بتناول القربان عند المسيحيين ، إذ لا يوجد أية علاقة بين

الشمس والقمر كانا مخلوقين بشريين . فلما لم ترضَ الفتاة عن المهر الذي عرضه عليها خطيبها وصرفته براعاة ، صاح خطيبها : « انقلبي إلى كائن يستحيل الوصول إليه !! » فانقلبت إلى شمس وانقلب هو إلى قمر . أما كسوف الشمس وخسوف القمر فعملان تسببهما مخلوقات مضرة يجب لطردها إثارة الضجة ، وإطلاق العيارات النارية ، والضرب على النحاس والتنك . ويعتبر المولى عندهم أن الكسوف والخسوف يعنيان غضب الله ، فينبغي إذاً إقامة الصلوات . وأن السماء ترتكز على أعمدة يحكمها سليمان الذي يستطيع أن يدمرها متى شاء .وأنها ــ أي السماء ــ ستتطور في كل جيل . أما درب التبّانة فهو الطريق إلى مكة ، وما يتفرع عنه فهو الطريق إلى المدينة المنورة . ولكل إنسان نجمة تقع من السماء عندما يموت .

ويصلـّي الكردي عندما يبصر نجمة تشهب ، أما النجم المذنّب فيعني أن مصيبة كبرى على وشك الوقوع . وكبعض الشعوب يعتقد الأكراد أن الرجل إذا مرّ تحت قوس قزح ينقلب إلى امرأة ، والمرأة تنقلب إلى رجل . والله يأمر سليمان لإرسال المطر إلى المناطق . وسليمان ، بوصفه ملك الطيور والحيوان ، يأمر بدوره « حماي » . وهذا الأخير يجمع الطيور حالاً ويقول لهم : إذهبوا واجمعوا المياه من المحيط الفلاني أو البحر الفلاني ثم اصعدوا واسقوا المكان الفلاني . والفروقات في نقاط المياه هي من جرّاء الفروقات في أحجام الطيور . ويسبّب البرقَ والرعدَ خيّال يرود الفضاء وبيده سياط نارية ، فضرب السياط هو الرعد ، وشرارات

سياط النار هي الصاعقة . وإذا قضت الصاعقة على أحد قيل : عاقبه الله لأنه خاطيء . ولا يجوز إطفاء الحريق الذي تسببه الصاعقة . والأرض ترتكز على ظهر ثور برّي عندما يرتعش يحدث الزلزال الأرضي .

ويقول « التشورسين » في دراسته إن الأكراد لا يحصون المواشي التي يمتلكونها خوفاً من إصابتها بعين جارهم . ولمحاربة انحباس المطر تذهب النساء إلى العين ويستحممن أو يربطن أنفسهن بالمحراث ويفلحن مياه النهر . أما في سبيل إيقاف المطر فيأخذ الأكراد رمة حبل ويعقدونها تسع مرات وعند كل عقدة يسمون اسم رجل أجرد الذقن . وهذه العادات الأخيرة يستعملها بعض الشعوب في القوقاز لأن الشعوب تقتبس الأساطير بعضها عن بعض فيما إذا كانت متجاورة .

الثعبان في المعتقدات الكردية

سأنجز هذا الفصل الذي بسطنا فيه العقائد الدينية الكردية ببعض الملاحظات عن الأفعى . إن الأفعى تلعب دوراً في الرمزية اليزيدية . فإذا اعتبرنا أن الأفعى مخلوقة شيطانية قادنا هذا الاعتبار إلى إمعان النظر في صراع العقائد الدينية والاجتماعية الذي تدور رحاها بين المباديء اليونانية والمباديء الآسيوية في آسيا الصغرى . وهكذا تتبين لنا خفايا دينية نكتشفها في تعليل الأساطير الكردية وغير الكردية . فنحن هنا أمام مجموعة من التقاليد التابعة إلى

الأفعى نلتقي بها ونحن نتعرف إلى الأرمن والأكراد والماديّين والسيثيين .

إن دور الأفاعي على أكتاف زوهاك في تاريخ العادات الكردية الشعبية ، هو دور الأفعى في تقاليد اليزيديين الذين حافظوا أكثر من سواهم على بقايا المعتقدات القديمة فيما بين الأكراد . وبعض الأدلة تشير إلى أن التقاليد حدّدت ملجأ الأفاعي في بلدة « أورامار » الصغيرة في قلب كردستان المتوسط . ولا شك أن لإثنتين من الأساطير عملاً كبيراً في هذه الأسطورة التي نحن بصددها . الأولى وثنية ، والثانية مسيحية نشأت على أنقاض الأولى . ويروى أن قديساً ، هو « مار مامو » سحر الأفاعي وحصرها في قبر وشُيدت كنيسة فوق القبر . ولا تزال الكنيسة موجودة حتى الآن وتقوم عائلة كلدانية بحراستها في البيئة الكردية . وفي كل عام يرى الحارس المسيحي أبا الأفاعي . ويسود الاعتقاد في المنطقة هناك أنه إذا ما حصل شيء بحرم العائلة المسيحية من هذا الإمتياز ستخرج الأفاعي من القبر وتجتاح المنطقة .

ويروى عن اليهود الجبليين في القوقاز أنهم يعتقدون بوجود روح « اوشديهومار » المشتق عن دين الأجداد الذي يشبه دين الروس القدماء ، وأن هذه الروح توجد تحت أرض البيت ، ولها شكل أفعى ذات سبع رؤوس . أما الروح نفسها فهي غير منظورة ، وإنما يُترك أمر الظهور لأبنائها . والجدير بالذكر

أن هذه الروح هي بمثابة حارس أمين لسلامة العائلة ، لذلك يقدمون لها عسلاً كتذكير لها بواجبها . وهذه الفكرة لها علاقة بالخرافة الشعبية المعروفة والتي تعتبر الأفاعي أرصاداً على الكنوز .

*

الفصل الحادي عشر

الأدب الكردي

*

أول ما يدهش له الانسان عند القيام بدراسة الأدب الكردي هو غزارة القصائد الشعبية في هذا الأدب . وقد قال فلتشفسكي إن غنى القصائد الشعبية ليس إلا نتيجة طبيعية لجهل العامة اللغة الأم . وهذا الجهل تفرضه في أكثر الأحيان بعض الطوائف التي ينتمي إليها أصحاب هذه اللغة ، كما هي الحال عند اليزيديين مثلاً حيث يبقى مجال العلم محصوراً في درجة من درجات الكهنوت . غير أننا نعرف من خلال ما اطلعنا عليه آنفاً أن المدارس عند الأكراد المسلمين كانت عديدة . ولكنها مدارس دينية

أكثر منها علمية ، وتقوم بتلقين التلميذ واجبات الدين الاسلامي .

ويعتقد فلتشفسكي أيضاً أن عنصر الغزارة الزائدة في القصائد الشعبية يرجع في البدء إلى طبقة الاقطاعيين الذين كانوا يحاولون بها السيطرة على العامة . وليس من ينكر أن أكثر تلك القصائد تتحدث عن الحرب ومغامرات الأكراد وغزواتهم وعن الآغا والشيخ وحلفائهم .

وسنورد فيما يلي بعض الأشعار الغنائية الكردية .

تبادل التمنيات عند الفراق

*

ها قد دنا الربيع ،
وحان الوقت للخروج من المنزل ،
وفي دار حبيبتي حرّ !
وقد اجتاحته البراغيث ...
إن برعمَي صدر حبيبتي كانا صغيرين !!
في العامين الماضيين .
أما هذه السنة ، فيمكن مداعبتهما ... هايليلي هايليلي ! [1]
أنا على النافذة وأنتِ على النافذة ،
تعالي نتعاهد . .

---

١ – لا معنى لهذه العبارات سوى « يا حبيبتي ، يا حبيبتي » وهي قريبة من كلمة مثلها تستعمل في الاغاني الشعبية الروسية .

أنتِ على حلاكِ !
وأنا على خنجري !
تعالي أضع يدي على عنقك الذهبي ...
ولتبتعد عنا عيون الشياطين وذراعا التفرقة ، هايليلي هايليلي !
إننا ننتقل إلى الاصطياف ،
إلى حقل أخضر رحيب ...
يا حبيبتي ، إياكِ أن تعقدي خطوبتك ،
على هذا اليتيم المسكين !
يجب هذه المرة أن أغرز إصبعي في عين المصير ...
تعالي . لا تذهبي ، تذكريني ...
احفري إسمي على الخاتم الذي في إصبعك .
وعندما تذهبين إلى القرية ،
ضعي إسمي على شفتيكِ ...
لا تحزني . لا تضعفي !
أود أن يبقى ظهر حبيبتي خطاً مستقيماً ...
عزيزتي ، يجب أن تنبت الزهور مكان الزهور ...
ويليلي ويليلي !!

ذكرى معركة

*

عارٍ ومحروق كلوح الحجر !
أنظر إلى أبي صالح ،

كيف يمتطي فرساً عربياً ويحمل السلاح !!
وجلال الدين يوجه نداءه إلى العبيد الآبقين.
أسرع أتت الساعة ... إنه لوقت حرج !
تحذر من « عثمانكي زور » .
ها قد دخل الجنود في الضباب ...
إسمع طلقات النار ،
على كتف أخ عثمان .
عثمان قاتل الرجال !
يوجد ثغرة في الجبهة ،
انظر إلى الممر المفتوح للفرار ، في الأمام .
لقد حان الوقت كي تصلنا المساعدة من « تلة كايدي »
وصعد أبو صالح إلى غرب المرتفع !

حديث عاشقين قبل المعركة

*

يا حبيبي ، قلت لك :
إنه قادم من دير الزور ثلاثون خيّالاً !
وإني أجهل من هم .
لكن أعتقد أن أحدهم هو العميل الأميري بابي حسن !
والذي يأتي وراءه هو الخيّال منصور !
وبعدهما الفارسان الجريئان بابا أمين ومحمد علي !

فأجاب الحبيب :
يا سيدة ، أقسم بالله ...
يوم المعركة التي يدور رحاها في جبال البشيرية ،
وفي سهل « بيل داري »
وقع بابا أمين من على الجواد !
إن « سيرتاغولا » مكان منحوس كأنما حُرقت أعشابه !
يا سيدة ، أقسم بالله صراحة ودون تردد :
أن بندقية بابا أمين جيدة ...
فهي بندقية لا تخطىء ،
وفي يوم المخاطر تطلق مائة طلقة ...
ولا تقع رصاصة على الأرض . كلها تصيب الهدف !
أما بندقية منصور ،
فهي مصنوعة في البيت وقد أكلها الصدأ ...
وفي اليوم العصيب لا تطلق رصاصة واحدة ...
في « سيرتا غولا » يوجد جبل !
قم وضع السيف في وسطك .
احمل بندقيتك ،
واذهب بنشاط !

معركة بين الاكراد والاتراك

*

أيها الأمير ، بدأت المعركة خلف الجامع ،

أمسك رجال « شيخان » بنادقهم الألمانية !
ثم اجتمعوا وراء الهيكل ...
هلموا واضربوا قبور ذوي القبعات الحمراء : قوم طوران ، الأتراك .
سنقتل الشاويش والباشاويش والانباشي واليوزباشي ،
سنحرق قبور آباء الذين ينفخون النفير !
منذ عهد علي عمر باشا ،
لم ندفع الجزية ...
أرسلوا لنا شاعراً يحمس المحاربين !!.

آه يا حبيبتي

*

تعالي وتكرمي عليّ بقبلة على كل خدّ ...
إنني أبتهل إلى الله تعالى ! هاري ليلي هاري ليلي !
أنا هنا عبدكِ الوضيع ...
وسأكون خادماً لكافة أمورك الجميلة .
أيها الجبل الشامخ ، غاري داغ ،
قافلة أبي تمرّ من هنا ...
إن رأسي تحت تصرف قامتكِ ،
وعينيكِ الواسعتين ،
وجبينك الناصع البياض !

الشاعر والحسناء

*

أيتها الطائشة ، إسمك حلو كالسكر !
عزائي الوحيد أنني لن أتركك
سأقودك إلى مخدعي وسأغلق النوافذ ...
وسأضع فمي على رقبتك الجميلة ...

*

يا عزيزي ، أنا لست طائشة .
لست قصيرة ولا طويلة .
ها أنا ذا بعقد المرجان ...
وإسوارة الذهب !
إني لأتكبر على جميع شباب الجزيرة ...
ولكن ، مع شاعر في المساء ،
لن أبالي بالفقر أو بالغنى !!

*

يا طائشتي ، لا تدعي شعاع الشمس ،
يصيب باحمراره وجنتيك الموردتين ...
سأذهب ... وأبتاع من سوق الموصل ،
وشاحاً لقامة حبيبتي ...

وسأضع الوشاح على قامتها ،
في حفلة راقصة في القرية !!

قصيدة في جعفر آغا الذي اغتيل في طوريس

أيها الآغا الشاب ،
ليت الطاعون يفتك بولي عهد إيران ...
أيها الآغا الشاب ،
كنت في ساحة المعركة راسخاً كالطود !
شوكة في عيون العدو !
باشا الصحراء الحقيقي !
لقد أصابوا جسدك برصاصتين قاتلتين ...
فارس كبير بين فرسان كبار أنت !
إن « هادي » امرأة جعفر آغا تنتحب ...
وامرأته الثانية « موتيبري » تبكي ...
ثم تضع منديلاً على ثياب أبي بوزكو .
أين الطبيب « لقمان » فالجراح بالغة !!
ليت الطاعون يفتك بولي عهد إيران !
وهناك في طوريس الملعونة ،
شرعوا ينورون ابتهاجاً !!!
وانتشر الخبر بين عشيرة السيد في كربلاء !
هيلا ... أيها الرجال ،
عفلق بك أقسم أنه لن يذهب إلى القلعة ،

ولن يضيء الشمعة في القنديل ...
هيلا ... أيها الرجال ،
فالديوان مكتظ بالجماهير ...
وأكتاف البواسل قوية ! إن جعفر آغا قتله وليّ العهد في طوريس .
هكذا ، ذهب عفلق بك إلى « طوربكالا » ،
يطلب من القائمقام التركي ،
إخلاء سبيل رجاله المعتقلين .
وبعد أن قتل عفلق بك القائمقام ،
فقد عفلق بك اثنين من إخوته !
أثناء معركة بالسلاح الأبيض ...
أيها الرجال ، قامة عفلق بك كشجرة التوت !
وحين عودة عفلق بك ،
كان موكبه يحمل جثتي شقيقيه ...
فخاطب عفلق بك عائشة خانم يقول :
لا تحزني ، لقد صُرع شقيقاي كالأبطال ...
وهما يقاتلان قتال المغاوير !

معركة الاخوين بشار وجميل مع الاتراك

*

أيها الاخوة ، نحن في حالة حرب !
أنا بشار الأشقر ، لا يمكنني أن أعيش تحت حكم الأتراك !.

وليعلم الجميع أنني لن أُطلق النار على الجنود .
فهؤلاء مكلفون بتنفيذ الأوامر فقط !
سأطلق النار على القائمقام ،
على البكباشي ... على اليوزباشي على الباشاويش !
سأعلن الثورة في قلعتي ،
حيث سأكون كالنمر الرابض وراء الصحراء !
وهذا جميل يصيح : بشار يا أخي ...
يجب أن نعمل شيئاً خطيراً ،
كي ينتشر إسمنا في العالم !
أيها الإخوة ، نحن في حالة حرب .
أخي ، أنت تعلم أن الشيخ قد زارنا نهار الجمعة :لقد باركنا!
خذ البندقية ، ولا تنزع المسدس من كفك !
لا تطلق النار على الجيوش ، فهؤلاء أبناء الدولة .
انظر إلى كل من يحمل سيفاً طويلاً ...
وحمائل مذهبة على كتفيه !
فهذا ، أطلق النار عليه !
إن قصر بشار تشيتو قرب النبع ...
وبشار ينادي أخاه جميلاً بقوة :
إرم جيداً ... إني أقسم بروحي وجسدي ،
لن آكل خبز الجبناء ما دمت حياً !

*

إن هذه النماذج الشعرية الشعبية من الأدب الكردي توحي لنا مدى تعلق الكردي بالقتال والحب ، إلا أنه فاتنا تزيينها بالأشعار الوصفية التي تصور لنا الطبيعة والرعاة والمواشي والجبال في فصل الصيف . ولا شك في أن القارىء يمكنه الاطلاع على مقدار تعلق الكردي بوطنه من خلال مآثر « أرب شامو » الأدبية ، وهو كردي من ترانسقوقاز أمعن في وصف طبيعة بلاده وما فيها من روعة وجمال .

*

ملاحظات وآراء حول كتاب « الاكراد »

بقلم الأديب الكردي جلال كردستاني

لطالما كان الشعر ، والغناء ، والرقص ، يشكل الفولكور القومي لكل شعب . ولما كان الفولكور الكردي — رغم كل الظروف الصعبة — من أغنى الفنون الشعبية ، المحافظة على طابعها الأصيل ، وجوهرها الانساني المحبب . فإن ما ورد في الفصل السادس وتحت عنوان : « وسائل اللهو ، الشعر والغناء والرقص » يعتبرُ أثراً ضئيلاً ، بل ومقتضباً جداً ، لما يمكن أن يقال ويُكتب ، عن فن وشعر الشعب الكردي .

وحيث أن المؤلف الكريم ، يذكر أن الكردي سواء كان رجلاً أو امرأة ، هو شاعر بفطرته ، يمكننا أن نذكر أسماء بعض الشاعرات الكرديات اللواتي دخلن قلوب الأجيال الكردية كافة ، منهن : الشاعرة الكردية الخالدة « ماه شرف خان » التي لُقبت بـ « مستورة كردستاني » و « مريم خان » التي جمعت الغناء إلى الشعر . أما « كل بهار [1] » فهي شاعرة معاصرة ، تمارس الغناء إلى جانب كتابة الشعر . هذا عدا أن فتيات وشابات الجيل الكردي المعاصر الناهضات يعشن حياة شعبهن بكل وقائعها المؤلمة ، وجوانبها الناهضة .

---

١ ـ بالكردية Gul Bihar وبالانكليزية Gul Bhar

إن الأغنية الكردية ، تتسم دائماً بصفة مميزة ، وهي كونها بعيدة عن الابتذال ، حزينة النغمة ، رفيعة المعنى ، تسمو إلى أن تثير أنبل المشاعر ، وأدفأ العواطف في نفس الانسان . وهي باختصار تعبّر في نغمتها وأسلوبها ، عن آلام الانسان المضطهد ، ممزوجة بآماله ! .

ومهما يكن من واقع موسيقى وفولكلور الشعب الكردي ، فإن الظروف السياسية القادمة ، هي التي ستدع الأكراد يطورون موسيقاهم وفولكورهم ، أو ستطوي صفحة رائعة غنية من فن شعب عريق كالأزل ، في دجى الضياع والنسيان !

أما عن الحركة الوطنية الكردية ، فقد جاء الفصل السادس ، رغم تقسيمه إلى بنود وعناوين ، مفتقراً إلى الايضاح والصراحة . فمعاهدة سيفر التي ذكرها المؤلف لم يحدثنا عن أية مادة من موادها ، وبدونها جاء الحديث عن الحركة الوطنية الكردية مفتقراً إلى الأمثلة الواقعية ، والأحداث التاريخية .

فقد جاء في المادة ٦٤ من معاهدة سيفر ما يلي :

« وفي مدة سنة من هذه المعاهدة ، إذا طلب الأهالي الأكراد في المناطق المذكورة في المادة ٦٢ من مجلس العصبة الاستقلال ، وأثبتوا أن أكثرية الأكراد تريد ذلك ، ووافق مجلس العصبة على أهلية الأكراد للاستقلال ، وأوصى بذلك ، فإن تركيا تتعهد منذ الآن بتنفيذ هذه التوصيات ، ولا تتمسك بأي حق في هذه الأقاليم . ويتفق على تفاصيل هذا التنازل ما بين تركيا وقوى الحلفاء الأساسية . وإذا وقع هذا التنازل ، لا تعترض قوى الحلفاء

على دخول سكان كردستان من الأكراد التابعين حتى الآن لولاية الموصل ، في هذه الدولة الكردية . »

إلى هنا ، ينتهي نص المادة الرابعة والستين من معاهدة سيفر عام ١٩٢٠ . ولكن ماذا حدث ؟.

هل أقر الحلفاء بالواقع واعترفوا بالحقيقة ، حين هبّ الأكراد يطالبون بحقهم كشعب ، وبحق تقرير المصير الكريم الذي يبتغيه ؟أم قلبوا للأكراد ظهر المجن ، حين استبدلوا حق الأكراد ، بصداقة محكمة الصنع مع دولة تركية تقوم على الأراضي المغتصبة من شعوب الأمبراطورية العثمانية ؟

لسوء حظ الأكراد ، تنكر الحلفاء لمعاهدة سيفر ، وتصلّب الأتراك الطورانيون حيال الأكراد ،بل وقفت دول الحلفاء وراء تركيا تمدها بالقوة والعون للقضاء على مطاليب الأكراد . وطبخت معاهدة لوزان لتحل محل معاهدة سيفر . وتحطمت إرادة الأرمن في ولايات شرق تركيا ، وقضي على آمال الأكراد في إعادة الوحدة إلى الولايات الجنوبية والشرقية ، وحين قاوم الأكراد أجهض على مقاومتهم بقسوة ووحشية ،وأبدلت تركيا اسم الشعب الكردي بأتراك الجبال [1] ! وشردتهم ، وهجّرت آلاف العائلات الكردية ، وأصدرت قانوناً يمنع الأكراد من إنشاء القرى ، وجرّدت كبار الملاكين الأكراد من ملكيتهم ، ونفتهم .

واشتعلت الثورة ، وقدّم لها الأكراد الوقود بسخاء ،وصمدوا في جبالهم .

---

١ ـ منطقة كردية في تركيا ، ذات طبيعة جغرافية جبلية .

ولنقرأ مع السيدة (أنديرا غاندي [1]) بعضاً من رسالة ، كان قد بعث بها إليها والدها المرحوم لال نهرو ، يوم كان سجيناً ، يقارع الاستعمار البريطاني :

« وقضى كمال باشا بعد ثورة عام ١٩٢٥ على الأكراد بلا رحمة ، وأقام محاكم الاستقلال الخاصة لمحاكمتهم بالألوف ، وأعدم الزعيمان الكرديان الشيخ سعيد والدكتور فؤاد وغيرهما ، الذين ماتوا وأمنية استقلال كردستان لا تفارقهم . »

ويتابع نهرو ، زعيم الهند الراحل ، حديثه إلى إبنته الوحيدة قائلاً :

« وهكذا نرى أن الأتراك الذين حاربوا مؤخراً للحصول على حريتهم ، سحقوا الأكراد لمطالبتهم بحريتهم ، فما أغرب تحول القومية من دفاع عن الوطن ، إلى هجوم لسلب حرية الغير . وفي عام ١٩٢٩ ثار الأكراد ثانية ، ولكن ثورتهم سُحقت ولو إلى حين ، إذ كيف يمكن أن تخمد إلى الأبد ثورة قوم يكافحون من أجل الحرية ، وهم مستعدون لدفع الثمن ؟! »

*

الادب الكردي

صحيح قول « فلتشفسكي » من أن غنى القصائد الشعبية ليس إلا نتيجة طبيعية لجهل العامة اللغة الأم . ولكننا نناى عن الحقيقة والواقع حين نعزو سبب جهل الأكراد للغتهم إلى العوامل

١ ـ أنديرا غاندي ، رئيسة وزراء الهند حالياً .

الاجتماعية لهذا الشعب .

فالواقع السياسي المرّ والأليم للشعب الكردي ، هو السبب الأساسي لكل ما طرأ على القيم الحضارية للأكراد ولغتهم ، من انكماش وتقهقر .

وإذا تصفحنا تاريخ الأدب الكردي ، نراه يوحي إلينا بثقة عظيمة ، تبدد ما قد يكون قد علق بذهننا عن ضآلته وافتقاره .

ومرة أخرى ، نقول إن المرأة الكردية ، ما كانت في تاريخ حياتها ، كغيرها من نساء الشرق ، متقوقعة ، أو متحجبة خلف الستائر الحريرية ومنعطفات الدهاليز ، بل كانت دائماً الندّ والرفيق الصدوق للرجل الكردي ، في كل مجالات الحياة ، في الفروسية ، والفن ، والأدب ، وأيضاً في السياسة .

ماه شرف خان

شاعرة كردية ذائعة الصيت ، وُلدت عام ١٢٢٠ للهجرة ، اشتهرت بلقبها « مستورة كردستاني » . تزوجت « خسروخان » الذي كان أحد رجالات الأكراد البارزين ، والوالي العام لإقا كردستان . وقد طُبع ديوانها بعد ترجمته إلى الفارسية .

بابا طاهر الهمداني

وُلد في « همدان » بكردستان الايراني ، يكاد شعره يقتصر على مواضيع الحب العذري ، والغزل الرفيع . اهتم المستشرقون

بآثاره ، ونشروا بعضها . ففي طهران ،قام صاحب مجلة « ارمغان » الفارسية بطبع بعض آثاره الأدبية .

علي ترموكي

أما علي ترموكي ، فهو ككل العباقرة الذين يولدون كالقدر ، فيخلقون ويبدعون ، فالترموكي هو أحد الذين خلّدوا باسمهم تاريخ الأدب الكردي ! .

هو من قرية « ترموك » الصغيرة الواقعة بين « ماكو » و « حكارى » . وقد وضع قواعد النحو والصرف للغة الكردية ، وكان ذا شعور رقيق ، وإحساس مرهف ، وفكر عميق . فقصائده المعنونة بـ « كلمة واحدة » و « عقد ياقوت » و « إن كانت الحياة نومة » . هي في غاية العمق في الفكر ، والقوة في الأسلوب والحرارة في العاطفة القومية . عاش ترموكي في القرن الرابع الهجري ، وله آثار مترجمة إلى الفرنسية .

ملاي جزيري

اسمه الحقيقي « الشيخ أحمد » وُلد في جزيرة « بوطان » وعاش في النصف الثاني من القرن السادس الهجري . شعره ككل شعر كردي ، رقيق الشعور ، دافىء العاطفة . وقد أمضى حياته بين ألم وأمل إذ هامَ بحب أميرة كردية .

احمد خاني

وحين نذكر أحمد خاني ، فإن مأساة « مم وزين » الملحمة

الشعرية الرائعة ،لا بد من أن تثير فينا أكبر الاحترام والتقدير ، للشاعر الانسان ، الذي استطاع أن يعبّر ويبدع !

أحمد خاني ، هو من عشيرة « خانيان » المقيمة في لواء بايزيد . عاش بين ١٥٩٢ – ١٦٥٣ ميلادي .

من أشهر آثاره الأدبية ، قاموس كردي عربي ، يحمل اسم « نـه بار » . وملحمة شعرية رائعة تحكي مأساة شعب من خلال مأساة عاشقين ، في ٢٦٥٥ بيتاً من الشعر الموزون .

إن مأساة « مم وزين » هي الرواية المفضلة والمحببة لدى كل الأكراد نساءً ورجالاً .ولقد طُبعت هذه الملحمة حتى الآن باللغة الكردية وبالحروف العربية أربع مرات : المرة الاولى في عام ١٩٢٠ في اسطمبول بتركيا ، غير أن الحكومة التركية بادرت إلى مصادرة نسخ هذه الطبعة وإحراقها !. ثم في عام ١٩٤٣ أعيد طبعها في سوريا . وفي عام ١٩٥٣ طـُبعت في « هولير » والمرة الرابعة كانت عام ١٩٦٢ في موسكو . وتـُرجمت مأساة « مم وزين » إلى عدة لغات منها ، الفرنسية ، والالمانية ، والروسية ، والعربية .

حاجي قادر كويي

شاعرٌ وطني كرّس حياته وأدبه في سبيل أمته . وُلد في عام ١٢٣٢ للهجرة ، في قرية صغيرة على أحد الجبال القريبة من « كوي سنجق » بكردستان العراق . وتوفي رحمه الله عام ١٣١٢ هجري .

طُبعت قصائده في بغداد .

أما الأدب الكردي المعاصر ، فإنه في مرحلة انطلاق نحو إثبات الذات الكردية ، متجاوزاً كل الحدود الموضوعة ، ومتحدياً القيود التي تـُفرض عليه . وهو يمتاز بالواقعية في معالجة القضايا الشعبية .

فالشاعر الشاب « هه ثار » هو اليوم أمير شعراء الأكراد ، حيث تستقطب حول شعره الجماهير الكردية ، مغرمة بصدق قصائده ، وحرارة عباراته . وثمة أُدباء أكراد آخرون ، منهم « فايق بوجاك » . و « م . آ » و « كمال بعدنللي » و « كوران بدرخان » وغيرهم .

*

جدول الخطأ والصواب

الصفحة و(السطر)	الخطأ	الصواب
٥(٨)	من الشؤون	في الشؤون
١٠(٢٢)، ٢٣٠(٣ـ٤)، ٢٣١(٦ـ٨)	فولكور	فولكلور
١٧(٤)، ١٩(٤)	اوراتو	اورارتو
٢١(١٠)، ٢١٧(٣)	زهاق، زوهاق	ضحاك
٢٢(١٤)	ووجهم	ووجههم
٢٥(١٩)، ٤٢(١٢، ١٧)، ٤٣(٣)، ١٤٨(١٤، ١٨)، ١٥٠(٧)، ١٥١(٢، ١٩)، ١٩٧(٢١ـ٢٢)، ٢١٤(١٠)	سندوج، سناه، سنّات، ١٥٢ (١٣)،	سنه (سنندج)، ١٥٦(١١)،
٢٦(١٠)، ١٣٧(١٢)، ١٣٨(١٤، ١٦)	جلاميرغ. دجولا مرغ	جولميرك
٢٧(٣)	صركمرامار	سركي اورامار
٢٧(١٧)	كيزلوزن	(قيزل) اوزن
٢٩(٢)	مزنديران	مازندران
٣١(٩)	تنجي بيلندا	تنگي بالنده
٣٩(٨)	كويده	خودا
٣٩(٩)	بيران بيردان	بران بردان
٤٢(١٧ـ١٨)، ١٨٠(٢-٣) ، ٢١٤(١٠)	سردج بولاج، سرج بولاك، سالرج بولاك	ساوج بولاق، سابلاخ (مهاباد)
٤٣(٢٠)	باسطتاعتنا	باستطاعتنا
٤٥(٩)	ارغاني	ارغني

٥٢(٩)	نمازج	نماذج
٦٨(١١)	لابراهيم باشا والي كردستان	لاسماعيل باشا أمير العمارية (آميدي)
٨٠(١٨)	سروان	سروال
٨٨(١)، ١٨٥(١)، ٢١٠(١٤)، ٢٣٧(٩-١٠)	كاموران، كياموران، كمران، كموران علي بلدرخان	كامران عالي بدرخان
٨٨(٢)	شقيق الامبراطورة ثريا	شقيق الأمير ثريا
٨٨(٢١)	قبلة	قبيلة
٨٩(٥)	مها نركيز	مها نيرگز
٨٩(١١)	آخر الزعماء الحميديين	آخر الزعماء الآميديين
٩٧(١٨)	الصرة	السرة
١٠٣(١٧)، ١٠٤(٢)	بصه	بسي، بسه
١١٦(١)	شمدانين	شمدينان
١١٦(١٨)	ترجفر	تركَڤَر
١٣٤(٦)	أك كويونلو	آق قوينلو
١٣٥(١٤)	الكرمندج	الكرمانج
١٣٥(١٥)، ١٤٧(١٢)، ١٥٦(٢)، ١٥٧(٨،١١)، ١٥٨(٢٠)، ٢١٤(٨)	كلحور	كلهور
١٣٨(٦)	متسكردة	مستكردة
١٣٨(١٥،١٧)، ١٤٢ (١١)، ١٥٠(٥)، ١٦٤(١)، ١٧١(٦)، ١٧٨(١٥)، ١٧٩(٥)	روندوز، رمندوز، رامندوز،راوندوز ، راندوز	رواندز
١٤٠(٧)	دجيبرنلي	جبرانلي
١٤٢(١١)	اربل، كارتشولان، صرر	اربيل، قلاجوالان، سرسير

١٤٢(١١)، ١٧٧(١٧)	كوسنجق، كوي سندجق	كويسنجق (كويه)
١٤٣(١٤)	تشامتشامل	چمچمال
١٤٥(١٣)، ١٧٢(١٥)	ميندواب، مينداب	مياندوآب
١٤٦(٧)، ٢٠١(١٦)	منفور	منگور
١٤٦(٢١)	اذرباجيان	اذربايجان
١٤٧(٢٠)	النبي الفارسي	النبي الكردي
١٤٩(٢١)	اردبل	اردبيل
١٤٩(٢٢)	كوردجسان	گورجستان (جيورجيا)
١٥٠(٥)	دجونرو	جوانرو
١٥٠(٦)	مروان، ساكيز	مريوان، سقز
١٥٠(١٢)	البطل الفارسي	البطل الكردي
١٥١(١٥ـ١٦ـ١٨)	متعمد عود دولة	معتمد الدولة
١٥٣(١، ٢٠)	كزيل ريّاط، كزيل الرباط	قزل رباط
١٥٣(٢٠)	بندجفين	پينجوين
١٥٤(٤، ٨)	سرفان	سيروان
١٥٤(٥، ١٧)	خناقين	خانقين
١٥٤(٥)	كاراداغ	قره داغ
١٥٦(١)	ماهيدخت	ماهيدشت
١٥٦(٨، ٢١)	تدجيك	تاجيك، طاجيك
١٥٨(٧، ١٢، ١٧)	سندجابي	سنجابي
١٥٨(٩)	بوتشكوح	پشتكوه
١٥٨(١٠ـ١١)	صلار عود دولة	سالار الدولة
١٥٩(١٨)	شقاق	شكاك
١٥٩(٢٢)	محمود باشا	الشيخ محمود برزنجي
١٦٠(٢)	الشيخ برذان	شيخ بارزان

١٦٤(١٠)	الدروس الكردية	الدراسات الكردية
١٦٥(١٣)	دوسطاق	دوستك
١٦٦(٣)	بني عناز	بني عيار
١٦٦(٣)	شبنكرا	شبانكاره
١٦٦(٤،١٤)، ١٧٠(١٨)	الحضر سبيين، الحضر سبيون .	الهزار أسبيين (نسبة إلى الأتابك هزار أسب، زعيم الحكومة الفضلوية(اللور الكبير)
١٦٦(١٤)	ديناور	دينور
١٦٨(٢١)، ١٧٠(٢٢)	الصفدية، الصفديين	الصفوية،الصفويين
١٦٩(٩)	المالطية	ملاطية
١٦٩(١٢_١٣)	امارة تركية	امارة كردية
١٧١(٣)	(١٧٦٠_١٧٦٩)	(١٧٥١_١٧٧٩)
١٧١(١٤)، ١٧٨(١٧)	فلتشفكي، فيتشفسكي	فيلچيفسكي
١٧٢(٧)، ١٧٤(٤)، ١٨١(١)	١٨٨٥، ١٨٣٠	١٨٨٠ (ثورة الشيخ عبيدالله نهري)
١٧٢(١٦)، ١٨٠(١٢، ١٥)	يزدشير، يزدان شر	يزدان شير
١٧٤(١٢)	الهوبيون	الخويبون
١٧٧(١٦)	السليمانية ١٧٨٦	السليمانية١٧٨٤
١٧٨(١٣)	الأتراك خلال الحرب الروسية التركية	الأكراد خلال الحرب الروسية التركية
١٧٨(١٥)، ١٨٠(١٤)، ١٨٣(١٢)، ٢٣٥(١٥)	بحطان، بوطان	بوتان
١٧٨(١٥)	بحبحان	بهبهان

١٧٩(١٥)	ثورة بدر الدين خان بك ١٨٤٣ـ ١٨٤٦	ثورة بدرخان بك ١٨٤٢ـ١٨٤٨
١٨٠(٢)	فان	وان
١٨١(٢١)	فوكلستون	فولكستون
١٨٥(٩، ١٠، ١٥)	سفر	سيفر
١٩٠(٨)	الشيخ محمد	الشيخ أحمد
١٩٠(١٨)	١٣ كانون الثاني	٢٢كانون الثاني
١٩٨(١١)	الخناقة	الخانقاه
٢٠١(٢)	كاك أمادي	كاك أحمد
٢٠١(١٨)	التعلباني	الطالباني
٢٠٢(٤)	آماد	آميدي
٢٠٢(١٤)	أكرا وزبار	آكري (عقرة) وزيبار
٢٠٧(٩، ١٤، ١٦)، ٢٠٨ (١٥، ٢٠)	تشلب، تشلبي	چلب، چلبي
٢١١(١)	مام	مم
٢١٤(٢)	كيزيلباج	قزلباش
٢٢٨(١٧)	بشارتشيتو	بشارچتو
٢٣٥(٨)	حكاري	هكاري
٢٣٦(٤)	١٥٩٢ـ١٦٥٣ (أحمدي خاني)	١٦٥٠ـ١٧٠٧
٢٣٧(٦)	الشاعر«هه ثار»	الشاعر«هه ژار»